النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى باللغة العربية

أغاثا كريستي

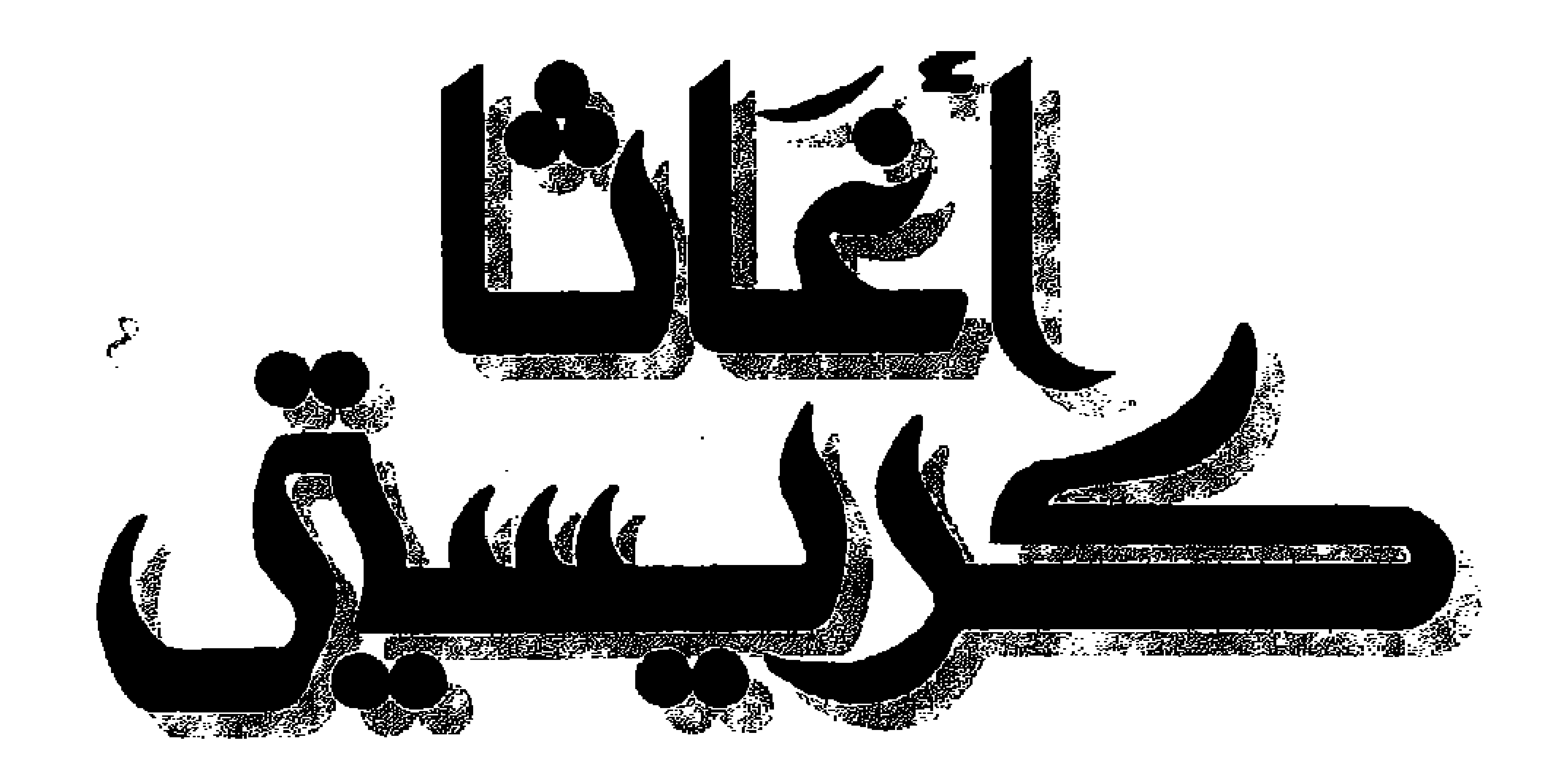
لَيْلٌ لا يَنْتَهي



الأجيَال
للترجَمَة والنشر
AJYAL Publishers



ليلٌ لا ينتهي



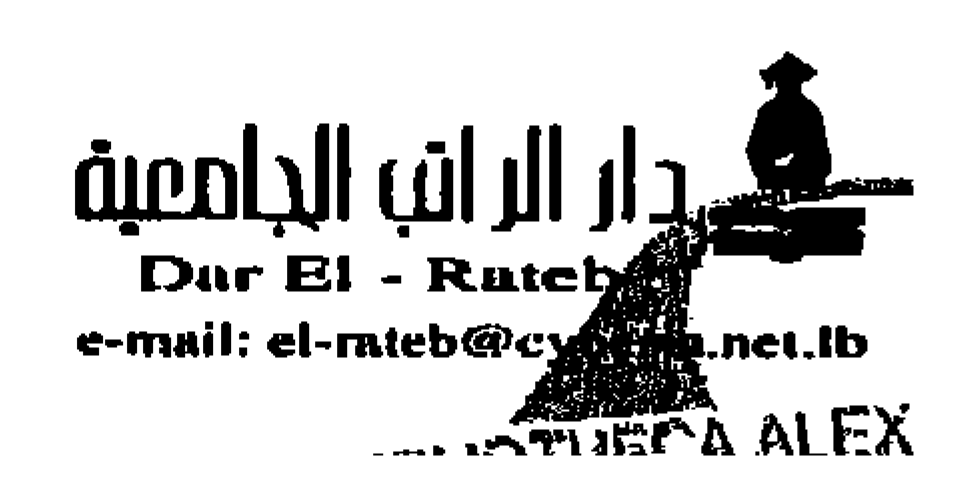
لَيْلٌ لا يَنْتَهي

طُبعت للمرة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٦٧

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون

تنفيذ الغلاف: عروة مؤمن ديرانية







هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب،
وهي تضم النص الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٦٧ بعنوان

Endless Night

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
E-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الأولى
٢٠٠٢

التوزيع في جميع أنحاء العالم: دار الراتب الجامعية
ص ب 229 5 14 بيروت-لبنان 2020 5 110
هاتف: 03/877180-01/853993-01/853895
E-mail: el-rateb@cyberia.net.lb



فِي كلِّ صبحٍ ينقضي، أو ينقضي مساء،
يولد بعض الناس للشقاء،
كلّ مساءٍ ينقضي، أو ينقضي صباح،
يولد بعض الناس للأفراح،
لكلٍّ ما لذّ من الأفراح،
ويولد البعضُ لليلٍ لا ينتهي.

الكتاب الأول

- ١ -

في نهايتي تكون بدايتي... ذلك استشهاد لطالما سمعتُ الناس يرددونه. ولا يبدو فيه أي بأس، ولكن ما الذي يعنيه حقاً؟

هل توجد أي نقطة يمكن للمرء أن يضع إصبعه عليها ويقول: "لقد بدأ الأمر كله في ذلك اليوم، في الزمان الفلاني، والمكان الفلاني، وبالحادث الفلاني"؟

أترى قصتي بدأت عندما لاحظتُ ذلك الإعلان مُعلّقاً على جدار محل جورج دراغُن للعقارات، معلناً وجود بيع بالمزاد لتلك العزبة القيّمة المسماة «تاورْز» (أي: الأبراج)، ومُعطياً تفاصيل الأرض من أميال ومساحات، مع صورة مثالية جداً لمنزل «تاورْز» كما كان من شأنه أن يكون في أوج مجده، ما بين ثمانين ومئة عام مضت.

لم أكن أصنع أي شيء محدد، بل أتمشى على غير هدى، أقتل الوقت في الشارع العام لبلدة كينغستُن بيشوب (وهي مكان لا أهمية له على الإطلاق). وقد لاحظتُ إعلان البيع. لماذا؟ أكان القدر يزرع العناء والشقاء أم يوزع الحظ الطيب؟ يمكنك أن تنظر إلى الأمر بكلا الطريقتين.

أو ربما أمكنك القول إن بدايات الأمر كله كانت عندما قابلتُ سانتونيكس، خلال مناقشاتي معه. يمكنني أن أغمض عينيّ وأرى وجنتيه المتوردتين وعينيه اللتين تفيضان ذكاء، وحركة يده القوية رغم رقتها وهي ترسم المخططات والتصاميم للبيوت. بيت واحد على وجه الخصوص، بيت جميل، بيت من الرائع أن يمتلكه المرء!

وقد بدأ يزداد -وقتها- شوقي إلى بيت، إلى بيت جميل رائع، بيت ما كان لي أن آمل بامتلاكه أبداً. كان ذلك خيالاً سعيداً نشترك فيه، البيت الذي سيبنيه لي سانتونيكس... لو أنه عاش ما يكفي لذلك.

بيت سأعيش فيه بأحلامي مع الفتاة التي أحببتها، بيت سنعيش فيه (كما في قصص الأطفال الخيالية) «في سعادة دائمة بعد ذلك». وكان كل ذلك خيالاً محضاً، كله هراء، ولكنه أطلق داخلي ذلك التيار الدافق من الشوق، الشوق لشيء لم يكن يُحتمَل أبداً أن أملكه.

وإذا كانت هذه قصة حب (وأنا أقسم أنها قصة حب فعلاً) فلماذا لا أبدأ حيث وقعت عيني لأول مرة على إيلي وهي تقف تحت شجر التنّوب ذي اللون الغامق في «فدّان الغجري»؟

فدّان الغجري. نعم، ربما كان من الأفضل أن أبدأ هناك، في اللحظة التي ارتددتُ فيها عن لوحة إعلان البيع برعشة خفيفة بسبب غيمة سوداء جاءت لتغطي الشمس، ثم طرحتُ سؤالاً دون اهتمام على شخص من أهالي القرية كان يشذب -في مكان قريب- سياجاً شجرياً بطريقة لاهية.

- كيف هو هذا البيت المسمى «تاوَرز»؟

وما زال بوسعي أن أرى الوجه الغريب للرجل العجوز وهو ينظر إليّ جانبياً ويقول: "ليس هذا هو الاسم الذي نطلقه عليه. أيّ اسم هذا؟". ثم همهم باستهجان وأضاف: لقد مرت سنوات طويلة منذ أن سكن فيه أناس وأسموه بهذا الاسم.

سألته بعدها ما الذي يسميه هو، ومرة أخرى انحرفت عيناه عني بوجهه العجوز المتجعد بتلك الطريقة الغريبة التي يعمد إليها أهل الريف في عدم التحدث إليك مباشرة، والنظر إلى ما خلفك أو إلى الجانب كما لو كانوا يرون شيئاً لا تراه أنت، ثم قال: إنهم يسمونه هنا «فدّان الغجري».

- لماذا يُدعى هكذا؟

قال: "لقصة ما... لا أعرف بالضبط. هذا يقول شيئاً، وذاك يقول شيئاً آخر". ثم استدرك قائلاً: ولكنه -على أية حال- المكان الذي تقع فيه الحوادث.

- حوادث سيارات؟

- كل أنواع الحوادث، ولكن غالباً حوادث السيارات في أيامنا هذه. إنها زاوية قذرة هناك.

- حسناً، إن كان هناك منعطف سيء فمن الطبيعي أن تقع حوادث.

- لقد وضع المجلس القروي إشارة تحذير من الخطر هناك، ولكنها لم تنفع، بل بقيت الحوادث كما هي.

سألتُه: ولماذا الغجري؟

ومرة أخرى راوغتني عيناه، وكان جوابه مبهماً: بسبب قصة غريبة. يُقال إنها كانت أراضي غجر ذات يوم، وقد طُردوا منها، فوضعوا عليها لعنة.

ضحكتُ، فقال العجوز: إيه، يمكنك أن تضحك! إن من الأماكن ما يكون ملعوناً فعلاً، ولكنكم -معشر المتذاكين من أهل المدن- لا تعرفون شيئاً عنها. توجد أماكن ملعونة بالتأكيد، وقد حلّت لعنة على هذا المكان. إن الناس يُقتَلون هنا في مقلع الحجر عندما يأخذون الحجارة للبناء. لقد وقع جوردي المسكين فوق الحافة هناك في إحدى الليالي ودُقت عنقه.

- أكان ثملاً؟

- ربما. كان يحبّ الشراب، ولكن الكثير من السكارى يقعون دون أن تُدَقّ رقابهم، أما جوردي فقد دُقت عنقه. هناك، في فدان الغجري.

ثم أشار خلفه إلى التلة التي تغطيها أشجار الصنوبر!

نعم، أظن أن تلك كانت البداية. وهذا لا يعني أنني قد التفتُّ كثيراً لهذا الأمر وقتها. بل حدث فقط أنني أتذكره، هذا كل ما في الأمر. وأحسب -عندما أفكّر بشكل جيد- أنني قد أضفتُ قليلاً إليه في عقلي. ولا أدري متى سألتُ إن كان يوجد غجر باقون في المنطقة. لا أدري إن كان سؤالي هذا في بداية حديثي مع العجوز أم بعد ذلك،

ولكنه قال إنه لم يتبقّ الكثير منهم في أي مكان؛ فقد كان الشرطة يلاحقهونهم دوماً.

سألته: ولمذا لا يحب أحدٌ الغجر؟

قال بنفور: "إنهم مجموعة لصوص". ثم نظر إليّ بإمعان أكبر وعلّق قائلاً وهو يطيل التحديق بي: أيمكن أن تكون لك أنت دماء غجرية؟

قلتُ إنني لا أعرف لنفسي مثل هذه الدماء. وهذا صحيح، فأنا أشبه الغجر قليلاً، وربما كان هذا هو ما شدني إلى اسم فدان الغجري. وفكرتُ مع نفسي وأنا أقف هناك مبتسماً بأنه ربما كان لي قليل من الدماء الغجرية.

فدان الغجري... صعدتُ الطريق الذي يلتف صعوداً خارج القرية ويخترق الأشجار الداكنة ووصلتُ -أخيراً- إلى قمة التلة بحيث أستطيع الإشراف على البحر والسفن. كان ذلك منظراً رائعاً، وفكرت -كما يفكر المرء بالأشياء عادة- قائلاً لنفسي: "عجباً! كيف سيكون الأمر لو كان فدّان الغجري فدّاني أنا؟". مثل هذا التساؤل فقط... كانت مجرد فكرة سخيفة. وعندما مررتُ ثانية بمُشذّب السياج قال: إن كنتَ تريد غجراً فعندنا السيدة لي العجوز بالطبع. لقد أعطاها الميجر بيتاً صغيراً لتعيش فيه.

- ومن هو الميجر؟

قال بصوت مصدوم: الميجر فيلبوت طبعاً.

بدا منزعجاً تماماً لسؤالي! وقد فهمتُ أن الميجر فيلبوت كان السيد المُطاع محلياً، وأحسب أن السيدة لي كانت أقرب إلى تابعة له يقوم هو بإعالتها، وبدا أن عائلة فيلبوت قد عاشت كل حياتها هناك، وكانت تدير المنطقة نوعاً ما.

وعندما تمنيت لعجوزي نهاراً طيباً واستدرتُ للذهاب قال: إن لها آخر بيت في هذا الشارع. ولعلك تراها خارج البيت، فأولئك الذين في عروقهم دماء غجرية لا يحبون البقاء داخل البيوت.

وهكذا كنتُ أنا هناك، أتمشى في الشارع وأنا أصفر وأفكر بفدان الغجري. وكنتُ قد أوشكت على نسيان ما قيل لي عندما رأيتُ امرأة عجوزاً طويلة القامة سوداء الشعر تحدق بي من خلف سياج حديقة. وعرفت -فوراً- أنها السيدة لي دون شك. توقفت وتكلمتُ معها قائلاً: لقد سمعتُ أن بوسعك أن تخبريني عن فدان الغجري فوق التلة هناك.

حدقت بي من خلال طرف شعرها الأسود المُلبّد وقالت: لا تكوننّ لك أية علاقة بذلك أيها الشاب. استمع إليّ، انسَ أمره. إنك فتى وسيم، وما من خير يأتي من فدّان الغجري... لن يأتي منه خير أبداً.

- لقد رأيته معروضاً للبيع.

- إيه! هو معروض، والأحمق من يشتريه.

- من الذي يُحتمل أن يشتريه؟

- بعض البنّائين يسعون خلفه... وسيباع رخيصاً، سترى.

سألتها بفضول: ولماذا يباع رخيصاً؟ إنه موقع رائع.

لم تجب على ذلك. فقلت: فلنفترض أن بنّاء اشتراه رخيصاً، فماذا سيفعل به؟

ضحكت مع نفسها، وكانت ضحكة حقودة كريهة، ثم قالت: سيهدم البيت القديم المتداعي وسيبني مكانه طبعاً. سيبني عشرين بيتاً أو ربما ثلاثين... وكلها عليها لعنة.

تجاهلتُ المقطع الأخير من الجملة، وقلتُ قبل أن أمنع نفسي: سيكون ذلك عاراً... عاراً كبيراً.

- آه، لا حاجة بك للقلق. إنهم لن يفرحوا بذلك، لن يفرح بذلك من يشترون ومن يرصفون الآجر والإسمنت. ستزِلّ قدمٌ عن السلّم، وستصطدم شاحنة وهي محملة، وسيسقط لوح حجري من سقف البيت ويجد ضحيته. والأشجار أيضاً، ستتهاوى في عاصفة مفاجئة. آه، سوف ترى! ما من أحد سيستفيد شيئاً من فدان الغجري. أفضل شيء لهم أن يتركوه وشأنه. سوف ترى... سوف ترى.

ثم أومأت برأسها بقوة، وكررت بهدوء مع نفسها: لا حظّ لأولئك الذين يعبثون بفدان الغجري، ولم يكن لهم حظٌّ أبداً من قبل.

ضحكتُ، فقالت فجأة: لا تضحك أيها الشاب. يُخيل إليّ أنك ستلاقي بدل الضحك بكاء يوماً ما. لم يسبق أن كان حظٌّ هناك، لا في البيت ولا في الأرض التابعة له.

- ما الذي حدث في البيت؟ لماذا بقي فارغاً طوال هذا الوقت؟ لماذا تُرك بحيث يتهدم؟

- آخر عائلة سكنت فيه ماتت، كلها.

سألتُ من باب الفضول: كيف ماتوا؟

- من الأفضل عدم الحديث عن ذلك ثانية. ولكن أحداً لم يهتم بالقدوم والعيش فيه بعد ذلك؛ لقد تُرك ليتداعى ويخرب. إنه مَنسيٌّ الآن ومن الأفضل أن يكون كذلك.

قلتُ محاولاً إغراءها: ولكن بوسعك أن تخبريني بالقصة؛ فأنت تعرفين كل شيء عنها.

قالت: "أنا لا أخوض في أقاويل عن فدان الغجري". ثم خفضت صوتها ليصبح كنُواحٍ متسولة زائفة: سأخبرك بطالعك الآن -يا فتاي الجميل- إن أحببتَ ذلك. نقِّط راحتي بالفضة وسوف أرى لك طالعك. إنك امرؤ ستبلغ شأواً عالياً ذاتَ يوم.

- أنا لا أصدق هذا الهراء عن رؤية الطالع، كما أنني لا أملك أية فضة. لا أملك منها ما أستغني عنه على أية حال.

اقتربت مني ومضت قائلة بصوت فيه محاولة الإقناع: ستة بنسات إذن، ستة بنسات. سأقرأ لك طالعك مقابل ستة بنسات لأنك فتى وسيم ذو لسان ذلق وجاذبية خاصة، وربما كنتَ ستبلغ درجة رفيعة.

أخرجتُ من جيبي ستة بنسات. ليس لأنني أؤمن بأي من هذه الخرافات الحمقاء، بل لأنني أحببتُ -لسبب ما- المحتالةَ العجوز

حتى وأنا مدرك لخداعها.

خطفت القطعة النقدية مني وقالت: أعطني يدك إذن. كلتا يديك.

ثم أخذت يديّ بين مخالبها الذاوية وحدقت في الراحتين المفتوحتين. بقيتْ صامتة لدقيقة أو دقيقتين تحدق بهما، ثم أسقطت يدي فجأة، بل كادت تدفع بهما بعيداً عنها. تراجعت خطوة وتكلمت بصوت أجشّ: إن كنتَ تعرف مصلحتك فعليك أن تخرج من فدّان الغجري الآن فوراً ولا تعود ثانية! هذه أفضل نصيحة يمكنني تقديمها لك... لا تَعُدْ.

- لماذا؟ لماذا يجب أن لا أعود؟

- لأنك إن عدتَ فستعود للحزن والخسارة وربما الخطر. أرى متاعب سوداء تنتظرك. انسَ أنك رأيتَ هذا المكان أبداً. إنني أحذرك.

- ألم تجدي من بين كل...

ولكنها كانت قد استدارت وابتعدت إلى البيت الصغير. دخلته وصفقت الباب خلفها.

أنا لا أؤمن بالخرافات. أؤمن بالحظ طبعاً، ومن ذا الذي لا يؤمن به؟ ولكنيَ لا أؤمن بالكثير من الخرافات السخيفة عن بيوت مهدمة حلت بها لعنات. ومع ذلك تولّد لديّ شعور متململ بأن تلك المخلوقة الشريرة العجوز قد رأت شيئاً ما في كفيّ. نظرت إلى راحتيّ الممدودتين أمامي. ماذا بوسع أي امرئ أن يرى في راحتيه؟ لقد كانت قراءة الكف هراء صرفاً؛ مجرد حيلة لابتزاز أموال المرء.

رفعتُ نظري إلى السماء. كانت الشمس قد غربت وبدا المنظر مختلفاً الآن، فيه نوع من الظلّ... شيء من الخطر. ورأيت أنها مجرد عاصفة تقترب. كانت الريح قد بدأت تهب، وأخذت تسقط الأوراق عن الشجر. صفرتُ للإبقاء على معنوياتي مرتفعة ومشيت في الشارع عبر القرية.

نظرتُ ثانية إلى الإعلان الملصق الذي يعلن عن المزاد لبيع منزل «تاورز»، بل إنني أخذت ملاحظة بتاريخ ذلك. لم أكن قد حضرتُ بيع ممتلكات في حياتي، ولكني فكرتُ -مع نفسي- بأنني سآتي وأحضر هذا المزاد. سيكون من المثير أن أرى مَن الذي سيشتري البيت... أي أنه سيكون من المثير رؤية من سيصبح مالك «فدّان الغجري». نعم، أظن أن هذه هي النقطة التي بدأ عندها الأمر كله.

وخطرت لي فكرة خيالية. سوف آتي وأتظاهر مع نفسي أنني أنا الرجل الذي سيقدم عرضه لشراء فدان الغجري! سأزاود ضد البنّائين المحليين، وسوف ينسحبون وقد خابت آمالهم في شرائه بثمن بخس! أنا الذي سيشتريه، وسأذهب إلى رودولف سانتونيكس وأقول له: "ابنِ لي بيتاً. لقد اشتريتُ لك الموقع". وسوف أجد فتاة، فتاة رائعة، وسوف نعيش فيه معاً بسعادة بعد ذلك.

كنت كثيراً ما أسبح في أحلام كهذه. ومن الطبيعي أنها لم تكن تفضي إلى شيء، ولكنها كانت ممتعة. هذا ما رأيته وقتها: المتعة! المتعة، يا إلهي! لو أنني عرفتُ فقط!

* * *

-٢-

كانت الصدفة المحضة هي التي أتت بي إلى منطقة فدّان الغجري في ذلك اليوم. كنتُ أقود سيارة مُستأجرة، آخذاً معي من لندن عائلة إلى هناك لحضور مزاد بيع، ولكنه لم يكن لبيع بيت بل لبيع محتوياته. وكان بيتاً كبيراً عند ضواحي البلدة تماماً، وكان بشعاً جداً. قدت السيارة بالزوجين الكهلين اللذين كانا مهتمين -مما تناهى إلى سمعي من حديثهما- بمجموعة من عجائن الورق، كائناً ما كان معنى عجائن الورق. المرة الوحيدة التي سمعتُ بها هذه العبارة تُذكر أمامي من قبل كانت من قِبل أمي في معرض الحديث عن طاسات الجلي. كانت قد قالت إن طاسات الجلي المصنوعة من عجائن الورق أفضل بكثير من طاسات البلاستيك دائماً! وقد بدا مُستغرباً أن يرغب أناس أغنياء بالمجيء لشراء مجموعة من شيء كهذا.

وعلى أية حال، فقد خزنتُ المعلومة بعيداً في عقلي وفكرت بأنني سأراجع مُعجماً أو مصدراً ما لأرى ما هي حقاً عجائن الورق، فلا بد أنها شيء يستحق أن يستأجر الناس سيارةً من أجله ويأتوا إلى مزاد في الريف ليشتروه. كنتُ أحب معرفة الأشياء. كنتُ -وقتها-

في الثانية والعشرين من عمري، وقد جمعتُ قدراً لا يُستهان به من المعارف بطريقة أو بأخرى. فقد عرفتُ الكثير عن السيارات، وكنتُ ميكانيكياً جيداً وسائقاً فطناً، وقد اشتغلتُ مرة في الخيل في إيرلندا، وأوشكتُ أن أتورط مع عصابة مخدرات، ولكني انتبهتُ للأمر وتركتها في الوقت المناسب. إن وظيفة سائق في شركة فخمة لتأجير السيارات ليست أبداً بالوظيفة السيئة؛ ففيها أرباح جيدة من الإكراميات، وهي ليست متعبة جداً في العادة، ولكن العمل نفسه كان مثيراً للضجر.

وقد عملتُ مرة في جني الفاكهة في الصيف. ولم يكن ذلك العمل يدر الكثير، ولكني تمتعتُ به. لقد جربتُ أموراً كثيرة؛ فقد كنتُ نادلاً في فندق من الدرجة الثالثة، ومُنقذاً على الشاطئ في الصيف، وقد بعتُ موسوعات ومكانس كهربائية وأشياء كثيرة أخرى. بل إنني عملتُ مرة في البستنة في حديقة مُخصصة لدراسة النباتات، وتعلمتُ القليل عن الزهور.

إنني لا أثبتُ أبداً على شيء. ولماذا أثبت؟ لقد وجدتُ كل عمل عملتُه تقريباً عملاً ممتعاً. كانت بعض الأعمال تتطلب جهداً أكبر من غيرها، ولكنني لم أهتم كثيراً لذلك، فلستُ بالكسول حقاً. بل أحسب أن علتي هي أنني ملول لا أستقر على حال. أريد الذهاب إلى كل مكان، ورؤية كل شيء، والقيام بكل عمل. أريد أن أجد شيئاً. نعم، هذا هو الموضوع. أريد أن أجد شيئاً!

منذ أن تركتُ المدرسة أردت أن أجد شيئاً، ولكنني لم أكن أعرف ما الذي سيكونه ذلك الشيء. كان مجرد شيء أتطلع إليه بطريقة غامضة غير قانعة... كان في مكان ما، وعاجلاً أم آجلاً سأعرف

كل شيء عنه. ربما كان فتاة، ولكن ما من فتاة -ممّن قابلتهنّ حتى اليوم- كانت هامة بالنسبة لي.

لقد انتقلت من أمر إلى آخر منذ أن تركتُ المدرسة. وكان الكثير من الناس يستاؤون من أسلوب حياتي، وأحسب أنهم كانوا ممن يمكنني تسميتهم «مُتمنّي الخير لي». وكان ذلك بسبب عدم فهمهم حقيقة شخصيتي. لقد أرادوا لي أن أوفّر المال، وأتزوج فتاة لطيفة، ثم أستقرّ في وظيفة جيدة مستقرة... يوماً بعد يوم، وسنة بعد أخرى، إلى أن يشاء الله. ولكن ليست هذه الحياة بالتي تروق لي! لا بد من وجود شيء أفضل من ذلك، ولا يُعقل أن لا يوجد أمامنا إلاّ هذا الأمان الخانع! ورأيت أن من المؤكد -في عالمٍ استطاع وضع الأقمار الصناعية في السماء، وأخَذَ الناسُ يتبجحون فيه بزيارة الكواكب- أن يوجد شيء يحفزك ويجعل قلبك ينبض بقوة، شيء يستحق أن يبحث عنه المرء في العالم كله ليجده!

أذكر أنني كنتُ أمشي مرة في شارع بوند، وكان ذلك في مرحلة عملي نادلاً، وكان موعد عملي قد اقترب. كنتُ أمشي وأنظر إلى بعض الأحذية في واجهة أحد المحلات، وكانت أحذية أنيقة جداً (كما يقولون في إعلانات الصحف: ما يلبسه الرجال الأنيقون اليوم!). وانتقلتُ من محل الأحذية إلى واجهة المحل التالي، وكان محلاً لبيع اللوحات، وكان في الواجهة ثلاث لوحات فقط مرتبة بشكل فني وحولها يتثنى المخمل المتهدل في لون باهت، وقد تم ترتيبه فوق زاوية ذات إطار ذهبي. وأنا لستُ ممن يفهمون كثيراً في الفن، فقد مررتُ مرة على المتحف الوطني بدافع الفضول، وقد أصابني بالغثيان

تماماً، وقررتُ -وقتَها، في التوّ واللحظة- أن الفن ليس لي. ولكن الصور التي كنتُ أنظر إليها الآن كانت مختلفة بعض الشيء. كانت في الواجهة ثلاث صور، إحداها صورة منظر طبيعي، بقعة جميلة من الريف الذي أزوره يومياً. والأخرى لامرأة رُسمت بطريقة غريبة جداً، لا تناسق في أبعادها بحيث لا يكاد المرء يميز أنها امرأة فعلاً (وأحسب أن هذا ما يسمونه الفن الحديث!). أما الصورة الثالثة فأحسست أنها صورتي. لم يكن فيها الكثير حقاً، إن كنتم تفهمون قصدي. كانت... كيف أصفها؟ كانت بسيطة نوعاً ما. فيها الكثير من الفراغ وبعض الدوائر القليلة التي تتسع حول بعضها إذا صحّ التعبير، وكل واحدة منها بلون مختلف، ألوان غريبة لا يتوقعها المرء (إلاّ أنها -بطريقة ما- عنت لي شيئاً بالفعل!). لست جيداً في الوصف، ولكن كل ما أستطيع قوله هو أن المرء تتملكه رغبة جامحة في الاستمرار بالنظر إليها.

اكتفيت بالوقوف هناك وأنا أشعر شعوراً غريباً وكأن شيئاً غير طبيعي قد حدث لي. وتذكرتُ تلك الأحذية الثمينة الرائعة، ورأيتُ أن من شأني أن أحبّ لبسها. أعني أنني ألاقي كثيراً من المتاعب في ملابسي؛ فأنا أحب أن أرتدي ملابس أنيقة بحيث أعطي انطباعاً حسناً عن نفسي، ولكني لم أفكر جدياً في حياتي أبداً بشراء زوج من الأحذية من شارع بوند، فأنا أعرف الأسعار الباهظة التي يطلبونها، وربما بلغ ثمن الزوج خمسة عشر جنيهاً. ويقولون إنها مصنوعة يدوياً، مما يجعلها تستحق ذلك لسبب ما. من شأن هذا أن يكون مجرد إضاعة للمال. صحيح أنه طراز راق من الأحذية، ولكن ثمن ذلك الرقي كبير جداً. وأنا لستُ ممن فقدوا عقولهم بعد.

أما هذه اللوحة، فكم ستكلف؟ تعجبتُ لذلك. ماذا لو أنني اشتريتُ تلك اللوحة؟ قلتُ لنفسي: "هل أنت مجنون؟ أنت لستَ من هواة اللوحات بشكل عام". كان هذا صحيحاً تماماً، ولكني أردتُ هذه اللوحة... وبودي لو تكون ملكي. أود لو أستطيع تعليقها والجلوس للنظر إليها وقتما أشاء، وأن أحس بأنها ملكي أنا! بدت تلك فكرة مجنونة. وألقيت نظرة على اللوحة ثانية. إن رغبتي أنا في تلك اللوحة لا معنى لها، وقد لا أملك ثمنها على أية حال. والحقيقة أنني كنتُ أملك مالاً في تلك اللحظة بالذات من مراهنة ناجحة على أحد الخيول، ولكن ربما كلّفَتْ هذه اللوحة مبلغاً كبيراً. عشرين جنيهاً؟ خمسة وعشرين؟ لن يكون من السؤال ضير على أية حال؛ فلن يأكلوني، أليس كذلك؟ وهكذا دخلتُ وأنا أشعر بشيء من العدوانية تحسباً.

كان كل شيء داخل المحل خافتاً وجليلاً، وكان ثمة نوع من الجو الصامت، مع جدران ذات ألوان هادئة وأريكة مخملية يمكن للمرء الجلوس عليها والنظر إلى اللوحات. جاء لخدمتي رجل أخذ يتحدث بصوت خافت بعض الشيء بحيث يتناسب مع الجو العام، والغريب أنه لم يبدُ متفوقاً متعجرفاً كما يبدو أمثاله في محلات شارع بوند الراقية. أصغى لما قلتُه ثم أخذ اللوحة من الواجهة وعرضها لي على حائط وهو يمسك بها هناك لكي أنظر إليها وآخذَ في ذلك ما أشاء من وقت. خطر لي عندها -بالطريقة التي يُخمّن بها المرء أحياناً كيف تكون الأمور بالضبط- أن القواعد التي تنطبق على التجارة في الأمور الأخرى لا تنطبق بنفس الطريقة على تجارة اللوحات؛ فقد يأتي أحدهم إلى محلٍ كهذا وهو يرتدي ملابس رثة قديمة وقميصاً بالياً، ثم يظهر أنه مليونير يريد أن يضيف لمجموعته الفنية مزيداً من اللوحات.

أو قد يأتي وهو يرتدي ملابس رخيصة صارخة الألوان (مثلي تقريباً) ومع ذلك يكون له -بشكل أو بآخر- تعلق شديد بلوحة ما بحيث استطاع أن يجمع المال بطريقة ما من طرق التقشف والاقتصاد.

قال الرجل الذي يحمل اللوحة: إنها مثال رائع عن أعمال الفنان.

سألته بسرعة: كم ثمنها؟

وقد سحب جوابُه أنفاسي، إذ قال بصوته الناعم: خمسة وعشرون ألفاً.

أنا بارع تماماً في المحافظة على وجه هادئ كوجه المقامر. لم أظهر له شيئاً (أو هذا على الأقل ما أظنه). وقد أضاف اسماً بدا لي أجنبياً، وأحسب أنه اسم الفنان الذي رسم اللوحة، وقال إنها قد نزلت السوق لتوها من بيت في الريف لم يكن لدى ساكنيه فكرة عن حقيقتها. ومضيتُ في دوري متنهداً وقلت: إنه مبلغ كبير، ولكنها تستحقه. خمسة وعشرون ألف جنيه. ما أرخصها!

- نعم، بالفعل.

ثم تنهد وأنزل اللوحة بكل رقة وأعادها إلى الواجهة. ثم نظر إليّ وابتسم قائلاً: إن لك ذوقاً جيداً.

شعرتُ أننا قد فهمنا بعضنا جيداً على نحو ما. شكرته وخرجتُ إلى شارع بوند.

* * *

- ٣ -

أنا لا أعرف الكثير عن كتابة الأشياء على الورق... أعني ليس بالطريقة التي يقوم بها كاتب محترف، فذلك المقطع المتعلق باللوحة التي رأيتها -مثلاً- لا علاقة له بأي شيء آخر. أعني أن شيئاً لم يترتب عليه، ولم يؤدِّ إلى أي تطور آخر، ومع ذلك أشعر -على نحو ما- بأن تلك الحادثة مهمة، وأن لها موقعاً في مكان ما. لقد كانت واحدة من الأمور التي حدثت معي وعَنَتْ لي شيئاً. تماماً كما عنى لي فدان الغجري شيئاً، وكما عنى سانتونيكس لي شيئاً.

والحقيقة أنني لم أتحدث عن سانتونيكس كثيراً. ولعلكم قد عرفتم أنه كان مهندساً معمارياً، وقد كان المهندسون المعماريون شيئاً آخر من الأشياء التي لم تكن لي بها أية علاقة، رغم أنني أعرف بعض الأمور عن مهنة البناء. وقد التقيتُ مع سانتونيكس صدفة في معرض تجوالي، وكان ذلك عندما كنتُ أعمل سائقاً أقود الأغنياء في أماكن متفرقة. وقد قادتني مهنتي هذه عدة مرات إلى الخارج؛ مرتين إلى ألمانيا (وأنا أعرف شيئاً من اللغة الألمانية) ومرة أو مرتين إلى فرنسا (ولي إلمام بسيط بالفرنسية) ومرة إلى البرتغال. وكان زبائني -عادة-

من الناس الكهول، ممن يملكون المال والأمراض بكميات متساوية.

وعندما تقود سيارتك بأناس كهؤلاء في البلاد فإنك تبدأ بالتفكير بأن المال ليس على تلك الأهمية في نهاية المطاف. بسبب الأزمات القلبية الناشئة، والكثير من زجاجات الحبوب الصغيرة التي يتعين عليك أن تحملها معك طوال الوقت، وغضبك من الطعام أو الخدمة في الفنادق. إن أغلب من عرفتهم من الأغنياء كانوا تعساء إلى حد بعيد؛ فلديهم متاعبهم أيضاً: الضرائب والاستثمارات... القلق! هذا ما يقتل غالبيتهم. كما أن حياتهم العاطفية ليست طبيعية أيضاً؛ فهم بين متزوج بحسناء جميلة شقراء لا يأمن أن تخونه مع صديق لها في مكان ما، وبين متزوج بامرأة متبرمة كريهة كالجحيم، لا تفتأ تخبره بما ينبغي أن يفعل. لا، إنني أفضّل أن أبقى كما أنا: مايكل روجرز، الذي يرى العالم بالشكل الذي يروق له!

وحياتي لا تعدو أن تكون عيش الكفاف بالطبع، ولكنني اعتدتُ التعايش مع ذلك. فقد كانت الحياة متعة طيبة، وكنتُ راضياً بالاستمرار بالحياة الممتعة.

على أية حال، دعونا نرجع إلى ما كنتُ أقوله، فقد كان يوجد رجل اعتدتُ أن آخذه بالسيارة إلى الريفيرا. كان له بيتٌ يُبنى هناك، وكان يذهب ليرى كيف يمضي العمل به، وكان سانتونيكس هو المهندس المعماري الذي يتولى أمر البيت. أنا لا أعرف -حقاً- جنسية سانتونيكس، فقد ظننتُه إنكليزياً في البداية، رغم أن اسمه كان غريباً لم أسمع به أبداً من قبل. ولكن لا يبدو أنه كان كذلك، بل أحسبه كان إسكندنافياً من بلد ما. كان رجلاً مريضاً، وقد استطعتُ تمييز ذلك

على الفور. كان شاباً أبيض البشرة تماماً ونحيلاً وذا وجه غريب، وجه كان منحرفاً على نحو ما؛ إذ لم يكن بين جانبيه تناظر. وقد كان بوسعه أن يثور في وجه زبائنه. ولئن كنتَ تحسب أنهم يدفعون المال ليكونوا هم المسيطرين الذين يُبرقون ويُرعدون فإن الأمر لم يكن كذلك؛ فقد كان سانتونيكس هو الذي يسيطر عليهم، وكان واثقاً دوماً من نفسه بينما لم يكونوا كذلك.

وأذكر أن هذا الرجل (زبوني) أخذ يغلي غضباً بمجرد أن وصل ورأى تطور العمل. وقد اعتدتُ سماع نُتَف من الحديث هنا وهناك وأنا أقف قريباً جاهزاً للمساعدة بطريقة السائق الخدوم. وكان من المحتمل -دوماً- أن يتعرض زبوني (السيد كونستانتين) لأزمة قلبية أو جلطة. قال وهو يكاد يصرخ صراخاً: أنت لم تفعل كما أوصيتك. لقد أنفقتُ كثيراً من المال، أنفقتُ الكثير جداً منه، وليس هذا ما اتفقنا عليه. سيكلفني هذا أكثر مما حسبت.

أجابه سانتونيكس: أنت مُحق تماماً، ولكن المال لا بد من صرفه.

- بل لن يُصرف... لن يُصرف! إن عليك أن تبقى ضمن الحدود التي وضعتُها. أتفهم؟

- إذن فلن تحصل على البيت الذي تريده. أنا أعرف ما الذي تريده، وسيكون البيت الذي أبنيه لك هو البيت الذي تريده. إنني متأكد من ذلك تماماً، كما أنك متأكد منه أنت أيضاً؛ فلا تستعرض عليّ ما لديك من الاقتصاد السخيف الذي يميز الطبقة الوسطى. إنك

تريد بيتاً ذا جودة عالية، وستحصل عليه. وستتبجح به أمام أصدقائك، وسيحسدونك عليه. لقد قلتُ لك إنني لا أبني بيتاً لأي كان. هذا أهم بكثير من المال. إن هذا البيت لن يكون كبيوت الآخرين!

– سيكون فظيعاً، فظيعاً.

– لا، ليس فظيعاً. مشكلتك أنك لا تعرف ماذا تريد، أو ربما كنت تعرف ما تريد حقاً، إلاّ أنك لا تستطيع تمثّله في عقلك. لا تستطيع رؤيته بوضوح. أما أنا فأعرف. ذلك هو الشيء الذي أعرفه دوماً. ما الذي يسعى إليه الناس وماذا يريدون. إن لديك شعوراً يدفعك لطلب الجودة، وسوف أعطيك الجودة.

لقد اعتاد أن يقول أشياء كهذه. وكنتُ انا أقف جانباً وأصغي. وكان بوسعي -بشكل ما- أن أرى بنفسي أن هذا البيت الذي يُبنى هناك بين شجر الصنوبر ويُطلّ على البحر لن يكون بيتاً عادياً. كان نصفه لا يُطلّ على البحر بالمعنى التقليدي؛ فقد بدا متجهاً نحو الداخل، متطلعاً إلى إطلالة على السماء بين التلال. كان غريباً وغير عادي ومثيراً جداً.

وقد اعتاد سانتونيكس أن يتحدث معي عندما لا يكون لديّ عمل. قال مرة: أنا لا أبني البيوت إلاّ لأناس أريد أن أبني لهم.

– أتعني للأغنياء؟

– يجب أن يكونوا أغنياء وإلاّ لما تمكنوا من الدفع لبناء بيوت. ولكن ما أهتمّ به ليس المال الذي سأجنيه من ذلك. إن البيت وحده لا

يكفي، فلا بد له من موقع، والموقع لا يقلّ أهمية عن البيت نفسه. إن ذلك أشبه بياقوتة أو زمردة. إن زمردة جميلة لا تعدو أن تكون مجرد زمردة جميلة. إنها لا تأخذك أبعد من ذلك، ولا تعني شيئاً، ليس لها شكل أو مغزى حتى تُركّب ضمن موقعها في الحلية. ولا بد للحلية من أن يكون لها جوهرة جميلة تكون جديرة بها. إنني آخذ حليتي من الموقع ومنظر الأرض، حيث تكون الحلية موجودة قائمة بحد ذاتها. ولا يكون لها معنى حتى يشمخ بها البيت الذي أبنيه كجوهرة داخل قبضتها.

ثم نظر إليّ وضحك قائلاً: ألا تفهمني؟

قلتُ ببطء: أحسب -بطريقة ما- أنني أفهمك.

قال: "ربما"، ثم نظر إليّ بفضول.

سافرنا إلى الريفيرا مرة أخرى فيما بعد، وعندها كان البيت قد أوشك على الاكتمال. لن أصفه لأنني لا أستطيع وصفه بشكل مناسب، ولكنه كان... كان شيئاً خاصاً... وكان جميلاً. كان بوسعي إدراك ذلك. كان بيتاً من شأنك أن تفخر به، وتفخر بعرضه على الناس.

وبعدها قال لي سانتونيكس فجأة ذات يوم: بوسعي أن أبني بيتاً لك أنت. من شأني أن أعرف طراز البيت الذي تتمناه.

هززتُ رأسي وقلت صادقاً: أنا نفسي لا أعرف ذلك.

- ربما لا تعرف، ولكنني أعرف نيابة عنك. إنه لمن المؤسف جداً أن لا تمتلك المال.

– ولن أمتلكه أبداً.

– لا يمكنك قول ذلك. إن ولادة المرء فقيراً لا تعني أن عليه أن يظل فقيراً. إن المال مسألة غريبة؛ فهو يذهب حيث تشتد الحاجة إليه.

– أنا لستُ ذكياً بما فيه الكفاية.

– بل أنت غير طموح بما فيه الكفاية. لم يستيقظ الطموح فيك بعد، ولكنه موجود.

– آه، حسناً، يوماً ما، عندما يستيقظ طموحي وأكسب المال سآتي إليك وأقول لك: "ابنِ لي بيتاً".

تنهد وقتها وقال: لا يمكنني الانتظار. لا، لا أملك أن أنتظر. ليس لدي إلاّ وقت قصير أعيشه الآن. ربما استطعتُ بناء بيت واحد آخر أو بيتين، ليس أكثر من ذلك. لا يريد المرء أن يموت شاباً... ولكن يُضطر المرء لذلك أحياناً!

– سيتعين علي أن أوقظ طموحي بسرعة.

– كلا. إنك بصحة جيدة، وأنت تستمتع بحياتك، فلا تغير أسلوبها.

– لا أستطيع تغييره ولو حاولت.

رأيتُ أن ذلك كان صحيحاً وقتها. فأنا أحب طريقة حياتي، وكنت أستمتع بها، ولم يكن في صحتي سوء. لقد نقلتُ الكثير من الناس ممن كسبوا أموالاً، ممن عملوا بجد، وممن يعانون من القرحة

ومن أمراض القلب وكثير من الأمراض الأخرى نتيجة العمل بجد. ولم أُرد العمل بجد. يمكنني القيام بكثير من الأعمال ولكن هذا كل ما أنا مستعد لفعله، وأنا لستُ بذي طموح، أو أنني لم أرَ أنني صاحب طموح. أظن أن سانتونيكس ذو طموح. يوسعي أن أرى أن تصميمه للبيوت وبناءها، وتخطيط الرسوم، بالإضافة إلى شيء آخر لم أستطع إدراك كنهه تماماً... كل ذلك قد أطفأ شمعة الحياة لديه، وهو لم يكن رجلاً قوياً أصلاً. كانت تنتابني أحياناً فكرة خيالية بأنه يقتل نفسه قبل أوانه بالعمل الذي مارسه ليحفز طموحه. لم أُرد أن أعمل؛ كان الأمر بهذه البساطة، فقد كنت لا أثق بالعمل ولا أحبه، ورأيتُ أنه أمر سيء جداً ابتكره الجنس البشري لنفسه مع الأسف.

فكرتُ بسانتونيكس كثيراً؛ فقد أسرَني أكثر من أي شخص عرفتُه تقريباً. أظن أن واحداً من أغرب الأمور في الحياة هو الأشياء التي يتذكرها المرء، أو يختار تذكّرها بالأحرى. لا بد أن شيئاً داخل المرء يقوم بالاختيار! كان سانتونيكس وبيته أحد الأشياء التي أذكرها، والصورة في شارع بوند، وزيارة البيت المتداعي المسمى «تاورز»، وسماعي بقصة فدان الغجري، كل هذه الأشياء كانت هي التي اخترتُ تذكّرها! وأحياناً أتذكر فتيات قابلتهن، ورحلات قمتُ بها إلى بلدان أجنبية في معرض إيصالي لزبائني. كان الزبائن متشابهين جميعاً، يبعثون الملل، وكانوا ينزلون في نفس النوع من الفنادق، ويأكلون نفس النوع من الأطعمة التقليدية.

ما زال لديّ -في داخلي- ذلك الشعور الغريب بانتظار شيء ما، انتظار شيء يُقدّم إلي، أو يحدث لي، لا أدري أيّ التعبيرين يصف

حالتي أفضل من الآخر. أحسب -حقاً- أنني كنتُ أبحث عن فتاة، عن فتاة من النوع الملائم... فتاة لطيفة مناسبة أستقرّ معها كما كان يمكن لأمي أو لعمي جوشوا أو لأحد أصدقائي أن يعني بمثل هذا القول. وأحسب أن الأمر يحدث لكل امرئ عاجلاً أم آجلاً، ويحدث بشكل مفاجئ. وأنت لا تفكر -وقتَها- كما يخيل إليك أنك ستفكر: "ربما كانت هذه الفتاة التي تصلح لي... هذه هي الفتاة التي ستصبح زوجتي". أنا -على الأقل- لم أشعر بالأمر على هذا النحو. لم أكن أعرف أن ذلك سيحدث بشكل مفاجئ تماماً عندما يحدث، وأنني سأقول: "هذه هي الفتاة التي خُلقتْ لي وخلقتُ لها، كلياً، وللأبد". لا، لم أحلم أبداً بأن الأمر سيكون على هذا النحو. ألم يقل أحد الكوميديين القدامى مرة: "لقد جربتُ الحب مرة، ولو شعرتُ أنه قادم إليّ ثانية لهاجرت"؟ هكذا تماماً كان الأمر معي. لو أنني عرفت، لو أنني عرفتُ فقط ما الذي يمكن أن يعنيه ذلك كله لاحقاً لكنتُ هاجرتُ أنا أيضاً! هذا لو توفر لي شيء من الحكمة.

* * *

-٤-

لم أنسَ خطتي في الذهاب إلى المزاد.

كانت تفصلني عن وقت المزاد ثلاثة أسابيع، وكنتُ قد قمت بسفرتين إلى أوروبا، إحداهما لفرنسا والأخرى لألمانيا، وعندما كنتُ في هامبورغ تطورت الأمور لتصبح أزمة. ولعل أحد الأسباب أنني كرهتُ الزوجين اللذين كنتُ أقودهما كرهاً شديداً؛ فقد كانا يمثلان كل ما أمقته. كانا وقحين لا يباليان بمشاعر المرء، كريهَيْ المنظر، وأحسب أنهما أثارا فيّ شعوراً بأنني لم أعد أستطيع تحمل حياة التزلف هذه أكثر من ذلك. ولكني كنتُ حذراً. رأيتُ أنني لن أستطيع تحملهما يوماً آخر ولكني لم أخبرهما بذلك؛ فليس من الحكمة أن يصطدم المرء مع الشركة التي توظفه، ولذلك اتصلتُ بالفندق الذي يقيمان فيه وقلتُ إنني مريض، ثم أبرقتُ إلى لندن لأقول الشيء ذاته، وقلتُ إنني قد أدخل الحَجْر الصحي وسيكون من الأفضل أن يرسلوا سائقاً يحل محلي. لا يمكن لأحد أن يلومني على ذلك، ولن يهتموا بي كثيراً بحيث يقومون بمزيد من التحريات، وسيكتفون بالظن بأن الحمى قد اشتدت عليّ بحيث لم أستطع إرسال المزيد من الأخبار. وفيما بعد

سوف أظهر في لندن ثانية لأنسج لهم قصة عن مدى المرض الذي تعرضتُ له! ولكنني لم أرَ أن عليّ فعل ذلك؛ فقد سئمتُ مهنة قيادة السيارات.

كان تمردي هذا نقطة تحول هامة في حياتي؛ فبسبب ذلك، إلى جانب أمور أخرى، ظهرتُ في قاعة المزاد في الموعد المحدد، وكنتُ منفعلاً إلى حدٍ لا أكاد أعرف معه ما الذي كنتُ أفعله.

وكما قلتُ من قبل، فإنني لم أحضر مزاداً عاماً لبيع عقارات من قبل، وقد كنتُ مشحوناً بفكرة مفادها أن ذلك سيكون مثيراً، ولكنه لم يكن كذلك على الإطلاق. بل كان واحداً من أكثر العروض التي حضرتها بروداً وإثارة للضجر؛ فقد جرى المزاد في جوٍ شبه كئيب ولم يكن هناك سوى ستة أشخاص أو سبعة، وكان المشرف على المزاد يختلف اختلافاً كبيراً عن أولئك المشرفين الذين سبق أن رأيتُهم يترأسون مزادات الأثاث وغير ذلك، وكانوا رجالاً أريحيين ذوي أصوات سارة صادحة ونكات جاهزة. أما هذا المنادي فقد امتدح العقار المعروض بصوت ميت حي، ووصف الأرض وغيرها من الأمور، ثم مضى بفتور للمزايدة. تقدم أحدهم بعرض خمسة آلاف جنيه، وارتسمت على وجه المنادي ابتسامة متعبة أشبه بامرئ سمع نكتة لم تكن مُضحكة حقاً. تفوه ببضع ملاحظات، ثم قُدّمت بعض العروض الأخرى. كان الواقفون من الريفيين عموماً. بدا أحدهم وكأنه فلاح، وخمّنتُ أن الثاني هو أحد البنّائين المتنافسين، بالإضافة إلى اثنين أظنهما من المحامين، وقد بدا أحدهما كما لو أنه غريب من لندن، وكان حسن الملابس ويبدو عليه الاحتراف. لا أدري إن كان تقدم

بعرض، ولعله فعل، ولئن كان قد قدّم عرضاً فلا شك أنه قدّمه بكل هدوء وبشكل أقرب إلى الإشارة، وعلى أية حال فقد بلغ المزاد نهايته، وأعلن المنادي بصوت كئيب بأن العروض لم تصل إلى مستوى الحد الأدنى المطلوب، وانفضّ الجمع.

قلتُ لرجل بدا من أهل الريف، وكان بجانبي ونحن نخرج: لقد كان مزاداً مُملاً.

سأل الرجل: هل أُقيمت له الكثير من هذه المزادات؟

- لا، هذه أول مرة عملياً.

قال: لقد جئتَ بدافع الفضول، أليس كذلك؟ لم أرك تقدم أي عرض.

- لا تخف. لقد أردتُ فقط أن أرى كيف تجري الأمور.

- إنها الطريقة التي تجري بها غالباً. إنهم يريدون أن يروا فقط من هم المهتمون بالبيت.

نظرتُ إليه متسائلاً فقال صاحبي: لا أحسب أن المهتمين به أكثر من ثلاثة. ويذربي من هيلمنستر، وهو البنّاء. ثم داكهام وكومبي، وقد دخلا المزاد نيابة عن شركة ما في ليفربول كما فهمت، ورجل قادم من لندن أيضاً، وأظنه محامياً. ربما كان الراغبون أكثر من هؤلاء بالطبع، ولكن بدا لي أن هؤلاء هم الأساسيون. وسوف يُباع رخيصاً، هذا ما يقوله الجميع.

- بسبب سمعة المكان؟

- آه، لقد سمعت بقصة فدان الغجري، أليس كذلك؟ هذا لا يعدو أن يكون كلام أهل الريف. كان على المجلس القروي أن يُغير ذلك الطريق منذ سنوات طويلة... إنه مصيدة قاتلة.

- ولكن أليس للمكان سمعة سيئة بالفعل؟

- أقول لك إن ذلك مجرد خرافة. وعلى أية حال فإن المزايدة الحقيقية ستجري الآن خلف الستار، سيذهبون ويقدمون عروضاً، وأحسب أن جماعة ليفربول قد يحصلون عليه. لا أظن أن ويذربي سيدفع الكثير. إنه يحب الشراء بثمن زهيد. كثير من العقارات تُطرح هذه الأيام في السوق بهدف إعادة بنائها، ولن تجد -في نهاية الأمر- كثيراً ممن يملكون من المال ما يكفي لشراء العقار وهدم ذلك البيت الخرب وبناء بيت جديد مكانه، أليس كذلك؟

- لا يبدو أن ذلك يحدث كثيراً هذه الأيام.

- إنه أمر صعب جداً؛ بسبب الضرائب وغير ذلك من الأمور، كما أنك لا تستطيع الحصول على خدم يعملون في الريف. كلا، يفضل الناس هذه الأيام دفع الألوف لشراء شقة فخمة في المدينة في الطابق السادس عشر من عمارة حديثة. إن بيوت الريف الضخمة التي تصعب إدارتها كاسدة في السوق.

ناقشتُه قائلاً: ولكن بوسعك أن تبني بيتاً حديثاً مكانه، بشكل يوفر الجهد المطلوب لإدارته.

- يمكنك ذلك، ولكنه إجراء باهظ التكاليف، والناس لا يحبون كثيراً العيش معزولين.

- ربما أحب بعض الناس ذلك.

ضحك الرجل، وافترقنا. ومشيتُ وأنا مقطب الجبين أفكر مع نفسي. وقد قادتني قدماي -دون أن ألاحظ ذلك حقاً- إلى حيث كنتُ أمشي صعوداً في الطريق بين الأشجار، وصولاً إلى منحنى الطريق الذي يخترق الأشجار مؤدياً إلى الأرض الفسيحة البرية.

وهكذا وصلتُ إلى تلك النقطة في الطريق التي رأيتُ فيها إيلي لأول مرة. وكما قلت، فقد كانت تقف قرب شجرة تنّوب عالية، وكانت تبدو (إن كنتُ أستطيع وصفها) كشخص لم يكن هناك قبل لحظات بل خرج من العدم لتوه من باطن الشجرة. كانت ترتدي ثوباً صوفياً أخضر غامقاً، وكان شعرها ذا لون بني ناعم كأوراق الخريف، وكان في مظهرها شيء غير محسوس على نحو ما. رأيتها فتوقفتُ، وكانت تنظر إليّ وقد انفرجت شفتاها قليلاً، وبدت وكأنها قد جفلت بعض الشيء، وأحسب أنني بدوتُ -أنا أيضاً- كمن جفل.

أردتُ قول شيء ولم أعرف تماماً ما الذي أقوله. ثم قلت: آسف. لم... لم أقصد أن أفاجئك. لم أعرف أن أحداً هنا.

قالت، وكان صوتها شديد الرقة والنعومة، أشبه بصوت فتاة صغيرة: "لا بأس أبداً. أعني أنني لم أحسب أن أحداً سيكون هنا أنا أيضاً". ثم نظرت حولها وقالت: "إنه... إنه مكان موحش". وارتعدت قليلاً.

كانت تهبّ ريح باردة بعض الشيء في ذلك المساء، ولكن ربما لم يكن إحساسي بالبرد من الريح. لا أدري. تقدمتُ خطوة أو

خطوتين وقلت: إنه مكان مخيف بعض الشيء، أليس كذلك؟ أعني بسبب طريقة تهدم البيت على هذا النحو.

قالت بتأمل: «تاورز»، كان هذا اسمه فيما مضى، الأبراج... غير أنه لا تبدو أية أبراج هنا.

- أحسب أن ذلك كان مجرد اسم. إن الناس يُطلقون على بيوتهم أسماء كهذه لكي تبدو أكثر فخامة من حقيقتها.

ضحكَتْ ضحكة صغيرة فقط وقالت: أظن أن هذا هو السبب. أهذا... لستُ واثقة، ولكن ربما كنتَ تعرف... أهذا هو العقار الذي كانوا يعرضونه للبيع في المزاد اليوم؟

- نعم؛ لقد جئتُ من المزاد الآن.

قالت وقد بدا أنها فوجئت: آه، حقاً؟ هل أنت... مهتم به؟

- ليس من المحتمل أن أشتري بيتاً متداعياً مع بضع مئات من الفدانات والأراضي الحرجية. لستُ من تلك الطبقة.

- وهل تم بيعه؟

- لا، لم يصل المزاد إلى الحد الأدنى المطلوب.

- آه، فهمت.

بدا عليها شيء من الارتياح. وسألتُها: أنتِ لا تريدين شراءه أيضاً، أليس كذلك؟

- آه، كلا، كلا بالطبع.

بدا عليها الارتباك من الموضوع. ترددتُ ثم قذفتُ بالكلمات التي جاءت إلى شفتَيّ قائلاً: إنني أتظاهر. أنا لا أستطيع شراءه -طبعاً- لأني لا أملك أي مال، ولكنني مهتم به. بودّي لو اشتريه. أريد شراءه. افتحي فمك واضحكي مني إن شئتِ ولكن هذه هي الحقيقة.

- ولكن، أليس خرباً قليلاً؟

- آه، نعم. لا أعني أنني أريده كما هو الآن. أريد أن أهدم هذا البناء وأزيل أنقاضه بعيداً. إنه كريه، وأحسب أنه كان -بلا ريب- بيتاً حزيناً. ولكن هذا الموقع ليس حزيناً أو بشعاً، بل هو جميل. انظري هنا، تعالي من هنا قليلاً، من خلال الأشجار. انظري إلى المنظر هناك حيث تمتد الأرض إلى التلال والأرض السهلة. هل ترين؟ اجعلي فسحة بين الشجر هنا... ثم تأتين من هنا...

أخذتها من ذراعها وقُدتها إلى الاتجاه المقابل. ولئن كنا نتصرف بطريقة غير تقليدية فإنها لم تنتبه لذلك، وعلى أية حال فلم تكن الطريقة التي أمسكتها بها من ذلك النوع، ولكنني أردتُ فقط أن أريها ما رأيته أنا.

قلت لها: هنا، هنا ترين كيف تنبسط الأرض نزولاً إلى البحر، حيث تبرز الصخور للعيان. هناك بلدة تفصلنا عن ذلك ولكننا لا نستطيع رؤيتها بسبب التلال التي ترتفع عند أسفل المنحدر، كما يمكنك التمتّع بإطلالة ثالثة، على واد من الغابات ذات المنظر الغائم. أترين الآن إن قطعتِ الأشجار وعمِلتِ فُسَحاً كبيرة ونظّفتِ هذا

المكان حول البيت، أترين أيّ بيت جميل يمكن أن يكون لديك هنا؟ لا ينبغي لك أن تضعيه في مكان البيت القديم، بل تذهبي نحواً من خمسين متراً أو مئة إلى اليمين، هناك. هناك يمكنك بناء بيت رائع، بيت يبنيه مهندس معماري عبقري.

سألَتْ ببعض الارتياب: أتعرف أيّ مهندسين معماريين عباقرة؟

قلت: "أعرف واحداً". ثم بدأتُ أخبرها عن سانتونيكس. جلسنا قرب بعضنا البعض على جذع شجرة ساقطة وتحدثنا. نعم، تحدثتُ مع تلك الفتاة النحيلة التي لم أرها أبداً من قبل، ووضعتُ كل ما لديّ من حماسة فيما كنتُ أخبرها به. أخبرتها عن الحلم الذي يمكن للمرء بناؤه وقلت: أعرف أن هذا لن يحدث. لا يمكن أن يحدث. ولكن فكّري، فكّري في الأمر كما أفكر فيه أنا. هناك سنقطع الأشجار، وهناكِ سنفتح فتحة، وسنزرع أشياء، وروداً وأزهاراً، وسيأتي صديقي سانتونيكس. سوف يَسعُلُ كثيراً لأنني أظنه يوشك على الموت من السل، ولكن بوسعه أن يقوم بذلك... بوسعه القيام بذلك قبل أن يموت، بوسعه أن يبني أروع بيت. أنت لا تعرفين كيف هي البيوت التي يبنيها. إنه يبنيها لأشخاص أغنياء جداً، وينبغي أن يكونوا أناساً يريدون المعمار الصحيح. ولا أعني المعمار الصحيح بالمعنى التقليدي، بل أعني الأشياء التي يريدها أناس يرغبون بحلم يتحقّق. شيء رائع!

قالت إيلي: أنا أحبّ بيتاً من هذا النوع. لقد جعلتني أراه، وأشعر به... نعم، سيكون هذا مكاناً رائعاً للعيش. كل ما حلم المرء به يتحقق. يمكن للمرء أن يعيش هنا ويكون حراً غيرَ مُقيّد، ولا مربوطاً من قِبل أناس يدفعونه للقيام بأمور لا يريدها ويحولون بينه وبين القيام

بكل ما يريد فعله. آه، إنني سئمة جداً من حياتي وممّن حولي من الناس ومن كل شيء!

على هذا النحو بدأ الأمر، أنا وإيلي معاً. أنا بأحلامي، وهي بتمردها على حياتها. توقفنا عن الكلام ونظرنا إلى بعضنا البعض. قالت: ما هو اسمك؟

قلت: "مايك روجرز". ثم تداركتُ مُصححاً: مايكل روجرز. وأنت؟

- فينيلا.

ترددَتْ لحظة ثم قالت: "فينيلا غودمان". ونظرت إليّ بتعبير لا يخلو من الاضطراب.

لم يبدُ أن ذلك قد جعلنا نتقدم كثيراً، ولكننا مضينا ننظر إلى بعضنا البعض. أردنا -نحن الاثنين- أن نرى بعضنا ثانية... ولكن، في تلك اللحظات فقط، لم نعرف كيف نبدأ بهذا الأمر.

* * *

- ٥ -

هكذا بدأ الأمر بيني وبين إيلي. ولم يمضِ الأمر سريعاً في الواقع؛ فقد كانت لكل منا أسراره. كانت لكل منا أشياء يريد حفظها عن صاحبه، ولذلك لم نستطع أن نخبر بعضنا البعض بالكثير عن أنفسنا كما هو الطبيعي، وقد جعَلَنا ذلك نصطدم دوماً بشيء أشبه بالحاجز. لم نستطع أن نُخرج الأمور إلى العلن ونقول مثلاً: "متى سنلتقي ثانية؟ أين يمكن أن أجدك؟ أين تعيشين؟". ذلك أنك إن سألتَ الطرف الآخر عن ذلك فسيتوقع منك أن تخبره بالأشياء نفسها.

لقد بدت على فينيلا الخشية وهي تعطيني اسمها، وقد بلغ وضوح ذلك حداً جعلني أفكر -للحظات- أنه قد لا يكون اسمها الحقيقي، وكدتُ أظن أنها ربما ابتدعته تلفيقاً! ولكنني كنتُ أعرف طبعاً أن ذلك مستحيل، فقد أعطيتُها اسمي الحقيقي.

لم نعرف تماماً كيف نستأذن من بعضنا للانصراف في ذلك اليوم. كان ذلك أمراً مُحرِجاً. وكان الجو قد برد وأردنا أن نتمشى نزولاً من عند ذلك البيت القديم... ولكن ماذا بعد ذلك؟ قلتُ بحذر وبشيء من الحرج: هل تقيمين في هذه المنطقة؟

قالت إنها تقيم في ماركت تشادويل، وهي بلدة ذات سوق لا تبعد كثيراً. وكنتُ أعرف أنَ بها فندقاً ضخماً بدرجة ثلاثة نجوم، وخمّنتُ أنها تقيم في الفندق. قالت لي بشيء من نفس الحرج: هل تعيش هنا؟

– لا، لا أعيش هنا. إنني هنا لقضاء هذا اليوم فقط.

ثم حلّ بيننا صمتٌ فظيع، وارتعدَتْ قليلاً، إذ هب نسيم بارد. قلت: من الأفضل أن نمشي كي نبقى دافئين. هل... هل لديك سيارة أم أنت ذاهبة بالحافلة أو القطار؟

قالت إنها تركت السيارة في القرية، وأردفت: ولكني سأكون بخير.

بدت مرتبكة قليلاً، وظننتُ أنها ربما أرادت التخلص مني ولكنها لم تعرف تماماً كيف تتدبر ذلك. قلت: هل لنا أن نمشي، حتى القرية فقط؟

نظرتْ إليّ نظرة امتنان سريعة وقتها، ومشينا ببطء نزولاً في الطريق الملتف الذي وقعت فيه الكثير من حوادث السيارات. وفيما نحن نلتف عند زاوية، خرَجَ فجأة من مكمنٍ تحت ظل شجرة شكلُ امرأة. كان خروجها مفاجئاً إلى حد جعل إيلي تجفل وتهتف متأوهة، وكانت تلك المرأة هي المرأة التي رأيتها قبل أيام في حديقة بيتها الصغير؛ السيدة لي. وقد بدت اليوم أكثر جموحاً وذهولاً بكثير، مع تطاير خصلة من شعرها الأسود في الريح، وحول كتفيها رداء قرمزي، وقد جَعَلَتْها الوِقفةُ الآمرة التي اتخذتها تبدو أطول من حقيقتها.

قالت: ما الذي تفعلانه يا عزيزيّ؟ ما الذي جاء بكما إلى فدان الغجري؟

قالت إيلي: آه، أترانا تجاوزنا على أرضٍ ليست لنا؟

- لهذا السبب أو لغيره. لقد كانت هذه أرض الغجر. أرض الغجر، وقد أخرجونا منها. لن يكون من الخير لكما أن تكونا هنا، ولن تجدا خيراً من التطفل والتسكع في فدان الغجري.

لم تكن لدى إيلي إرادة قتال، إذ لم تكن من ذلك النوع. قالت بلطف وأدب: أنا آسفة جداً إن كان من غير المرغوب أن نأتي إلى هنا. لقد ظننتُ أن هذا المكان قد بيع اليوم.

قالت العجوز: سيكون حظاً سيئاً لأيِّ شخص يشتريه! اسمعي يا جميلتي، فأنت جميلة تماماً بالفعل، سيلازم الحظ السيء كل من يشتريه. لقد صُبّتْ لعنة على هذه الأرض منذ أمد بعيد، منذ سنين طويلة. فلتَبقِ بعيدةً عنها ولا تكن لك أية علاقة بفدان الغجري. إنه سيجلب لك الموت والخطر. عودي إلى وطنك عبر البحر ولا تعودي إلى فدان الغجري. لا تقولي إنني لم أحذرك.

قالت إيلي: نحن لا نسبب أيّ أذى.

قلتُ للعجوز: "هيا يا سيدة لي؛ لا تخيفي هذه الشابة". ثم التفتُّ إلى إيلي أشرح لها: السيدة لي تعيش في القرية ولها بيت صغير هناك. إنها تقرأ الطالع وتتنبأ بالمستقبل. أليس كذلك يا سيدة لي؟

كنتُ أتحدث معها بطريقة مرحة. قالت ببساطة وهي تشدُّ قامتها

الغجرية أكثر من ذي قبل: لديّ الموهبة. نعم، لديّ الموهبة. إنها مولودة داخلي، ونحن جميعاً نمتلكها. سوف أقرأ لكِ طالعكِ أيتها الفتاة. نقِّطي يدي بالفضة وسوف أخبرك بطالعك.

– لا أظنني أريد أن يخبرني أحدٌ بطالعي.

– من الحكمة أن تعرفي طالعك. أن تعرفي شيئاً عن المستقبل، وتعرفي ما الذي يجب تجنبه وما الذي سيحل بك إن لم تنتبهي. هيا، في جيبك الكثير من المال... الكثير من المال. إنني أعرف أشياء سيكون من الحكمة أن تعرفيها.

أظن أن التوق لمعرفة الطالع هو أمر تتساوى فيه النساء جميعاً. فتحت إيلي حقيبتها ووضعت قليلاً من النقود في يد العجوز فقالت: آه، يا جميلتي، هذا جيد الآن! اسمعي ما ستقوله لك ماما لي العجوز.

نزعت إيلي قفازها ووضعت يدها الصغيرة الرقيقة في يد العجوز التي نظرت إلى اليد وهي تدمدم مع نفسها قائلة: والآن، ماذا أرى؟ ماذا أرى؟

وفجأة ألقت يد إيلي بسرعة وقالت: لو كنتُ مكانك لهربتُ من هنا. اذهبي... ولا تعودي! هذا ما قلتُه لك قبل قليل، وهو صحيح. لقد رأيته ثانية في راحة يدك. انسي فدان الغجري، انسي أنكِ قد رأيته أبداً. والأمر لا يقتصر على البيت الخرب هناك، بل الأرض كلها ملعونة.

قلتُ لها بجفاء: إن لك وسواساً في هذا الموضوع. والفتاة ليس لها –على أية حال– أية علاقة بالأرض هنا. لقد جاءت إلى هنا في

نزهة اليوم وحسب، لا علاقة لها بالمنطقة.

لم تلتفت العجوز إليّ، بل قالت بعناد: أنا أقول لك يا جميلتي. إنني أحذرك. يمكنك التمتع بحياة سعيدة... ولكن يجب أن تتجنبي الخطر. لا تأتي إلى مكان يوجد فيه خطر أو توجد فيه لعنة. اذهبي إلى حيث تلقين الحب والرعاية والعناية. عليك أن تبقي نفسك في أمان. تذكري ذلك. وإلاّ... وإلاّ...

ارتعدت قليلاً وأكملت قائلة: لا أحب رؤية ذلك، لا أحب رؤية ما في يدك.

وفجأة، وبإشارة سريعة غريبة دفعت قطع النقود في راحة إيلي وهي تدمدم بشيء لم نكد نفهمه. بدا وكأنها تقول: "إنه لأمر قاس... أمر قاس هذا الذي سيحدث". ثم استدارت ومضت بعيداً بخطوات سريعة.

قالت إيلي: يا لها... يا لها من امرأة مخيفة!

قلتُ بجفاء: لا تعيريها اهتماماً. أظنها فقدت نصف عقلها أصلاً. إنها تريد تخويفك فقط بحيث تهربين. أظن أن لهم شعوراً ما تجاه قطعة الأرض هذه تحديداً.

- هل وقعت حوادث هنا؟ هل حدثت أمور سيئة؟

- لا بد من حصول حوادث. انظري إلى المنعطف وإلى ضيق الطريق. كان ينبغي معاقبة المجلس البلدي على عدم قيامه بشيء فيما

يخص ذلك. ستقع حوادث هنا بالطبع، فلا يوجد ما يكفي من الشواخص التحذيرية.

– أهي حوادث فقط... أم أمور أُخرى؟

– إن الناس يحبون جمع الكوارث والنكبات، ويوجد دوماً الكثير من الكوارث التي يمكن جمعها، وهذه هي الطريقة التي تتراكم بها القصص عن مكان ما.

– أهذا أحد الأسباب التي تجعلهم يقولون إن هذا العقار المعروض سيُباع بثمن بخس؟

– هذا ممكن فيما أظن. وأعني بذلك محلياً، ولكني لا أحسب أن العقار سيباع لأحد من أهل المنطقة. أتوقّع أن يتم شراؤه بهدف تطويره والبناء عليه. أنت ترتجفين. هيا، سنمشي سريعاً. هل تفضلين أن أتركك قبل أن تدخلي البلدة؟

– لا، لا. ولماذا أفضل ذلك؟

قمتُ باقتحام مستميت إذ قلت: اسمعي، سأكون في ماركت تشادويل غداً، وأحسب... وأحسب... لا أدري إن كنتِ ستبقين هناك. أعني، هل ستكون أية فرصة لـ... لرؤيتك؟

حركتُ قدمي وأشحتُ برأسي، وأظن أن وجهي احمرّ خجلاً، ولكن إن لم أقل شيئاً الآن فكيف لي أن أمضي في هذا الأمر؟

قالت: آه، نعم. لن أعود إلى لندن حتى المساء.

- إذن فربما... أيمكنك... أعني، أحسب أن في ذلك وقاحة مني...

- لا، أبداً.

- حسناً، لعل بوسعك القدوم لنشرب الشاي في مقهى... أظن أن اسمه بلو دوغ، وهو مقهى لطيف تماماً. إنه... إنه...

لم أستطع وضع يدي على الكلمة التي أريد استخدامها، والتي سمعتُ أمي تستخدمها مرة أو اثنتين، ولذلك قلتُ بلهفة: إنه مقهى يكاد يكون مخصصاً للعائلات.

عندها ضحكت إيلي، وأحسب أن ما قلتُه بدا غريباً بعض الشيء في أيامنا هذه. قالت: أنا واثقة أنه سيكون مقهى لطيفاً. نعم، سآتي. في حوالي الرابعة والنصف، هل يناسبك هذا؟

- سأكون بانتظارك. إنني... إنني سعيد.

ولكني لم أقل ما هو سبب سعادتي. كنا قد وصلنا إلى آخر منعطف في الطريق حيث تبدأ البيوت، فقلتُ لها: وداعاً إذن. ولا... ولا تفكري ثانية فيما قالته تلك العجوز الشمطاء. أظنها تحب فقط إخافة الناس؛ إنها معتوهة بعض الشيء.

- أتشعر أنه مكان مخيف؟

- فدان الغجري؟ لا، لا أشعر بذلك.

ولعلي قلتُ ذلك بأثر بسيط جداً من التأكيد المبالغ به، ولكني

لم أكن أرى أنه مخيف. رأيتُ -كما رأيتُ من قبل- أنه كان مكاناً جميلاً، موقعاً جميلاً لبيت جميل.

حسناً، هكذا مضى أول لقاء لي مع إيلي. كنتُ في ماركت تشادويل في اليوم التالي أنتظر في مقهى بلو دوغ، وأتت هي. شربنا الشاي معاً وتحدثنا. ومع ذلك لم نتحدث كثيراً عن نفسينا، أعني عن حياة كل منا. كان أغلب حديثنا عمّا نراه ونحس به تجاه الأشياء، ثم نظرت إيلي إلى ساعتها وقالت إن عليها أن تذهب لأن قطارها يغادر إلى لندن في الخامسة والنصف.

قلتُ لها: لقد ظننتُ أن لديك سيارة هنا.

بدت مُحرَجة قليلاً عندها، ثم قالت إن تلك لم تكن سيارتها يوم أمس. لم تقل سيارة مَنْ كانت، وقد حلّ علينا ذلك الشعور بالحرج مرة أخرى.

أشرتُ للنادل ودفعتُ الحساب، ثم قلتُ لإيلي مباشرة: هل... هل سأراك ثانية أبداً؟

لم تنظر إليّ، بل نظرت إلى الطاولة أسفل منها وقالت: سأكون في لندن لأسبوعين آخرين.

- أين؟ وكيف؟

اتفقنا على موعد نلتقي فيه في ريجنت بارك بعد ثلاثة أيام.

* * *

كان الطقس جميلاً حين التقينا بعد ثلاثة أيام، فتناولنا بعض الطعام في مطعمٍ في الهواء الطلق ثم مشينا في حديقة كوين ماري وجلسنا على مقعدين هناك وتحدثنا. ومنذ ذلك الوقت بدأنا نتكلم عن نفسينا. أخبرتها أنني تلقيت بعض التعليم الجيد، ولكنني -فيما عدا ذلك- لا أساوي الكثير. أخبرتها عن المهن المختلفة التي مارستها، أو عن بعضها على الأقل، وكيف أنني لم أثبت أبداً على شيء، وكيف كنتُ ملولاً أتنقّل وأجرب هذا وذاك من الأمور. والغريب تماماً أنها افتُتنت بسماع ذلك كله وقالت: هذا مختلف جداً، مختلف بشكل جميل.

- مختلف عن ماذا؟

- مختلف عني.

قلتُ مناكفاً: اأنت فتاة غنية؟ فتاة مسكينة غنية؟

قالت: "نعم، أنا فتاة مسكينة غنية". ثم تكلمت بشكل مُجزّأ عن حياتها مع الثروة، والراحة الخانقة، والضجر، وعدم قدرتها على اختيار أصدقائها، وعدم قيامها بما تريد القيام به، ومراقبة الناس الذين يبدو أنهم يستمتعون بحياتهم في وقت لا تجد هي فيه متعة لحياتها. كانت أمها قد توفيت عندما كانت طفلة رضيعة وتزوج أبوها ثانية، وبعد ذلك بسنوات قليلة توفي هو الآخر. وفهمتُ أنها لا تحب كثيراً زوجة أبيها. كانت قد عاشت أغلب وقتها في أميركا، ولكنها سافرت كثيراً للخارج أيضاً.

بدا لي غريباً -وأنا أصغي إليها- أن تعيش أية فتاة في مثل هذا

العمر والزمن هذه العيشة المُسوَّرة الضيقة. صحيح أنها كانت تذهب إلى الحفلات وأماكن الترفيه، ولكن خُيِّل إليّ من طريقة حديثها وكأن ذلك كان قبل خمسين سنة من الآن؛ إذ لم يبدُ في حديثها عن هذه الأمور أية متعة! كانت حياتها مختلفة عن حياتي اختلاف الجُبن عن حجر الصوان. كان سماع ذلك ممتعاً ولكنه بدا لي مُثبطاً.

قلتُ لها غيرَ مُصدّق: أليست لك حرية في اختيار الصديقات؟

قالت بشي من المرارة: يتم اختيارهن لي، وهن مملّات جداً.

- هذا أشبه بالوجود في سجن.

- حياتي أشبه بذلك.

- وليست لك حقاً صديقات خاصات؟

- لديّ الآن... لديّ غريتا.

- من هي غريتا؟

- جاءت في البداية كمقيمة في المنزل لتعلم اللغة مقابل عملها فيه. كانت لديّ فتاة فرنسية عاشت معنا لمدة سنة لتعليمي الفرنسية، ثم جاءت غريتا من ألمانيا لتعليمي الألمانية، وكانت مختلفة. لقد اختلف كل شيء بمجرد مجيئها.

- أتحبينها كثيراً؟

- إنها تساعدني، وهي إلى جانبي، وترتب الأمور بحيث أستطيع

القيام بما أريد والذهاب إلى الأماكن التي أحب، وهي مستعدة للكذب من أجلي. ما كنتُ لأستطيع الخروج والمجيء إلى فدان الغجري لولاها. إنها ترافقني وتعتني بي في لندن خلال وجود زوجة أبي في باريس. وأنا أكتب رسالتين أو ثلاثاً، وإذا سافرتُ لأي مكان تقوم هي بإرسال واحدة منها في البريد كل بضعة أيام بحيث يكون على الرسائل ختم بريد لندن.

- ولماذا أردتِ الذهاب إلى فدان الغجري؟ ما هو السبب؟

لم تجبني على الفور، بل قالت: لقد رتبنا الأمر أنا وغريتا. إنها رائعة؛ فهي تفكر بالأمور، وتقترح أفكاراً.

- وكيف شكلُ هذه الغريتا؟

- آه، غريتا جميلة، طويلة وشقراء. يمكنها فعل أي شيء.

- لا أحسب أن من شأني أن أحبها.

ضحكت إيلي وقالت: آه، بل ستحبها. أنا واثقة أنك ستحبها. وهي ذكية جداً أيضاً.

- لا أحب الفتيات الذكيات، كما لا أحب الفتيات الطويلات الشقراوات. أحب الفتيات ضئيلات الجسم ذوات الشعر الذي يشبه لونه أوراق الخريف.

- أظنك تغار من غريتا.

- ربما كنتُ أغار. أنت مغرمة بها كثيراً، أليس كذلك؟

- نعم، إنني شديدة التعلق بها؛ فقد أحدَثَتْ فارقاً هائلاً في حياتي.

- وكانت هي التي اقترحت ذهابك إلى هناك. أتساءل لماذا؟ لا يوجد الكثير مما يمكن أن يُرى أو يُفعل في تلك المنطقة. إنني أجد ذلك لغزاً.

قالت إيلي وقد بدت مُحرجة: إنه سِرُّنا.

- سرك وسر غريتا؟ أخبريني عنه.

هزت رأسها وقالت: يجب أن تكون لي بعض الأسرار الخاصة.

- هل تعرف صاحبتك غريتا أنك تقابلينني؟

- تعرف أنني أقابل أحدهم، هذا كل ما في الأمر. إنها لا تطرح أسئلة، وهي تعرف أنني سعيدة.

بعد ذلك مرَّ أسبوع لم أرَ فيه إيلي. كانت زوجة أبيها قد عادت من باريس، بالإضافة إلى شخص آخر تدعوه العم فرانك، وقد شرحت -بشكل يكاد يكون عرضياً- بأنها ستحتفل بعيد ميلادها، وأنهم سيقيمون لها حفلة كبرى في لندن. ثم قالت: لن أستطيع الخروج، ليس خلال الأسبوع القادم. ولكن بعد ذلك... بعد ذلك سيكون الأمر مختلفاً.

- لماذا سيكون مختلفاً بعد ذلك؟

- سأكون قادرة على فعل ما أريد وقتها.

- بمساعدة غريتا كالعادة؟

لقد اعتادت إيلي على أن تضحك من طريقة حديثي عن غريتا. كانت تقول: "إنك ساذج جداً إذ تغار منها. يجب أن تقابلها ذات يوم، سوف تحبها".

قلتُ بعناد: أنا لا أحب الفتيات المتسلطات.

- ولماذا تظن أنها متسلطة؟

- من طريقة كلامك عنها؛ فهي دوماً مشغولة بترتيب أمرٍ ما.

- إنها شديدة الكفاءة؛ فهي ترتب الأمور بشكل ممتاز، ولهذا تعتمد عليها زوجة أبي كثيراً.

سألتها عمن تدعوه العم فرانك فقالت: أنا لا أعرفه حقاً معرفة وثيقة جداً. لقد كان زوجاً لأخت أبي، وليس ذا قرابة حقة. وأحسبه كان دوماً دائم التنقل، وتعرّض لمشكلات أكثر من مرة. أنت تعرف كيف يتحدث الناس عن المرء ويُلمِّحون لأشياء لديه.

- أليس مقبولاً اجتماعياً؟ أهو سيء؟

- آه، لا أظن أن به شيئاً سيئاً، ولكنه اعتاد التورط في مشكلات عويصة فيما أظن. مشكلات مالية، وصناديق ائتمان... وكان المحامون يضطرون للتدخل لإنقاذه منها ودفع المستحقات.

- فهمت. إنه شقي العائلة، وأظنني سأنسجم معه بشكل أفضل مما يمكن أن أنسجم مع نموذج الكفاءة غريتا.

- إن بوسعه أن يجعل نفسه محبوباً جداً عندما يريد ذلك. إنه ذو رفقة ممتعة.

سألتُها بحدة: ولكنك لا تحبينه حقاً، أليس كذلك؟

- أظنني أحبه. إلاّ أنني أحياناً... آه، لا أستطيع شرح ذلك. أشعر -فقط- أنني لا أعرف ما الذي يفكر به ويخطط له. لا أعرف كيف هو حقاً.

لم تقترح أبداً لقائي بأحد من عائلتها، وكنتُ أتساءل -أحياناً- إن كان عليّ أن أقول بنفسي شيئاً حول الموضوع. لم أكن أعرف كيف هو شعورها تجاه هذا الأمر. سألتها مباشرة في النهاية: اسمعيني يا إيلي، أتظنين أن عليّ أن... أن أقابل عائلتك أم تفضلين أن لا أقابلها؟

قالت على الفور: لا أريدك أن تقابلهم.

- أعرف أنني لستُ على هذا القدر من الـ...

- لا أقصد ذلك على هذا النحو، أبداً! أعني أن من شأنهم أن يثيروا ضجة، ولا أستطيع تحمل ذلك.

- أشعر أحياناً أن أمرنا سري بعض الشيء. ألا ترين أن هذا يجعلني أبدو في موقف سيء؟

- إنني كبيرة بحيث أستطيع اختيار أصدقائي. لقد قاربت الواحدة والعشرين، وعندما أبلغها يمكنني أن أصاحب أصدقائي دون أن يستطيع أحد إيقافي. أما الآن... فكما قلت، ستحدث ضجة فظيعة،

وسيأخذونني بعيداً إلى مكان ما بحيث لا أستطيع مقابلتك. آه، دعنا نستمر على هذا النحو، أرجوك.

- هذا يناسبني إن كان يناسبك. الحقيقة هي أنني لا أريد أن أكون... أن أكون سرياً متخفياً في أي شيء.

- ليس الأمر مسألة سرية. بل هو مجرد وجود صديق للمرء يمكنه أن يتكلم معه ويقول له الأشياء. إنه شيء...

ثم ابتسمت فجأة وقالت: إنه شيء يمكن للمرء أن يتظاهر به. إنك لا تعرف مقدار روعة ذلك.

نعم، لقد كان يوجد الكثير من ذلك... التظاهر! وكانت أوقاتنا معاً تنحو بشكل متزايد لتكون على ذلك النحو. أحياناً كنتُ أنا من أفعل ذلك، وفي الغالب كانت إيلي التي تقول: "دعنا نفترض أننا اشترينا فدان الغجري وأننا نبني بيتاً هناك".

كنتُ قد أخبرتها بالكثير عن سانتونيكس وعن البيوت التي يبنيها. حاولت أن أصف لها نوع تلك البيوت والطريقة التي يفكر بها سانتونيكس بالأمور، ولا أظنني أتقنتُ وصف ذلك كثيراً لأنني لا أجيد وصف الأشياء. لا شك أن إيلي كانت تمتلك صورتها الخاصة عن البيت... عن بيتنا. نحن لم نقل «بيتنا» ولكننا كنا نعرف أن هذا ما نقصده.

إذن فإنني لن أرى إيلي لمدة أسبوع. كنتُ قد سحبت ما ادخرتُه من مال (وكان قليلاً) واشتريت لها خاتماً أخضر صغيراً مصنوعاً

من حجر إيرلندي كريم، وقدمتُه لها هديةً لعيد ميلادها، وقد أحبته وبدت سعيدة جداً. قالت: إنه جميل.

لم تكن تلبس الكثير من الحلي، ولا شك عندي أنها كانت تلبس -إذا ما لبست- ألماساً حقيقياً وزمرداً وما إلى ذلك، ولكنها أحبت خاتمي الإيرلندي. قالت: ستكون أحب هدايا عيد ميلادي إليّ.

بعد ذلك تلقيتُ منها رسالة عاجلة. كانت مسافرة إلى الخارج مع عائلتها إلى جنوب فرنسا بعد عيد ميلادها مباشرة، وكتبت تقول: ولكن لا تقلق، فسنعود ثانية خلال أسبوعين أو ثلاثة، في طريقنا إلى أمريكا هذه المرة. وسنلتقي -عندها- ثانية على أية حال، ولديّ شيء خاص أريد أن أحدثك عنه.

شعرتُ بشيء من عدم الاستقرار بسبب عدم رؤيتي لإيلي ومعرفتي أنها سافرت إلى فرنسا. وكان لديّ القليل من الأخبار عن فدان الغجري أيضاً. إذ يبدو أنه قد بيع فعلاً وفق اتفاق خاص، ولكن لم تكن ثمة معلومات عمّن اشتراه. ويبدو أن شركة محاماة في لندن قد ذُكرت باعتبارها المشتري. وقد حاولتُ الحصول على معلومات عن ذلك ولكنني لم أستطع، إذ كانت الشركة المذكورة حذرة جداً. ومن الطبيعي أنني لم أتقرب من مسؤوليها الكبار، بل لجأتُ إلى أحد الموظفين وحصلتُ على بعض المعلومات المبهمة. فقد تم شراء البيت لزبون ثري جداً كان يهدف إلى إبقائه كاستثمار جيد يمكن أن يلقى تقديراً عندما تُصبح الأراضي في تلك المنطقة في صدد التطوير.

من الصعب جداً اكتشاف الأمور والخبايا عندما يكون تعاملك

مع شركة مُغلقة تماماً. حيث يكون كل شيء بالغ السرية وكأنهم من عملاء المخابرات السرية! وترى كل شخص يعمل نيابة عن شخص آخر لا يمكن تسميته أو الحديث عنه، ولا يوجد في الأمر عروض شراء يمكن للمرء أن يفهم منها ما يريد!

أصبحتُ في حالة فظيعة من التململ وعدم الاستقرار، وتوقفت عن التفكير بالأمر كله وذهبتُ لرؤية أمي. ولم أكن قد ذهبتُ لرؤيتها منذ وقت طويل.

* * *

- ٦ -

كانت أمي تعيش في نفس الشارع الذي عاشت به منذ عشرين عاماً، شارع من البيوت المتماثلة المملة، وهي بيوت محترمة ولكنها تفتقر إلى أي جمال أو تميز. كانت عتبة الباب الأمامي قد طُليت باللون الأبيض على نحو جميل. كان رقم البيت ٤٦، وقد قرعتُ الجرس ففتحت لي أمي الباب ووقفت هناك تنظر إليّ وقد بدت كعادتها تماماً؛ طويلة نحيلة بارزة العظام، ذات شعر أشيب تفرقه من الوسط، وعينين شكاكتين على الدوام. بدت قاسية كالفولاذ، ولكن عندما كان الأمر يتعلق بي كان لديها عِرقٌ من النعومة واللطف في مكان ما. لم تكن تُظهره أبداً لو أنها كانت تملك ذلك، ولكنني اكتشفتُ أنه موجود لديها. وهي لم تكُفَّ لحظة واحدة عن الطلب مني أن أكون مختلفاً، ولكن أمانيها تلك لن تتحقق أبداً. وكانت بيننا حالة جمود دائمة.

قالت: آه، هذا أنت إذن.

- نعم، هذا أنا.

تراجعَتْ قليلاً إلى الوراء لتسمح لي بالدخول فدخلتُ البيت

ومضيت لأعبر باب غرفة الجلوس وأدخل المطبخ. وقد تبعتني ثم وقفت تنظر إلي وقالت: لقد مضى وقت طويل لم تأتِ فيه. ما الذي كنتَ تفعله؟

رفعتُ كتفيّ بلامبالاة وقلت: بين هذا الأمر وذاك.

- آه، كالعادة، أليس كذلك؟

- نعم، كالعادة.

- كم وظيفة عملتَ بها منذ أن رأيتُك آخر مرة؟

فكرتُ لحظة وقلت: خمس وظائف.

- ليتك تكبر وتعقل.

- إنني ناضج تماماً، وقد اخترتُ طريقة حياتي. كيف كانت أمورك أنت؟

- كعادتها أيضاً.

- أكنت بصحة جيدة؟

قالت: "لا وقت لديّ أضيعه بالمرض". ثم أضافت: لماذا أتيت؟

- أينبغي أن يكون لمجيئي سبب محدد؟

- الأمر يكون كذلك عادة.

- لا أدري لماذا تعارضين كثيراً رؤيتي للعالم.

- عن طريق قيادة سيارات فارهة في طول أوروبا وعرضها! أهذه فكرتك عن رؤية العالم؟

- بالتأكيد.

- لن تحقق الكثير من النجاح بهذا الشكل. خاصة إن كنتَ ستترك الوظيفة دون سابق إنذار وتمرض، تاركاً زبائنك في بلدة تعيسة.

- كيف عرفتِ بهذا الأمر؟

- لقد اتصلت شركتك، وقد أرادوا أن يعرفوا عنوانك.

- ولماذا أرادوني؟

- أحسب أنهم أرادوا توظيفك ثانية، ولا أفهم لذلك سبباً.

- لأنني سائق جيد ويحبني الزبائن. وعلى أية حال فإنني لم أكن أملك غير ذلك وقد مرضت، أليس كذلك؟

- لا أدري.

قالتها أمي بطريقة بدا منها -بوضوح- أنها ترى أنني كنتُ أملك غير ذلك. قالت: لماذا لم تتصل بهم عندما عدتَ إلى إنكلترا؟

- لوجود قضية أخرى انشغلتُ بها.

رفعت حاجبيها وقالت: هل في رأسك أفكار أخرى؟ أفكار طائشة أخرى؟ ما هي الوظائف التي عملتَ بها منذ ذلك الحين؟

- عملتُ في ضخ النفط، وميكانيكياً في مرأب للسيارات،

وموظف مؤقت، وغاسل أطباق في مطعم ملهى ليلي قذر.

قالت أمي بعبوس: يبدو أنك تنحدر أكثر فأكثر في الحقيقة.

- لا، أبداً. هذا كله جزء من الخطة، من خطتي!

تنهدت وقالت: ماذا تُفضّل، قهوة أم شاياً؟ كلاهما موجود.

اخترتُ القهوة؛ فقد كبرتُ على عادة شرب الشاي. جلسنا هناك وفنجان القهوة أمام كلٍ منا، ثم أخرجَتْ شيئاً من الكعك المنزلي فقطعَتْ شريحة منه لكلٍ منا، ثم قالت فجأة: أنت مختلف.

- أنا، كيف؟

- لا أدري، ولكنك مختلف. ما الذي حدث؟

- لم يحدث شيء. ما الذي يمكن أن يحدث؟

- إنك منفعل.

- سأسرق مصرفاً.

لم تكن في مزاج يمكن فيه تسليتها. اكتفت بالقول: لا، لستُ أخاف من إقدامك على ذلك.

- لماذا؟ تبدو هذه طريقة سهلة جداً للغنى السريع هذه الأيام.

- من شأن ذلك أن يتطلب الكثير من العمل والكثير من التخطيط والجهد الذهني الذي لا تحب أن تُضطر لبذله، كما أنه غير مأمون.

- أنت تظنين أنك تعرفين كل شيء عني.

-. لا، لا أظن ذلك. أنا لا أعرف حقاً شيئاً عنك؛ لأننا مختلفان اختلاف الماء والنار. ولكني أعرف متى تكون مزمعاً على شيء، وأنت مزمع على شيء الآن. ما هو يا ميكي؟ أهي فتاة؟

- ولماذا تظنين أنها فتاة؟

- لقد عرفتُ دوماً أن ذلك سيقع في يوم ما. أهي فتاة حقاً؟

لم أنظر إلى عينيها. نظرتُ بعيداً وقلت: نوعاً ما.

- أي نوع من الفتيات هي؟

- من النوع الذي يناسبني.

- وهل ستأتي بها لتراني؟

- لا.

- هكذا الأمر إذن؟

- لا، لا أريد أن أجرح مشاعرك، ولكن...

- أنت لا تجرح مشاعري. إنك لا تريدني أن أراها خشية أن أقول لك: "لا تفعل". أليس كذلك؟

- ما كنتُ لأعير اهتماماً لذلك لو فعلت.

- ربما لا تعير اهتماماً ولكن ذلك سيهزّك. سيهزك في مكان ما

داخل نفسك، لأنك تعير اهتماماً لما أقوله وأراه. كانت دائماً أشياء خمّنتُها بخصوصك... وربما كان تخميني في مكانه، وأنت تعرف ذلك. إنني الشخص الوحيد في العالم الذي يمكنه أن يهز ثقتك بنفسك. هل هذه الفتاة فتاة سيئة سيطرت عليك؟

قلت: "فتاة سيئة؟"، ثم ضحكتُ وقلت: لو أنك رأيتِها فقط! لقد أضحكتِني.

– ماذا تريد مني؟ أنت تريد شيئاً، فهذا دأبك دائماً.

– أريد بعض المال.

– لن تناله مني. لماذا تريده... حتى تنفقه على هذه الفتاة؟

– لا. أريد أن أشتري بدلة من أفضل نوع لأتزوج بها.

– هل ستتزوجها؟

– إن رضِيَتْ بي.

هزها ذلك وقالت: لو أنك تقول لي شيئاً فقط! لقد أثر الحب عليك كثيراً، يمكنني رؤية ذلك. وهو الشيء الذي كنتُ أخشاه دوماً، أن تختار الفتاة الخطأ.

صحتُ وقد تملكني الغضب: الفتاة الخطأ؟ تباً!

ثم خرجتُ من البيت وصفقتُ الباب خلفي.

* * *

- ٧ -

عندما عدتُ إلى البيت وجدتُ برقية بانتظاري... وكانت قد أُرسلت من مدينة أنتيب في الريفيرا، وفيها: "قابلني غداً في الرابعة والنصف في المكان المعتاد".

كانت إيلي مختلفة، وقد رأيت ذلك على الفور. التقينا في ريجنت بارك كالعادة وكنا -في البداية- غريبين بعض الشيء نشعر بحرج من بعضنا البعض. كان لديّ شيء أريد قوله لها، وكنتُ في حالة من العصبية لا أدري كيف أعبر عنه. وأحسب أن أي رجل يكون في مثل هذه الحالة عندما يصل إلى مرحلة عرض الزواج.

وقد كانت هي غريبة أيضاً بسبب أمر ما، وربما كانت تفكر في ألطف وأرقّ الطرق لكي تقول لي: "لا". ولكنني -لسبب ما- لم أظن ذلك. لقد كان إيماني بالحياة كله معتمداً على حقيقة أن إيلي تحبني، ولكن كان فيها شيء جديد من الاستقلالية، ثقة جديدة بنفسها لم أكد أستطيع تفسيرها بأنها لمجرد ازدياد عمرها عاماً واحداً. لا يمكن لعيد ميلاد واحد أن يترك كل هذا الاختلاف لدى فتاة. لقد كانت هي وعائلتها في جنوب فرنسا، وقد أخبرتني بالقليل عن ذلك. ثم قالت

بشيء من الحرج: لقد... لقد رأيتُ البيت هناك، البيت الذي أخبرتني عنه، البيت الذي بناه صديقك المعماري.

- ماذا... سانتونيكس؟

- نعم، لقد ذهبنا إلى هناك لتناول الغداء في أحد الأيام.

- كيف فعلتم ذلك؟ هل تعرف زوجةُ أبيك صاحبَ البيت؟

- ديمتري كونستانتين؟ ليس تماماً، ولكنها قابلَتْهُ مرة... و... وقد رتبت غريتا الأمر لنا بحيث نذهب هناك في الحقيقة.

- غريتا ثانية؟

قلتُ ذلك وأنا أسمح للغيظ المعتاد أن يتسلل إلى صوتي. قالت: لقد قلتُ لك إن غريتا ممتازة في ترتيب الأمور.

- آه، حسناً. وهكذا فقد رتبَت الأمر بحيث تذهبين مع زوجة أبيك...

- ومع العم فرانك.

- دعوة عائلية تماماً، وأحسب أن غريتا ذهبت أيضاً.

- لا في الحقيقة، لم تأتِ غريتا لأن...

ترددتْ قليلاً ثم أكملت: لأن كورا، زوجة أبي، لا تعامل غريتا على هذا النحو تماماً.

- لا تعاملها كواحدة من العائلة، بل باعتبارها أشبه بقريبة مسكينة

فقيرة، أليس كذلك؟ مجرد فتاة تقيم وتعمل معكم بهدف التعلم. لا بد أن تغضب غريتا من هذا التعامل أحياناً.

- إنها ليست فتاة تقيم للتعلم، إنها أشبه بمرافقة لي.

- مرافقة، أو مشرفة، أو وصيفة، أو مربية. توجد الكثير من الكلمات.

- آه، اهدأ قليلاً. أريد أن أخبرك. إنني أعرف الآن ما الذي تعنيه بشأن صديقك سانتونيكس. إنه بيت رائع. إنه... إنه مختلف تماماً. يمكنني أن أرى أنه -إن بنى بيتاً لنا- فسيكون بيتاً رائعاً.

كانت قد استعملت الكلمة بشكل غير واعٍ أبداً. قالت «لنا». لقد ذهبت إلى الريفيرا وجعلت غريتا ترتب الأمور بحيث ترى البيت الذي وصفتُه لأنها أرادت أن ترى -بوضوح أكبر- البيت الذي كان من شأننا أن نجعل رودولف سانتونيكس يبنيه لنا في عالم أحلامنا الذي أقمناه بأنفسنا.

قلتُ لها: أنا سعيد لأنك شعرت هكذا إزاء البيت.

- ما الذي كنتَ تفعله؟

- وظيفتي المملة فقط، وقد ذهبتُ إلى سباق الخيل ووضعت بعض المال على حصان نكرة لا سوابق له، ثلاثين مقابل واحد. وضعتُ كل قرش معي عليه، وقد فاز متقدماً بمقدار طوله عن أقرب حصان. من ذا يقول إن حظي سيء؟

قالت: يسعدني أنك فزت.

قالت ذلك دون انفعال، لأن وضع كل قرش على حصان نكرة وفوز الحصان النكرة لم يكن يعني شيئاً في عالم إيلي. لم يكن يعني لها ما كان يعنيه في عالمي أنا. ثم أضفتُ قائلاً: كما ذهبتُ لرؤية أمي.

- أنت لم تتحدث كثيراً عن أمك أبداً.

- ولماذا أتحدث عنها؟

- ألا تحبّها؟

فكرتُ قليلاً ثم قلت: لا أدري. أحياناً لا أظنني أحبها، فالمرء يكبر في نهاية الأمر... ويقلع عن التعلق بأبويه.

- أظن أنك تحبها بالفعل، وإلاّ ما كنتَ لتبدي كل هذا التردد عند التحدث عنها.

- إنني أخاف منها على نحو ما... إنها تعرفني أكثر من اللازم؛ أعني أنها تعرف أسوأ ما لديّ.

- لا بد لأحد أن يعرف ذلك.

- ماذا تعنين؟

- يوجد قول لكاتب عظيم يقول إنه ما من رجل هو بطل في عين خادمه. ربما كان على كل امرئ أن يكون له خادم، وإلاّ لكان الأمر صعباً جداً، أن يبقى المرء دوماً مشدوداً للإيفاء بحُسنِ ظن الناس به.

قلت: "حسناً، إن لديك أفكاراً عميقة -بالتأكيد- يا إيلي". ثم أخذتُ يدها وقلت: هل تعرفين كل شيء عني؟

- أظن ذلك.

قالتها بكل هدوء وبساطة. قلتُ لها: ولكني لم أخبرك أبداً بالكثير عن نفسي.

- بل قل إنك لم تخبرني بأي شيء على الإطلاق، وكنت تتحفظ في الحديث دوماً. هذا أمر مختلف، ولكني أعرف -بشكل جيد- دخيلتك وميولك الخاصة.

قلت: "أنا أشك في معرفتك تلك". ثم مضيتُ قائلاً: يبدو من السخف بعض الشيء أن أقول إنني أحبك؛ إذ يبدو أن ذلك قد تأخر كثيراً، أليس كذلك؟ أعني أنك قد عرفت بذلك منذ أمد بعيد، بل منذ البداية عملياً، أليس كذلك؟

- نعم، وأنت عرفتَ أيضاً بما أحسه تجاهك، أليس كذلك؟

- السؤال هو: ما الذي سنفعله حيال ذلك؟ لن يكون هذا سهلاً يا إيلي. أنت تعرفين -حق المعرفة- من أكون، وماذا فعلتُ، ونوع الحياة التي عشتها. لقد عدتُ لأرى أمي والشارع الذي تعيش فيه. إنه ليس نفس عالمك يا إيلي. لا أحسب أن بوسعنا -أبداً- أن نجعل هذين العالمين يلتقيان.

- يمكنك أن تأخذني لأرى أمك.

- نعم، بوسعي ذلك، ولكني أُفضّل عدم رؤيتك لها. أظن أن هذا يبدو قاسياً عليك، بل ربما شديد القسوة، ولكن سيتعين علينا أن نعيش حياة غريبة معاً، أنا وأنت. لن تكون تلك الحياة هي نفسها الحياة

التي عشتِها أنت، كما لن تكون الحياةَ التي عشتها أنا أيضاً. لا بد أن تكون حياة جديدة يكون لنا فيها نوع من الأرضية المشتركة للقاء بين فقري وجهلي من جهة، وبين مالك وثقافتك ومعرفتك الاجتماعية من جهة أخرى. سيرى أصدقائي أنك متعالية في برجك العاجي، وسترى صديقاتك أنني رجل لا يمكن تقديمه للمجتمع. فما الذي سنفعله إذن؟

قالت: "سأقول لك ما الذي سنفعله بالضبط: سنعيش في فدان الغجري في بيت الأحلام الذي سيبنيه لنا صديقك سانتونيكس. هذا ما سنفعله". ثم أضافت: سوف نتزوج أولاً، أليس هذا ما تعنيه؟

– نعم، هذا ما أعنيه، إن كنتِ واثقة أن لا مانع لديك تماماً.

– الأمر سهل تماماً، يمكننا الزواج في الأسبوع المقبل. لقد بلغتُ سن الرشد، وأستطيع فعل ما أريد الآن، وفي هذا فرق كبير جداً. أحسب أنك ربما كنتَ مصيباً فيما يخص الأقارب. لن أخبر عائلتي، ولن تخبر أنت أمك، لن نخبرهم حتى ينتهي كل شيء، وبوسعهم -وقتَها- أن يستشيطوا غضباً دون أن يهمنا ذلك.

– هذا رائع، رائع يا إيلي، باستثناء أمر واحد. إنني أكره إخبارك به، ولكننا لا نستطيع العيش في فدان الغجري يا إيلي. إن أيّ بيت نبنيه لن يكون مكانه هناك؛ فقد بيع العقار.

قالت إيلي وهي تضحك: أعرف أنه بيع. أنت لا تفهمني يا مايك؛ فأنا التي اشتريته.

* * *

- ٨ -

جلسنا هناك، على العشب قرب الجدول بين أزهار الماء، وحولنا من كل جانب ممرات صغيرة وأحجار رُكزت في الماء للعبور عليها. كان الكثير من الناس يجلسون حولنا، ولكننا لم نُلقِ لهم بالاً، بل لم نشعر بوجودهم هناك.

حدقتُ بإيلي ملياً ولم أستطع الكلام. وأخيراً قالت: مايك، لديّ شيء، شيء عليّ أن أخبرك به. أعني شيئاً عني أنا.

- لا حاجة لذلك، لا حاجة لإخباري بأي شيء.

- نعم، ولكن يجب أن أخبرك. كان عليّ أن أخبرك منذ وقت طويل، ولكنني لم أُرد ذلك لأنني... لأنني رأيتُ أن ذلك قد يُبعدك عني. ولكنه شيء يفسر -إلى حدٍّ ما- مسألة فدان الغجري.

- أنت اشتريتِه؟ ولكن كيف اشتريتِه؟

- من خلال محامين، وهي الطريقة المعتادة، وهو استثمار ممتاز جداً؛ إذ سيرتفع ثمن الأرض.

كان من الغريب أن أسمع فجأة إيلي، إيلي الرقيقة الخنوعة، تتحدث بمثل هذه المعرفة والثقة عن عالم الأعمال والبيع والشراء.

- هل اشتريتِه من أجلنا نحن؟

- نعم. ذهبتُ إلى محام خاصٍ بي، وليس إلى محامي العائلة، وأخبرتُه بما أريد فعله، وجعلتُه يدرس الموضوع، ورتبتُ كل شيء بكل دقة. كان شخصان آخران يسعيان خلف العقار، ولكنهما لم يكونا متمسكين به كثيراً أو مستعدين لدفع سعر عالٍ جداً. كان الأمر الهام هو أن القضية كلها كان ينبغي أن تُهيأ تماماً وتُصبح جاهزة كي أُوقِّع عليها بمجرد وصولي إلى سن الرشد. وقد وُقِّعت الأوراق وانتهت.

- ولكن لا بد أنك دفعتِ دفعة مُقدماً أو ما شابه ذلك. أكان لديك ما يكفي من المال؟

- لا، لا، لم أكن أستطيع التحكم بالكثير من المال مسبقاً. ولكن يوجد أشخاص يمكن أن يقرضوك مالاً بالطبع، وإذا ما ذهبتَ إلى شركة محاماة جديدة فسيرغبون بأن تستمر في التعامل معهم في الصفقات التجارية عندما تؤول إليك الأموال التي تتوقع الحصول عليها، ولذلك تراهم مستعدين لخوض مجازفة تكون الخطورة الوحيدة فيها أن تسقط ميتاً قبل عيد ميلادك وبلوغك سن الرشد.

- حديثك يوحي بالكثير من العملية والحذق التجاري، إنك تذهلينني!

- دعك من عالم الأعمال، عليّ أن أعود إلى ما كنتُ بصدد

إخبارك به. لقد سبق أن أخبرتك به أصلاً على نحو ما، ولكنني لا أحسب أنك أدركته بالفعل.

قلتُ وقد علا صوتي حتى كاد يكون صراخاً: لا أريد أن أعرف. لا تقولي لي أي شيء. لا أريد أن أعرف شيئاً عما فعلتِه أو عمّن كنتِ تحبين.

- كلا، إنه ليس شيئاً من هذا القبيل أبداً. لم أنتبه إلى أن ذلك هو ما تخشاه. لا، لا يوجد شيء من ذلك. لا علاقات سابقة لي، ولا أحد غيرك. ما أريد قوله هو... هو أنني... غنية.

- أعرف ذلك، وقد قُلتِه لي أصلاً.

قالت إيلي بابتسامة صغيرة: نعم، وقُلتَ لي أنت: "فتاة غنية مسكينة". ولكن الأمر -بطريقة ما- أكبر من ذلك؛ فقد كان جدي واسع الثراء، من النفط غالباً، بالإضافة إلى أمور أخرى. وقد توفيت الزوجات اللاتي كان يدفع لهن نفقة، ولم يتبقّ سوى أبي وأنا، لأن ابنيه الآخرين قُتلا. قُتل أحدهما في كوريا والثاني في حادث سيارة. وهكذا تُركت الأموال كلها في صندوق ائتمان ضخم وهائل جداً، وعندما توفي أبي فجأة آلت الأموال كلها إليّ. كان والدي قد وضع مخصصات محددة لزوجته من قبل، ولذلك فإنها لا تحصل على أي شيء آخر. لقد أصبحت الأموال كلها لي. إنني -عملياً- واحدة من أغنى النساء في أمريكا يا مايك.

- يا إلهي! لم أعرف ذلك... نعم، أنت مُحقة، لم أكن أعرف أن الأمر على هذا النحو.

- ولم أُرِدْ لك أن تعرف. لم أُرد أن أخبرك؛ ولذلك كنتُ خائفة عندما قلتُ لك اسمي... فينيلا غودمان. وهو في الحقيقة غوتمان، بالتاء وليس بالدال، ولكنني رأيتُ أنك ربما تكون قد سمعت باسم غوتمان، ولذلك قلتُ الاسم بشكل أقرب للغمغمة، وجعلتُه غودمان.

- نعم، لقد رأيتُ اسم غوتمان في مكان ما، ولكني لا أحسب أنني كنتُ سأميزه حتى لو ذكرتِه؛ فالكثير من الناس لهم أسماء كهذه.

- ولهذا السبب كانت تُفرَض عليّ كل الوقت أسوار وجدران تكاد تكون كالسجن. لقد كان رجال تحرٍ يحرسونني، وكانت تجري دراسة معمقة للشبان قبل أن يُسمح لهم بمجرد الحديث معي. وكلما صادقتُ أحداً كانوا مضطرين للتأكد تماماً من أنه مناسب. أنت لا تعلم كم هي فظيعة جداً حياة السجن هذه! ولكن ذلك كله قد انتهى الآن، وإن لم يكن لديك مانع...

- ليس لدي مانع بالطبع، فسنجد الكثير من المتعة، والحقيقة أن غناك الفاحش لا يمكن أن يُثنيني عنك!

ضحكنا نحن الاثنين، ثم قالت: إن ما أحبه فيك هو أن بوسعك أن تكون طبيعياً إزاء الأمور.

- وفوق ذلك فإنك تدفعين الكثير من الضرائب على ثروتك، أليس كذلك؟ وهذا أحد الأمور الرائعة القليلة لكون المرء فقيراً مثلي. إن أي مال أكسبه يذهب مباشرة إلى جيبي ولا يستطيع أحد أخذه مني.

- سيكون لنا بيتنا، بيتنا في فدان الغجري.

وللحظة قصيرة فقط ارتعدَتْ قليلاً فجأة. قلتُ لها وأنا أنظر إلى أشعة الشمس: هل تشعرين بالبرد يا حبيبتي؟

- لا.

كان الجو حاراً حقاً، وكاد الطقس يشبه طقس جنوب فرنسا. قالت: لا، لم يكن ذلك إلاّ... إلاّ من تلك المرأة، تلك الغجرية في ذلك اليوم.

- آه، لا تفكري فيها، لقد كانت معتوهة على أية حال.

- أترى أنها تظن حقاً أن لعنة حلت على الأرض؟

- أظن أن هذا دأب الغجر؛ يريدون -دوماً- إشغال أنفسهم والناس بلعنةٍ أو بشيء مماثل.

- هل تعرف الكثير عن الغجر؟

قلتُ صادقاً: لا أعرف عنهم شيئاً على الإطلاق. إن كنتِ لا تريدين فدان الغجري يا إيلي فسنشتري بيتاً في مكان غيره. على قمة جبل في ويلز، أو على ساحل إسبانيا أو هضاب إيطاليا، ويمكن لسانتونيكس أن يبني لنا هناك بيتاً لا يقل عن غيره.

- لا، بل أريد أن يمضي الأمر على هذا النحو؛ فهو المكان الذي رأيتك فيه لأول مرة تمشي صاعداً الطريق وتظهر عند المنحنى فجأة، ثم رأيتَني فتوقفتَ وحدّقتَ بي. لن أنسى ذلك أبداً.

- وأنا لن أنساه أيضاً.

- إذن فسيكون بيتنا هناك، وسيبنيه صديقك سانتونيكس.

قلتُ وقد شعرتُ بوخزة من عدم الارتياح: أرجو أنه ما يزال حياً؛ لقد كان رجلاً عليلاً.

- إنه حي يرزق، ولقد ذهبتُ لرؤيته.

- ذهبتِ لرؤيته؟

- نعم. عندما كنتُ في جنوب فرنسا، وكان هو في مصحة هناك.

- في كل لحظة تبدين مدهشة أكثر فأكثر يا إيلي. يا للأمور التي تفعلينها وترتبينها!

- أظن أنه شخص رائع، ولكنه مخيف بعض الشيء.

- هل أخافك؟

- نعم، لقد أخافني كثيراً لسبب ما.

- هل تكلمتِ معه بشأننا؟

- نعم، أخبرته بكل شيء عنا وعن فدان الغجري وعن البيت. وقد أخبرني -وقتَها- بأننا سنضطر لخوض مجازفة معه؛ فهو رجل عليل جداً. قال إنه يظن أنه ما زال يملك من الحياة ما يستطيع معه زيارة الموقع ورسم المخططات، وتخيل البيت ورسم رسوماته كلها، وإنه ما

كان ليأبه حقاً إن مات قبل أن ينتهي البيت، ولكني قلتُ له إنني أريده أن يرانا نعيش فيه.

- وماذا قال بخصوص ذلك؟

- سألني إن كنتُ أعرف ما الذي أفعله بزواجي بك، فأجبتُه بأنني أعرف بالطبع.

- وبعد ذلك؟

- قال إنه يتساءل إن كنتَ أنت تعرف ما الذي تفعله.

- إنني أعرف ذلك تماماً.

- قال لي: "إن من شأنكِ أن تعرفي دوماً وُجهتك يا آنسة غوتمان، وستذهبين دوماً حيث تريدين الذهاب، لأن ذلك هو طريقك الذي اخترته. أما مايك فإنه قد يختار الطريق الخطأ؛ فهو لم ينضج بعدُ بحيث يعرف طريقه". وعندها قلتُ له: "إنه سيكون آمناً جداً معي".

كانت لها ثقة رفيعة بنفسها، ومع ذلك فقد أغضبني قول سانتونيكس. إنه مثل أمي؛ فهي تبدو دوماً وكأنها تعرف عني أكثر مما أعرفه عن نفسي. قلت: إنني أعرف وُجهتي؛ فأنا ذاهب في الطريق الذي أريد السير فيه، ونحن ذاهبان معاً.

- لقد بدؤوا في هدم ما تبقى من منزل تاورز.

ثم بدأت تتكلم بلهجة عملية: ستكون تلك عملية سريعة عاجلة بمجرد الانتهاء من وضع المخططات. علينا أن نسرع، هذا ما قاله

سانتونيكس. هل نتزوج يوم الثلاثاء القادم؟ إنه يوم رائع من أيام الأسبوع.

- دون وجود أحد غيرنا.

- باستثناء غريتا.

- تباً لغريتا! لن تأتي لزواجنا. أنا وأنت فقط، ولا أحد غيرنا. بوسعنا أن نسحب الشاهدين الضروريين من الشارع.

إنني أرى حقاً -وأنا أستعيد الماضي- أن ذلك كان أسعد يوم في حياتي.

* * *

الكتاب الثاني

- ٩ -

هكذا جرت الأمور. وتزوجنا أنا وإيلي، ويبدو في التعبير عن ذلك بهذا الشكل الكثير من الاقتضاب والإيجاز، ولكن الأمور جرت حقاً على هذا النحو. قررنا الزواج وتزوجنا.

كان ذلك جزءاً من الأمر كله... وليس مجرد نهاية لرواية رومانسية أو قصة خيالية من قصص الأطفال: «وهكذا تزوجا وعاشا حياة سعيدة بعد ذلك»، فأنت -في نهاية المطاف- لا يمكنك الخروج بدراما عظيمة من العيش «حياة سعيدة بعد ذلك». كنا قد تزوجنا، وكنا سعيدين نحن الاثنين، وقد مر وقتٌ سعيد لا بأس به قبل أن يتمكن أحد من الانتباه إلينا ويبدأ بإثارة المتاعب والمشكلات المعتادة، وكنا قد أعددنا العدة لتلك المتاعب.

كان الأمر كله بسيطاً جداً في الواقع، ففي غمرة رغبتها بالحرية، كانت إيلي قد أخفت آثارها بكل ذكاء حتى الآن. وقد اتخذت غريتا المفيدة كل الخطوات الضرورية، وكانت دوماً تحرس إيلي وتحافظ على أمرها. وكنتُ قد أدركتُ -في وقت مبكر- أنه ما من أحدٍ يعنيه حقاً أن يهتم كثيراً بأمر إيلي أو أمر تصرفاتها، فزوجة أبيها منهمكة

بحياتها الاجتماعية الخاصة وعلاقاتها. إن إيلي حرة تماماً، وإذا ما أرادت الذهاب إلى أوروبا فلماذا لا تذهب؟ وإن اختارت أن تقيم حفل عيد ميلادها الحادي والعشرين في لندن فلِمَ لا أيضاً؟ الآن وقد آلت إليها ثروتها الضخمة فهي التي تتحكم بعائلتها فيما يخص طريقة صرفها لأموالها. فإن أرادت شراء فيلا على الريفيرا أو قلعة على كوستا برافا أو يختٍ أو أيّ شيء من هذا القبيل، فما عليها إلاّ أن تذكر ذلك، وسيقوم شخص من بين المرافقين الذين يحيطون بكبار الأثرياء بتوفير ذلك على الفور.

فهمتُ أن غريتا كانت تُعتبر -في أعين عائلتها- مُساعدة تثير الإعجاب؛ فتاة قديرة قادرة على القيام بكل الترتيبات بمنتهى الكفاءة، وهي خنوعة دون شك وفاتنة بالنسبة لزوجة الأب وبالنسبة للعم ولأبناء العمومة القلائل الغريبين الذين بدا أنهم يحومون في المكان. كان تحت إمرة إيلي ثلاثة محامين على الأقل، مما كنتُ أفهمه من سقطات كلامها بين الحين والآخر، وكانت مُحاطة بشبكة مالية ضخمة من المصرفيين والمحامين ومديري صناديق الائتمان. كان عالَماً لا أرى منه إلاّ ومضات بين الحين والآخر، أغلبها مما تُسقطه إيلي دون اهتمام من عبارات أثناء أحاديثنا. ومن الطبيعي أنها لم يخطر ببالها أنني ما كنتُ لأعرف شيئاً عن كل هذه الأمور. لقد نشأتْ وهذه الأمور تتردد من حولها، ومن الطبيعي أنها استنتجت أن العالم كله يعرف هذه الأمور ويعرف عنها كل شيء.

والحقيقة أن حصولنا على ومضات عابرة من المزايا الفريدة الخاصة في حياة كلٍ منا كان -على غير توقع منا- هو مصدر أكبر

متعة لنا في أول حياتنا الزوجية. وإذا ما كان لي أن أعبّر عن ذلك بأسلوب فج مباشر (وقد كنتُ أضع الأمور أمام نفسي بمثل هذا الأسلوب الفج، لأن تلك كانت الطريقةَ الوحيدة للتكيف مع حياتي الجديدة) لقلتُ إن الفقير لا يعرف حقاً كيف يعيش الغني، والغني لا يعرف كيف يعيش الفقير، وإن اكتشاف كل منهما لطريقة عيش الآخر عملية ساحرة حقاً بالنسبة للطرفين.

قلتُ مرة بشيء من عدم الارتياح: اسمعيني يا إيلي، هل ستثور ضجة فظيعة حول هذا الأمر كله، أعني حول زواجنا؟

لاحظتُ أن إيلي فكرت دون الكثير من الاهتمام ثم قالت: "آه، نعم، ربما أصبحوا فظيعين". ثم أضافت: آمل ألاّ تهتم كثيراً لذلك.

– لن أهتم. ولماذا أهتم؟ ولكن ماذا عنك، هل سيضطهدونك بسبب هذا الأمر؟

– أظن ذلك، ولكن لا حاجة لأن يصغي المرء لهم. القضية هي أنهم لا يستطيعون فعل شيء.

– ولكن، ألن يحاولوا؟

قالت: "آه، بلى. سيحاولون"، ثم أضافت وهي تتأمل: ربما حاولوا شراءك.

– شرائي؟

قالت إيلي وهي تبتسم ابتسامة طفلة سعيدة: لا تبدُ مصدوماً إلى

هذا الحد. لا يُعبِّر عن الأمر بهذه الطريقة تماماً.

ثم أضافت: لقد اشتروا زوج ميني تومبسُن من قبل.

- ميني تومبسُن؟ أهي الفتاة التي يسمونها دوماً وريثة النفط؟

- نعم، صحيح. لقد هربتْ وتزوجت مُنقِذ سباحة على الشاطئ.

قلت بعدم ارتياح: اسمعيني يا إيلي، لقد كنتُ أنا منقذ سباحة في ليتلهامبتُن ذات يوم.

- أحقاً؟ ما أمتع ذلك! بشكل دائم؟

- كلا بالطبع، بل لموسم صيف واحد فقط.

- ليتك لا تقلق.

- ماذا حدث بشأن ميني تومبسُن؟

- أظنهم اضطروا للوصول بالمبلغ إلى مئتي ألف دولار. لم يقبل بأقل من ذلك. كانت ميني مولعة بالرجال وكانت بنصف عقل في الحقيقة.

- لقد أذهلتِني يا إيلي. إنني لم أحصل على زوجة فقط، بل حصلتُ على شيء يمكنني مقايضته بمبالغ نقدية في أي وقت.

- هذا صحيح. أرسل في طلب محامٍ مخضرم قوي وقل له إنك مستعد للحديث بصراحة. وعندها سيقوم بتحديد مسألة الطلاق ومبلغ النفقة.

ثم أضافت وهي تواصل تعليمي: لقد تزوجتْ زوجة أبي أربع مرات، وقد كسبت من ذلك الكثير. آه يا مايك، لا تَبدُ مصدوماً إلى هذا الحد.

والغريب أنني كنتُ مصدوماً؛ فقد شعرتُ بتقزز من فساد المجتمع الحديث في حلقاته الأغنى. لقد كان في إيلي شيء رأيتها معه أشبه بفتاة صغيرة، شيء بسيط جداً في سلوكها يكاد يكون مؤثراً، ولذلك دُهشتُ إذ اكتشفتُ مدى سعة اطلاعها على أمور الدنيا، وكم هي كثيرة الأمور التي ألفتها حتى لا تكاد تشعر بقدرها. ومع ذلك عرفتُ أنني كنتُ -جوهرياً- مُصيباً في رأيي بها؛ إذ كنتُ أعرف تماماً أي نوع من الناس هي، وأعرف بساطتها وحبها وعذوبتها الطبيعية. وهذا لا يعني أنها يجب أن تكون جاهلة بالأمور. إن ما كانت تعرفه وتألفه لم يكن سوى جزء محدود تماماً من المعرفة الإنسانية. لم تكن تعرف الكثير عن عالمي، عالم البحث اليائس عن الوظائف، وعصابات سباق الخيل، وعصابات المخدرات، وعن مخاطر الحياة الصعبة، وعن ذلك النوع الغبي المتبهرج من الناس الذين أعرفهم جيداً إذ قضيت حياتي كلها بينهم. لم تكن تعرف ما معنى أن يتربى المرء بأسلوب شريف محترم، ولكنه أسلوب تمس الحاجة فيه دوماً إلى المال، مع أم تُنهك نفسها وجسمها عملاً باسم الاحترام، مصممة على أن ينجح ابنها في الحياة. لا تعرف كيف يتم التقتير في كل قرش وادخاره، ولا المرارة الناتجة عندما يقذف الابن الطائش اللاهي بكل فُرَصه أو يقامر بكل ما لديه على معلومة مُسربة لفوز حصان معين في سباق الخيل.

تمتعَتْ بسماع كلامي عن حياتي، كما تمتّعتُ بسماع كلامها عن حياتها. كان كل واحد منا يكتشف بلداً أجنبياً غريباً عليه.

وإنني أدرك -وأنا أُعيد النظر في الماضي- كم كانت حياتنا سعيدة بشكل رائع في تلك الأيام الأولى، أنا وإيلي. وكنتُ -في ذلك الوقت- أعتبر تلك السعادة أمراً مفروغاً منه، وكذلك إيلي. تزوجنا في مكتب زيجات في بلايموث، كان اسم غوتمان اسماً شائعاً بعض الشيء، ولم يكن أحد من الصحفيين أو غيرهم يعرف أن وريثة غوتمان موجودة في إنكلترا. وهكذا عُقد قراننا في مكتب أمين سجل الزيجات، واتخذنا موظفه وعاملة الطابعة الكهلة لديه كشاهدين. وقد ألقى علينا خطاباً جدياً طويلاً عن المسؤوليات الخطيرة للحياة الزوجية، وتمنى لنا السعادة. وبعد ذلك خرجنا حُرّين متزوجين. السيد والسيدة روجرز! أمضينا أسبوعاً في فندق على شاطئ البحر ثم سافرنا إلى الخارج. وقد قضينا ثلاثة أسابيع رائعة من السفر أينما حمَلَنا خيالُنا دون أن نبخل على أنفسنا بشيء.

ذهبنا إلى اليونان، وذهبنا إلى فلورنسا، وإلى البندقية، ثم ذهبنا إلى الريفيرا الفرنسية، ثم إلى منتجعات المياه المعدنية. وقد نسيت الآن اسم نصف الأماكن التي زرناها. كنا نركب الطائرات، أو نستأجر يختاً أو سيارات فارهة فاخرة. وبينما كنا نستمتع كانت غريتا -كما فهمتُ من إيلي- باقية في «الجبهة الداخلية» تؤدي دورها.

كانت غريتا تتنقل من مكان لآخر وترسل كل أنواع الرسائل والبطاقات البريدية التي تركتها إيلي لديها. قالت إيلي مرة: سيأتي يوم حساب بالطبع، وسيهبطون علينا كغمامة من الصقور. ولكن من الأفضل أن نستمتع حتى يحين ذلك.

قلتُ: وماذا عن غريتا؟ ألن يغضبوا منها عندما يكتشفون الحقيقة؟

- آه، طبعاً. ولكن غريتا لن تأبه لذلك؛ فهي قوية.

- ألن يؤثر ذلك على فرصتها في الحصول على وظيفة أخرى؟

- ولماذا تحصل على وظيفة أخرى؟ فهي ستأتي وتعيش معنا.

قلت: كلا!

- ما الذي تعنيه بهذا يا مايك؟

- لا نريد أحداً يسكن معنا.

- لن تقف غريتا في طريقنا، وستكون مفيدة جداً. إنني لا أعرف حقاً ماذا كنتُ سأفعل دونها. أعني أنها تدير وترتب كل شيء.

قطبتُ جبيني وقلت: لا أظنني سأرتاح لهذا. وفوق ذلك فإننا نريد بناء بيتنا الخاص... بيت أحلامنا يا إيلي، ونريده لنا وحدنا.

- نعم، أعرف ما تعنيه. ولكن مع ذلك...

ترددَتْ قليلاً ثم قالت: أعني أنه سيكون من الصعب جداً على غريتا أن لا يكون لها مكان تعيش فيه؛ فهي -في نهاية المطاف- كانت معي، وفعلتْ كل شيء لأجلي منذ أربع سنوات. وانظر إلى مدى مساعدتها لي في زواجي وكل الأشياء الأخرى.

- لن أتحمل تدخلها بيننا طوال الوقت.

- ولكنها ليست من هذا النوع إطلاقاً يامايك. أنت لم تقابلها مجرد مقابلة بعد.

- نعم، نعم. أعرف أنني لم أقابلها، ولكن... ولكن لا علاقة للأمر... لا علاقة للأمر بمسألة حبي لها من عدمه. نريد أن نكون بمفردنا يا إيلي.

قالت برقة: حبيبي مايك!

وتركنا الموضوع عند هذا الحد.

وفي معرض أسفارنا كنا قد التقينا بسانتونيكس. كان ذلك في اليونان، وكان يسكن في بيت صغير لأحد صيادي السمك قرب البحر. وقد أذهلني مقدار ما بدا فيه من مرض، كان أسوأ حالاً بكثير مما رأيته قبل عام. وقد حيانا نحن الاثنين بكل حرارة قائلاً: لقد فعلتماها -إذن- في نهاية المطاف!

قالت إيلي: نعم، ونحن الآن في صدد بناء بيتنا، أليس كذلك؟

قال: "لقد هيأت لك الخرائط والرسومات هنا". ثم أضاف وهو ينتقي كلماته بعناية: لعلها أخبرتك كيف جاءت وبحثت حتى وجدتني وأعطتني... أوامرها.

قالت إيلي: آه! لم تكن أوامر؛ كانت مجرد التماس.

قلتُ له: أتعرف أننا اشترينا الموقع؟

- لقد أبرقتْ إيلي وأخبرتني، وقد أرسلتْ لي عشرات الصور.

قالت إيلي: عليك -طبعاً- أن تأتي وتراه في بداية الأمر، فقد لا يعجبك الموقع.

- بل إنه يعجبني.

-.لا يمكنك الجزم بذلك حتى تراه.

- ولكنني رأيتُه يا طفلتي. لقد سافرتُ بالطائرة قبل خمسة أيام، وقابلتُ هناك واحداً من محاميك ذوي الوجوه الكالحة... المحامي الإنكليزي.

- السيد كراوفورد؟

قال: "نعم، هو. والحقيقة أن الأشغال قد بدأت فعلاً: تنظيف الأرض، وإزالة حطام البيت القديم، ووضع الأساسات، والمجاري. وعندما تعودان إلى إنكلترا سأكون هناك للقائكما". ثم أخرج خرائطه وجلسنا نتكلم وننظر إلى بيتنا المنتظر. بل لقد كان أمامنا رسم أولي بالألوان المائية للبيت، بالإضافة إلى المخططات والإنشاءات المعمارية.

- هل أعجبك يا مايك؟

سحبتُ نفساً عميقاً وقلت: نعم، هذا هو ما أريده. هذا هو بالضبط.

- لقد اعتدتَ على أن تتكلم كثيراً عنه يا مايك. وفي المرات التي كنتُ فيها في مزاج يميل إلى الخيال كنتُ أرى بأن قطعة الأرض تلك قد سحرتك. لقد كنتَ رجلاً تحب بيتاً ربما لا يُقدَّر لك أبداً أن تمتلكه، وربما لا يُقدّر لك أن تراه، بل ربما لا يتم بناؤه أبداً.

ثم سألتْ سانتونيكس: ولكنه سيُبنى، سوف يُبنى، أليس كذلك؟

- إن شاء الله، فهذا أمر ليس بيدي.

سألته بارتياب: ألم تلقَ... تحسناً؟

- فلتضعها في عقلك المتحجر أنني لن أتحسن أبداً.

- هراء؛ الناس يكتشفون علاجات لمختلف الأمراض كل الوقت.

- إنني معجب بتفاؤلك يا مايك، ولكن مرضي ليس من ذلك النوع، فهم يأخذونك إلى المستشفى ويبدلون دمك، فتعود ثانية وقد كسبتَ فرصة صغيرة من الحياة، فترة قصيرة تكسبها. وهكذا يمضي الأمر وأنت تغدو أضعف في كل مرة.

قالت إيلي: أنت شجاع جداً.

- آه، لا، لستُ شجاعاً. عندما يكون الأمر مؤكداً فلا يوجد ما يبرر الشجاعة، وكل ما يمكن للمرء فعله هو أن يجد عزاء لنفسه.

- ببناء البيوت؟

- لا، ليس بذلك. إن حيويتك تضعف طوال الوقت، ولذلك يصبح بناء البيوت أمراً أصعب وليس أسهل. تستمر القوة في التلاشي. كلا، ولكن يوجد عزاء، وهو عزاء غريب جداً أحياناً.

- أنا لا أفهمك.

- نعم، ما كنتَ لتفهمني يا مايك. ولا أدري حقاً إن كان من شأن إيلي أن تفهمني. ربما تفهمني.

ثم مضى قائلاً وهو لا يكاد يتحدث معنا بقدر ما يتحدث مع نفسه: ثمة شيئان يسيران معاً، جنباً إلى جنب؛ الضعف والقوة. ضعف الحيوية التي تتلاشى، وقوة القدرة المُحبطة. ولذلك لم يعد يهم ما تفعله الآن! إنك ستموت على أية حال، ولذلك بوسعك أن تفعل ما تشاء. لا يوجد ما يردعك، ولا ما يمنعك. إن بوسعي السير في شوارع أثينا وإطلاق النار على أي امرئ لا يعجبني وجهه. فكّرْ في ذلك.

قلتُ له: ولكن يمكن للشرطة أن يعتقلوك.

- يمكنهم بالطبع، ولكن ما الذي سيفعلونه؟ أقصى ما يمكنهم هو أن يأخذوا حياتي، وحياتي ستأخذها -خلال فترة وجيزة جداً- قوةٌ أعظم من القانون. ما الذي يمكنهم فعله غير ذلك؟ إرسالي إلى السجن لمدة عشرين أو ثلاثين عاماً؟ هذه مفارقة ساخرة، أليس كذلك؟ فأنا لا أملك أن أخدم عشرين سنة أو ثلاثين في السجن، وربما لم يكن لديّ سوى ستة أشهر أو سنة، أو سنة ونصف في أحسن تقدير. ليس من شيء يستطيع أحدٌ فعله لي، ولذلك فإنني مَلِك فيما تبقى لي من زمن وأستطيع فعل ما أشاء. وتصبح هذه الفكرة أحياناً قوية جداً، إلاّ أنه... لا يوجد عندي إغراء كبير، إذ لا يوجد -تحديداً- شيء غريبٌ أو غير شرعي أرغب في فعله.

* * *

بعد أن تركناه، وبينما كنا عائدين بالسيارة إلى أثينا، قالت إيلي: إنه شخص غريب. أتدري أنني أشعر أحياناً بالخوف منه.

- الخوف، من رودلف سانتونيكس... لماذا؟

- لأنه ليس كغيره من الناس، ولأن به... لا أدري، إن به قسوة وعنجهية في مكان ما من نفسه، وأحسب أنه كان يحاول إخبارنا حقاً بأن معرفته أنه سيموت قريباً قد زادت من عنجهيته.

ثم أضافت وهي تنظر إليّ بشيء من الحيوية وعلى وجهها تعبير أقرب إلى الحماسة والعاطفة: ماذا لو أنه بنى لنا قلعتنا الجميلة، بيتنا الرائع على حافة جرف صخري هناك بين أشجار الصنوبر، وجئنا نحن لنعيش فيه، ثم رأيناه هناك عند عتبة البيت فرحب بنا وأدخلنا ثم...

- ثم ماذا يا إيلي؟

- لنفترض أنه دخل خلفنا، وأغلق الباب بهدوء، ثم ذبحنا على العتبة ليجعلنا قرباناً لهذا البيت.

- إنك تخيفينني يا إيلي. يا للأشياء التي تفكرين بها!

- مشكلتنا -أنا وأنت يا مايك- هي أننا لا نعيش في العالم الواقعي. إننا نحلم بأشياء خيالية يمكن أن لا تحدث أبداً.

- لا تفكري بالقرابين في معرض الحديث عن فدان الغجري.

- أحسب أن ذلك بسبب الاسم، وبسبب اللعنة المنصبة عليه.

صحتُ قائلاً: لا توجد أية لعنة. هذا كله هراء، فلتنسه.

كان حديثنا هذا في اليونان.

* * *

وكان ذلك -فيما أظن- في اليوم التالي. كنا في أثينا، وفجأة، وعلى درجات مرتفع أكروبوليس، صادفتْ إيلي أناساً تعرفهم. كانوا قد نزلوا إلى اليابسة قادمين من إحدى الرحلات البحرية، وتركت امرأة تبلغ نحواً من خمسة وثلاثين عاماً مجموعتها واندفعت على الدرج تجاه إيلي وهي تهتف: عجباً، أهذه أنت حقاً، إيلي غوتمان؟ ما الذي تفعلينه هنا؟ لم أكن أعرف. هل أنت في رحلة بحرية؟

قالت إيلي: لا، لقد نزلتُ هنا فقط.

- يا إلهي! من الرائع أن أراك. كيف حال كورا، أهي هنا؟

- لا، كورا في سالزبيرغ فيما أظن.

- حسناً، حسناً...

كانت المرأة تنظر إليّ، وقالت إيلي بهدوء: دعيني أعرِّفك... السيد روجرز، السيدة بيننغتن.

- تشرفنا. كم ستمكثين هنا؟

- أنا مغادرة غداً.

- آه، يا إلهي! سوف أفقد مجموعتي إن لم أذهب، وأنا لا أريد أن أضيع كلمة واحدة من المحاضرة والوصف الذي يقدمونه للمكان. إنهم يستعجلون المرء قليلاً، حتى أنني لا أقوى على الحراك في آخر النهار. هل من فرصة للقائك على فنجان قهوة؟

- ليس اليوم؛ فنحن ذاهبان في رحلة قصيرة.

هرعت السيدة بيننغتن للانضمام إلى مجموعتها. استدارت إيلي وهي تصعد معي درجات المرتفع ثم نزلت ثانية، وما لبثت أن قالت لي: هذا يحسم الأمور إلى حدٍّ ما، أليس كذلك؟

- ما الذي يحسم؟

- لم تجبني للحظات، ثم قالت بتأمل: يجب أن أكتب الليلة.

- لمن تكتبين؟

- آه، أكتب لكورا، وللعم فرانك فيما أرى، وللعم آندرو.

- ومن هو العم آندرو؟ هذا زبون جديد.

- آندرو ليبنكوت. إنه ليس عماً حقيقة، بل هو كبير الأوصياء علي، أو المشرفين على أموالي، أو كائناً ما كان اسمهم. إنه محام... محام شهير جداً.

- وما الذي ستقولينه؟

- سأقول لهم إنني متزوجة. لم أستطع القول فجأة لنورا بيننغتن: "دعيني أعرفك على زوجي"؛ فقد كان من شأن ذلك أن يثير عاصفة مخيفة من الصياح والهتاف والعبارات المعهودة، مثل: "لم أسمع أبداً أنك تزوجت. أخبريني كل شيء عن الأمر يا عزيزتي"، إلى آخر هذه المعزوفة. ولعل من الإنصاف -على الأقل- أن تكون زوجة أبي والعم فرانك والعم آندرو هم أول العارفين.

ثم تنهدت وقالت: حسناً، لقد قضينا وقتاً ممتعاً حتى الآن.

سألتُها: ما الذي سيقولونه أو يفعلونه؟

قالت إيلي بأسلوبها الهادئ: أحسب أنهم سيثيرون ضجة. ولن يهم كثيراً قيامهم بذلك، وسيكون لديهم من العقل ما يجعلهم يعرفون هذه الحقيقة تماماً. أحسب أننا مضطران للتحضير لاجتماع. يمكننا أن نذهب إلى نيويورك. هل تحب ذلك؟

ثم نظرت إليّ متسائلة فقلت: لا، لا أحب ذلك أبداً.

- إذن فسيأتون هم إلى لندن، أو سيأتي بعضهم. لا أدري إن كنتَ تفضل ذلك أكثر.

- لا أحب لا هذا ولا ذاك. أريد أن أكون معك وأن أرى بيتنا وهو يرتفع لبنة لبنة حالما يصل سانتونيكس إلى هناك.

- وهذا ما يمكن أن نفعله، فاللقاء مع العائلة لن يستغرق الكثير من الوقت في نهاية الأمر، ولعل مشاجرة ضخمة رائعة واحدة تكفي. إما أن نستقل الطائرة إليهم أو يستقلوها هم إلينا.

- ظننتك قلتِ إن زوجة أبيك في سالزبيرغ.

- كان ذلك مجرد قول مني، إذ سيبدو غريباً قولي إني لا أعرف مكانها.

ثم أضافت وهي تتنهد: نعم، سنعود إلى الوطن ونقابلهم جميعاً. مايك، أرجو أن لا تكون مهتماً كثيراً.

- مهتماً بماذا... بعائلتك؟

- نعم. ألن تهتم إذا ما تصرفوا معك بشكل قذر؟

- أحسب أن هذا هو الثمن الذي عليّ دفعه من أجل الزواج بك، وسأتحمله.

قالت بتأمل: وأمك.

- بالله عليك يا إيلي، لا أظنك ستحاولين ترتيب اجتماع بين زوجة أبيك بكشاكشها وزراكشها وبين أمي القادمة من الشوارع الخلفية. ما الموضوع الذي تظنين أنهما ستتحدثان فيه؟

- لو كانت كورا أمي الحقيقية فربما كان يوجد الكثير مما تقولانه لبعضهما البعض. أتمنى أن لا تكون موسوساً إلى هذا الحد بالفوارق الطبقية يا مايك!

قلت غير مصدق: أنا! ما هي تلك عبارتكم الأمريكية التي تقولونها في هذا الصدد... أنا القادم من الطرف البائس من المدينة، أليس كذلك؟

- لعلك لا تريد أن تكتبها في لوحة تعلقها على صدرك.

قلتُ بمرارة: أنا لا أعرف الملابس المناسبة التي يجب ارتداؤها، ولا أعرف الطريقة الصحيحة في الحديث عن الأمور، ولا أعرف أي شيء حقاً عن اللوحات والفن والموسيقى. وما زلتُ أتعلم لتوي لمن تُقدم الإكراميات وكم ينبغي أن يُدفع منها.

- ألا تظن -يا مايك- أن هذا هو ما يجعل الأمر كله أكثر إثارة بالنسبة لك. أنا أظن ذلك.

- على أية حال، يجب أن لا تسحبي أمي إلى إطار عائلتك.

- لم أنوِ سحب أحد إلى شيء، ولكني أرى -يا مايك- أن من واجبي أن أذهب وأرى أمك عندما نعود إلى إنكلترا.

قلت فيما يشبه الانفجار: كلا.

نظرت إليّ وقد جفلت بعض الشيء وقالت: ولِمَ لا يا مايك؟ أعني... بغض النظر عن أي اعتبار آخر... أن من الوقاحة البالغة أن لا أذهب لرؤيتها. هل أخبرتَها بأنك تزوجت؟

- ليس بعد.

- لماذا؟

لم أجبها.

- ألن تكون أبسط طريقة هي أن تقول لها إنك تزوجتَ وتأخذني

لرؤيتها عندما نعود إلى إنكلترا؟

قلتُ ثانية: كلا.

ولكنها كانت «كلا» أقل تفجراً هذه المرة، ولو أنها حافظت على قدر كبير من الإصرار. قالت إيلي ببطء: أنت لا تريد أن أقابلها.

لم أُرِدْ ذلك طبعاً، وأحسب أن هذا كان واضحاً تماماً، ولكن كان آخر ما أستطيع فعله هو شرح الموقف. لم أرَ كيف يمكنني أن أشرح. قلتُ ببطء: لن يكون هذا تصرفاً صحيحاً. لا بد أنك تدركين ذلك. أنا واثق أنه سيؤدي إلى متاعب.

- أتظن أنها لن تحبني؟

- لا يملك أحد أن لا يحبك، ولكنها لن تكون... آه، كيف لي أن أعبر عن ذلك. ربما انزعجت واضطربت. فأنا في النهاية... أعني أنني تزوجت من خارج دائرتي. هذه هي العبارة القديمة، ولن تحب ذلك.

هزت إيلي رأسها ببطء وقالت: أيوجد من يفكر حقاً بهذا الشكل في أيامنا هذه؟

- إنهم يفكرون كذلك بالطبع، وهم يفكرون كذلك في بلادك أيضاً.

- نعم، هذا صحيح إلى حدٍّ ما... ولكن إذا ما تحسنت أحوال أحدهم هناك...

- تعنين إذا ما كسب رجل مالاً كثيراً.

- ليس المال فقط.

- بلى، هو المال. إذا ما كسب رجل كثيراً من المال فإنه سيثير إعجاب الناس ويحترمونه ولا يعود مهماً أين وُلد.

- حسناً، إن هذا يصح في كل مكان.

- أرجوك يا إيلي... أرجوك أن لا تذهبي وتري أمي.

- ما زلتُ أرى أن ذلك وقاحة.

- لا، ليس كذلك. ألا يمكنك أن تتركيني أُقدِّر ما هو الأفضل بالنسبة لأمي أنا؟ صدقيني أنها سوف تنزعج.

- ولكن يجب أن تُخبرها أنك تزوجت.

- حسناً، سوف أفعل ذلك.

خطر لي أنه سيكون من الأسهل أن أكتب لأمي من الخارج. وفي ذلك المساء -عندما كانت إيلي تكتب للعم آندرو والعم فرانك ولزوجة أبيها كورا فان ستوفيسينت- كنتُ أنا أيضاً أكتب رسالتي الخاصة. وقد كانت قصيرة تماماً. كتبتُ أقول:

أمي العزيزة، كان يجب أن أخبرك من قبل، ولكنني شعرتُ ببعض الحرج. لقد تزوجتُ منذ ثلاثة أسابيع، وقد كان الأمر كله مفاجئاً بعض الشيء. وهي فتاة جميلة جداً وعذبة جداً، ولديها الكثير من المال، مما

يجعل الأمور محرجة قليلاً في بعض الأحيان. سوف نبني بيتاً في مكان ما في الريف. أما في الوقت الحاضر فنحن نسافر في أوروبا.

مع خالص أمنياتي، المخلص: مايك.

كانت نتائج مراسلاتنا المسائية هذه متنوعة بعض الشيء؛ فقد انتظرت أمي مرور أسبوع قبل أن ترسل رسالة تمثل أسلوبها أصدق تمثيل:

عزيزي مايك، لقد سعدتُ بتلقي رسالتك. آمل أن تكون سعيداً جداً. أمك المحبة.

وكما تنبأتْ إيلي؛ فقد ثارت ضجة أكبر بكثير من عائلتها هي، فقد أثرنا عُشاً للزنابير والمتاعب، ولاحقَنا الصحفيون يريدون أخباراً عن زواجنا الرومانسي، وظهرت مقالات في الصحف تتحدث عن وريثة غوتمان وهروبها، ووصلت رسائل من المصرفيين والمحامين. وأخيراً تم الترتيب للقاءات رسمية. قابَلْنا سانتونيكس في موقع فدان الغجري واطلعنا على المخططات هناك، وناقشنا الأمور، وبعد أن رأينا العجلة وقد بدأت بالدوران جئنا إلى لندن وأخذنا جناحاً في فندق كلاريدج وتهيأنا لاستقبال الخيالة كما تقول الكتب القديمة.

كان أول الواصلين هو السيد آندرو ليبنكوت. كان رجلاً كهلاً جافاً ودقيقاً في مظهره، وكان طويلاً نحيلاً ذا خلق مهذب مجامل. ورغم أنه كان من أهل بوسطن، إلاّ أنني ما كنتُ لأخمن من صوته أنه أمريكي. وبعد ترتيب الأمر بالهاتف جاء لزيارتنا في جناحنا عند الساعة

الثانية عشرة. وكان بوسعي أن أرى أن إيلي مرتبكة، ولو أنها أخفت ذلك بشكل ممتاز.

قبّل السيد ليبنكوت إيلي ومدّ إليّ يداً وابتسامة عذبة، ثم قال: حسناً يا عزيزتي إيلي، إنك تبدين في أحسن حال. يمكنني القول إنك كوردة تفتحت.

- كيف حالك يا عم آندرو؟ كيف جئت؟ بالطائرة؟

- لا، بل عبرتُ المحيط برحلة رائعة على متن السفينة كوين ماري. وهل هذا زوجك؟

- هذا مايك، نعم.

وضعتُ كل طاقتي، أو هذا ما ظننتُه، وقلت: "كيف حالك يا سيدي؟". ثم سألتُه إن كان يود شرب شيء، الأمر الذي اعتذر عنه بعذوبة.

جلس على كرسي مستقيم المسند ذي ذراعين مُذهّبين ونقّل نظراته بيننا وهو ما زال يبتسم، ثم قال: حسناً، لقد كنتما -أيها الشابان- تثيران صدمتنا. الأمر كله رومانسي جداً، أليس كذلك؟

قالت إيلي: أنا آسفة. إنني آسفة فعلاً.

قال السيد ليبنكوت بشيء من الجفاء: أحقاً؟

- لقد رأيتُ أن هذه أفضل طريقة.

- لا أوافقك الرأي تماماً في هذه النقطة يا عزيزتي.

– يا عم آندرو، أنت تعرف –تمام المعرفة– بأنني لو أقدمتُ على ذلك بأية طريقة أخرى لحدثت ضجة مخيفة جداً.

– ولماذا تحدث مثل هذه الضجة؟

قالت: "أنت تعرف كيف كانوا سيتصرفون". واستدركت بشيء من الاتهام: "وحتى أنت أيضاً"، ثم أضافت: لقد تلقيت رسالتين من كورا، واحدة بالأمس وواحدة صباح اليوم.

– يجب أن تُسقطي من حسابك قدراً معيناً من الانفعال يا عزيزتي؛ فهو طبيعي تماماً في مثل هذه الظروف، ألا تظنين ذلك؟

– إن مَن أتزوجه وكيف وأين هي كلها أمور تخصني وحدي.

– قد تظنين ذلك، ولكنك ستجدين أن نساء أية عائلة نادراً ما يتفقن مع هذا الرأي.

– عجيب، لقد وفّرتُ على الجميع الكثير من المتاعب.

– يمكنك التعبير عن الأمر بهذه الطريقة.

– ولكن ذلك صحيح، أليس كذلك؟

– ولكنك مارستِ قدراً كبيراً من الخداع، وساعَدَتْك في ذلك فتاة يُفترض أن تكون أحرص من أن تفعل ذلك.

احمرّ وجه إيلي وقالت: أتعني غريتا؟ إنها لم تفعل سوى ما طلبتُ منها فعله. هل هم غاضبون كثيراً منها؟

- هذا طبيعي. فلا هي ولا أنت يمكن أن تتوقعا غير ذلك، أليس كذلك؟ تذكري أنها كانت في موضع المؤتمن.

- لقد بلغتُ رشدي، وأستطيع فعل ما أريد.

- أنا أتكلم عن الفترة التي سبقت بلوغك سن الرشد؛ فقد بدأ الخداع وقتها، أليس كذلك؟

تدخلتُ قائلاً: يجب أن لا تلوم إيلي يا سيدي، فأنا -أولاً- لم أكن أعلم بما كان يجري، وبما أن كل أقاربها موجودون في بلد آخر فلم يكن من السهل عليّ الاتصال بهم.

قال السيد ليبنكوت: أنا أدرك تماماً أن غريتا أرسلت بالبريد رسائلِ معينة وأعطت معلومات معينة للسيدة فان ستايفسنت ولي أنا كما طلبتْ منها إيلي أن تفعل، ولعلي أقول إنها أثبتت براعة فائقة في ذلك. هل قابلتَ غريتا أندرسن يا مايكل؟ أأستطيع مناداتك باسم مايكل طالما أنك زوج إيلي؟

- بالطبع، سمِّني مايك. لا، لم أقابل الآنسة أندرسن.

- أحقاً؟! يبدو لي ذلك مدهشاً.

ثم نظر إليّ نظرة طويلة متأملة وقال: كان من شأني أن أظن أنها كانت حاضرة لزواجكما.

قالت إيلي: "لا، لم تكن غريتا هناك". ثم رمتني بنظرة تأنيب فتململتُ بعدم ارتياح.

كانت عينا السيد ليبنكوت ما زالتا مركزتين عليّ بتأمل، وقد زاد ذلك من عدم ارتياحي. بدا أنه على وشك قول شيء آخر، ثم غيّر رأيه. وبعد لحظات قال: أخشى أنه سيتعين عليكما أنتما الاثنين -إيلي ومايكل- أن تتحملا قدراً معيناً من التأنيب والنقد من عائلة إيلي.

قالت إيلي: أحسب أنهم سينهالون عليّ بقبضات أيديهم.

- هذا محتمل جداً. لقد حاولتُ تمهيد الطريق.

قالت إيلي وهي تبتسم له: أأنت في جانبنا يا عم آندرو؟

- لا يكاد ينبغي لك أن تطلبي من محام عاقل أن يذهب إلى هذا المدى. لقد تعلمت أن من الحكمة في هذه الحياة أن يتقبل المرء ما هو أمر واقع. لقد أحببتما بعضكما البعض وتزوجتما، وقمتما -كما فهمتُ منك يا إيلي- بشراء قطعة أرض في جنوب إنكلترا وبدأتما ببناء بيت عليها بالفعل. أتنوين العيش في هذا البلد إذن؟

قلتُ وفي صوتي أثر من غضب: نريد أن نجعل وطننا هنا، نعم. هل لديك اعتراض على ذلك؟ إن إيلي متزوجة بي، وهي مواطنة إنكليزية الآن. فلماذا لا تعيش في إنكلترا إذن؟

- لا مانع على الإطلاق، والحقيقة أنه ما من سبب يمنع فينيلا من العيش في أي بلد تختاره، أو في أن يكون لها أملاك في أكثر من بلد. تذكري يا إيلي أن البيت الموجود في ناساو هو بيتك.

- كنت أظن أنه لكورا؛ لقد تصرفت دوماً وكأنه بيتها.

- ولكن حقوق الملكية الفعلية منقولة إليك. وأنت تملكين أيضاً البيت الموجود في لونغ أيلاند، كما أنك مالكة للكثير من الأراضي التي تحتوي على النفط في الغرب الأمريكي.

كان صوته ودوداً عذباً، ولكن انتابني شعور بأن الكلمات كانت موجهة إليّ بطريقة غريبة ما. أكانت هذه فكرته عن محاولة دق إسفين بيني وبين إيلي بالإيحاء الماكر؟ لم أكن واثقاً من ذلك. لم يبدُ معقولاً إصراره على تكرار حقيقة محرجة أمام رجل بأن زوجته تمتلك عقارات وأملاكاً في كل أنحاء العالم وأنها غنية إلى حد أسطوري. ولئن كان لي أن أتوقع منه شيئاً لتوقعتُ أن يحاول التقليل من ممتلكات إيلي وأملاكها وغير ذلك. فلو كنتُ صائد ثروات كما يبدو واضحاً أنه يحسبني، فقد كان من شأن كلامه هذا أن يصب في مصلحتي. ولكني أدركت فعلاً أن السيد لبينكوت كان رجلاً داهية، ومن الصعب في أي وقت أن يعرف المرء ما الذي يريد بكلامه، وما الذي يخفيه في عقله خلف أسلوبه الهادئ العذب. أكان يحاول -بطريقته الخاصة- أن يجعلني أشعر بعدم الارتياح، أن يجعلني أشعر أنني سوف يُحكمُ عليّ علناً بأنني صائد ثروات؟

قال لإيلي: لقد أحضرتُ معي قدراً من الأوراق القانونية التي يجب أن تراجعيها معي يا إيلي، وسأحتاج لتوقيعك على الكثير منها.

- نعم، بالطبع يا عم آندرو. في أي وقت تشاء.

- كما تقولين، في أي وقت. ليس في الأمر عجلة؛ فلديّ أعمال أخرى في لندن وسأمكث هنا قرابة عشرة أيام.

وفكرتُ: عشرة أيام... هذا وقت طويل، وتمنيت قليلاً لو أن السيد ليبنكوت لم يكن باقياً لعشرة أيام. ومع ذلك فقد بدا ودوداً تماماً معي، ويمكن القول إنه أشار إلى أنه ما زال يحتفظ برأيه في بعض النقاط، ولكنني تساءلتُ -في تلك اللحظة- إن كان حقاً عدوي. ولئن كان كذلك فإنهه ليس بالرجل الذي يُظهر أوراقه.

مضى قائلاً: حسناً، الآن وقد التقينا جميعاً واتفقنا فيما يخص المستقبل (إن جاز لي قول ذلك)، فإني أود إجراء مقابلة قصيرة مع زوجك هذا.

قالت إيلي: يمكنك أن تتحدث معنا كلينا.

كانت مستعدة بكامل السلاح، فوضعتُ يدي فوق ذراعها وقلت: "لا تغضبي هكذا يا غاليتي، فلستِ دجاجة تحمي فرخها". ثم دفعتُها برفق إلى الباب الذي يفصل غرفة الجلوس عن غرفة النوم وقلت: يريد العم آندرو أن يقيس حجمي الحقيقي، وهذا من حقوقه بالتأكيد.

دفعتها برفق عبر البابين اللذين يفصلان الغرفتين، ثم أغلقتُهما كليهما وعدتُ إلى الغرفة. كانت غرفة جلوس ضخمة رائعة، وعدتُ وجلستُ على كرسي مقابل السيد ليبنكوت قائلاً: حسناً، أطلق النار.

- شكراً لك يا مايكل. أود -بدايةً- أن أؤكد لك أنني لستُ عدواً لك بأية طريقة كما قد يخطر في بالك.

- حسناً، يسعدني سماع ذلك.

ولكن لم يبدُ من صوتي أنني واثق من هذا الأمر. قال السيد

ليبنكوت: دعني أتكلم بصراحة، بصراحة أكثر مما أستطيع الحديث أمام تلك الطفلة العزيزة التي أقوم بالوصاية عليها وأحبها حباً جماً. لعلك لم تُقدِّر ذلك بشكل كامل يا مايكل، ولكن إيلي فتاة عذبة محبوبة بشكلٍ غير عادي أبداً.

- لا تقلق؛ إنني أحبها بكل تأكيد.

قال السيد ليبنكوت بأسلوبه الجاف: هذا ليس الشيء نفسه أبداً، وإني لأتمنى أن تستطيع -بنفس مقدار حبك لها- أن تُقدِّر كم هي عزيزة جداً، وكم هي -من بعض الوجوه- فتاة يسهل اختراقها وإيذاؤها.

- سأحاول. ولا أظنني سأحتاج إلى محاولات شديدة الصعوبة، فإيلي قمة في كل شيء أصلاً.

- سأمضي قدماً إذن فيما كنتُ أعتزم قوله. سأضع أوراقي على الطاولة بمنتهى الصراحة، فأنت لست من ذلك النوع من الشباب الذي كنتُ أتمنى أن تتزوج به إيلي. كنتُ أتمنى لها -كما كانت أسرتها تتمنى لها- أن تتزوج شخصاً من بيئتها نفسها، ومن مجموعتها نفسها...

- أي رجلاً غنياً بكلمة أخرى.

- كلا، ليس هذا فحسب. أظن أن تماثل الخلفية الاجتماعية مسألة مرغوبة كأساس للزواج. وأنا لا أشير إلى موقف التملق للمكانة الاجتماعية؛ فقد بدأ جدُّ إيلي (هيرمان غوتمان) حياته أساساً كعامل مرفأ، وقد انتهى كواحد من أغنى الرجال في أمريكا.

- وما أدراك لعلي أفعل الشيء ذاته. يمكن أن أنتهي واحداً من

أغنى الرجال في إنكلترا.

- كل شيء ممكن. هل لديك طموحات في هذا الاتجاه؟

- إنه ليس المال فقط، بل أحب أن... أحب أن أصل إلى مكانة ما وأفعل الأشياء و...

ترددتُ ثم توقفت.

- أنقول -إذن- إن لديك طموحاتك؟ حسناً، أنا واثق أن ذلك أمر جيد جداً.

- إنني أبدأ باحتمالات ضعيفة، أبدأ من الصفر. فأنا نكرة لا يؤبه لي، ولن أتظاهر بغير ذلك.

أومأ برأسه موافقاً وقال: هذا قول شديد الصراحة والبلاغة، إنني أُقدِّر ذلك. والآن يا مايكل، أنا لستُ بقريب لإيلي، ولكني عملتُ مشرفاً ووصياً على شؤونها، وقد كلفني بذلك جدها. إنني أدير ثروتها واستثماراتها، ولذلك فإنني أشعر بمسؤولية معينة عن ذلك كله. ولذلك أيضاً أريد معرفة كل ما يمكنني معرفته عن الزوج الذي اختارته.

- حسناً، أحسب أن بوسعك أن تتحرى عني وتجد كل ما تريده بكل سهولة.

- هذا صحيح، من شأن ذلك أن يُشكل إحدى طرق القيام بذلك، وهو إجراء احتياطي حكيم، ولكنني أحب معرفة كل ما يمكنني عنك من فمك أنت. أحب أن أسمع قصتك أنت عما كانت عليه

حياتك حتى الآن.

لم أرتَح لذلك بالطبع، وأحسب أنه كان يعلم أنني لن أرتاح لذلك؛ فما كان لشخص بمثل وضعي أن يرتاح له. إن تقديم المرء لنفسه على أفضل صورة إنما هو طبيعة ثانية لدى الإنسان. وكنتُ قد جعلتُ ذلك دأبي في المدرسة وبعدها، فتبجحت قليلاً، وقلتُ بضعة أشياء، وكنتُ في ذلك كله أبالغ في الحقيقة قليلاً. ولم أكن أخجل من ذلك، بل رأيتُه أمراً طبيعياً. وأحسب أن هذا من الأمور التي يضطر المرء للقيام بها إذا أراد التقدم، أن تجعل لنفسك قضية وجيهة ناجحة. إن الناس يضعونك حيث تضع نفسك.

كنتُ مستعداً تماماً للتبجح قليلاً أمام من قابلتهم من الرجال، أو لتلفيق قضية جيدة أمام رب عمل مُحتمَل، فلدى المرء -في نهاية الأمر- جانب جيد وجانب سيء في نفسه، وليس من الفائدة إظهار الجانب السيء والتشبث به. نعم، لقد فعلت لنفسي دوماً أفضل ما أستطيع في وصف أنشطتي حتى الآن، ولكنني لم أتخيل نفسي وأنا أقوم بمثل هذا الأمر مع السيد ليبنكوت. لقد استبعد أساساً بازدراء فكرة القيام بالتحري عني بشكل سري، ولكنني لم أكن واثقاً أبداً أنه لن يقدم على ذلك رغم كل شيء. ولذلك أعطيته الحقيقة دون رتوش كما يقال.

البدايات البائسة القذرة، وحقيقة أن والدي كان سكيراً، ولكن كانت لي أم جيدة، وأنها عملت كالإماء لتساعد في تعليمي. ولم أخفِ حقيقة أنني كنتُ قُلّباً لا أستقر على شيء، وأنني انتقلت من مهنة لأخرى. وكان السيد ليبنكوت مصغياً جيداً، يشجع على الكلام إذا

صح التعبير. ومع ذلك كنتُ أدرك بين الحين والآخر مدى فطنته، من مجرد أسئلة صغيرة كان يلقيها عرضاً أو تعليقات كان من شأني أن أندفع دون انتباه لإثباتها أو لنفيها.

نعم، كان لدي شعور بأن من الأفضل أن أكون يقظاً محترساً، وبعد عشر دقائق أسعدني تماماً أن أراه يستند إلى ظهر كرسيه، وبدا أن التحقيق قد انتهى، إن كان بوسع المرء أن يسميه تحقيقاً، لأنه كان أبعد ما يكون عن ذلك.

قال: إن لك موقفاً مغامراً من الحياة يا سيد روجرز... يا مايكل. وهذا ليس بالأمر السيء. أخبرني بالمزيد عن هذا البيت الذي تبنيانه أنت وإيلي.

- إنه لا يبعد كثيراً عن بلدة اسمها ماركت تشادويل.

- نعم، أعرف تماماً أين هو، والحقيقة أنني ذهبتُ لرؤيته... البارحة تحديداً.

فاجأني هذا قليلاً؛ فقد بدا من ذلك أنه رجل ملتوٍ يمكنه أن يصل إلى أمور أكثر مما قد يتصور المرء. قلتُ مدافعاً: إنه موقع جميل، والبيت الذي نبنيه سيكون بيتاً جميلاً. والمهندس رجل اسمه سانتونيكس. رودلف سانتونيكس. لا أدري إن كنتَ قد سمعتَ به، ولكن...

- نعم، إنه اسم مشهور تماماً بين المهندسين المعماريين.

- أظنه قد قام ببعض الأعمال في أمريكا.

– نعم، إنه مهندس معماري ذو موهبة ومستقبل عظيمين، ولكن أحسب أن صحته ليست جيدة مع الأسف.

– هو يظن أنه رجل يحتضر، ولكني لا أصدق ذلك. أظنه سيشفى ويستعيد صحته... إن من شأن الأطباء أن يقولوا أي شيء!

– أرجو أن يكون لتفاؤلك ما يبرره. أنت متفائل.

– نعم، إنني متفائل فيما يخص سانتونيكس.

– أرجو أن يتحقق كل ما تتمناه. يمكنني القول إنني أرى أنكما -أنت وإيلي- قد قمتما بعملية شراء جيدة جداً في قطعة الأرض التي اشتريتماها.

رأيت أن من لطف هذا الرجل أن يستخدم ضمير المثنى بقوله «أنكما»، فهذا لا يشكل تذكيراً دائماً لي بأن إيلي هي التي اشترت الأرض بمفردها.

قال: لقد تشاورت مع السيد كرافورد...

– كرافورد؟

قطبتُ جبيني قليلاً، فقال: السيد كراوفورد، الشريك في مكتب رايس آند كراوفورد، وهو مكتب محاماة إنكليزي. وكان السيد كراوفورد هو -من بين محامي المكتب- الذي أتم عملية الشراء. وقد فهمتُ أن هذه الأرض قد اشتُريت بسعر رخيص، ويمكنني القول إنني تعجبتُ قليلاً من ذلك؛ فأنا أعرف الأسعار الحالية للأراضي في هذا

البلد، وقد شعرتُ حقاً بحيرة في تفسير ذلك، وأحسب أن السيد كراوفورد نفسه قد دُهش إذ حصل عليها بمثل هذا السعر الزهيد. وقد تساءلتُ إن كنتَ تعرف لماذا بيعت هذه الأرض بمثل هذه القيمة المتدنية. إن السيد كراوفورد لم يقدم أي رأي حول ذلك، والحقيقة أنه بدا مُحرَجاً قليلاً عندما طرحتُ عليه هذا السؤال.

- آه، حسناً، لقد صُبَّتْ لعنة عليها!

- عفواً يا مايكل، ماذا قلت؟

- لعنة يا سيدي. تحذير الغجر، وما شابه ذلك. إنها معروفة محلياً باسم فدان الغجري.

- آه. ألها قصة؟

- نعم، وهي تبدو قصة مرتبكة بعض الشيء، ولا أدري كم منها صحيح وكم منها من تأليف الناس. لقد وقعت هناك جريمة قتل أو ما شابه ذلك منذ أمد بعيد، وهي تتعلق برجل وزوجته ورجل آخر. وتقول القصة إن الزوج قد أطلق النار على الاثنين الآخرين ثم على نفسه. هذا -على الأقل- هو الحكم الذي صدر في تفسير القضية، ولكن قصصاً مختلفة غيرها تدور في المنطقة. لا أحسب أن أحداً يعرف حقيقة ما حدث؛ فقد كان ذلك منذ زمن بعيد جداً، وقد تغير مالكو البيت أربع مرات أو خمساً منذ ذلك الحين، ولكن أحداً منهم لم يبقَ هناك طويلاً.

قال السيد ليبنكوت بشيء من التقدير: آه، نعم، مثال نموذجي من الفولكلور الإنكليزي.

ثم نظر إليّ بفضول وقال: وأنت وإيلي لستما خائفين من اللعنة؟

قال ذلك عرضاً وبابتسامة خفيفة، فقلت: كلا بالطبع؛ فلا إيلي ولا أنا نؤمن بمثل هذا الهراء، وقد كان ذلك -عملياً- من حسن حظنا؛ فبسبب تلك القصص حصلنا على الأرض بثمن زهيد.

عندما قلتُ ذلك خطرت لي فكرة مفاجئة؛ فقد كان ذلك حظاً حسناً بمعنى واحد من المعاني، ولكني فكرتُ أن القضية ما كانت لتهم إيلي كثيراً -وهي على ما هي عليه من الثراء- سواء اشترت بثمن زهيد أم بأعلى ثمن. ثم فكرتُ بأنني كنتُ مخطئاً في ذلك؛ فقد كان لها -في نهاية الأمر- جدٌّ صعد من عامل ميناء إلى مليونير، وأي امرئ من هذا النوع من شأنه أن يتمنى دوماً أن يشتري رخيصاً ويبيع غالياً.

قال السيد لينكوت: "حسناً، أنا لا أؤمن بالخرافات، والمنظر من أرضكما هناك منظر رائع تماماً". ثم تردد قليلاً وقال: آمل فقط أن لا تسمع إيلي كثيراً من تلك القصص المنتشرة هناك عندما تنتقلان إلى بيتكما للعيش فيه.

- سأخفي عنها كل ما يمكنني إخفاؤه. لا أحسب أن أحداً سيقول لها شيئاً.

- إن الناس في قرى الريف مولعون جداً بتكرار قصص من هذا النوع، وعليك أن تتذكر أن إيلي ليست قوية مثلك يا مايكل. يمكن التأثير عليها بسهولة... في بعض المسائل فقط. الأمر الذي يُذكِّرني...

ثم توقف دون المضي في قول ما كان يعتزم قوله. نقر على

الطاولة بإصبعه وقال: سوف أتحدث معك الآن بأمر لا يخلو من بعض الصعوبة. لقد قلتَ قبل قليل إنك لم تلتقِ بغريتا أندرسن تلك.

– نعم، كما قلتُ، لم ألتق بها بعد.

– غريب... أمر غريب جداً.

– ما القصد؟

ثم نظرتُ إليه متسائلاً فقال ببطء: كنتُ أحسب أنك قد التقيتَ بها بالتأكيد. كم تعرف عنها؟

– أعرف أنها كانت مع إيلي منذ وقت طويل.

– لقد كانت مع إيلي منذ أن كانت إيلي في السابعة عشرة، وقد احتلّتْ موقعاً ذا احترام وثقة. جاءت أولاً إلى الولايات المتحدة بصفة سكرتيرة ومرافقة. أقرب إلى المشرفة على إيلي عند سفر زوجة أبيها، وهو أمر يمكنني القول إنه كان كثير الحدوث.

تكلم بشكل جاف تماماً وهو يقول ذلك، ثم أضاف: وقد فهمتُ أنها فتاة كريمة المحتد، وقد زكّاها مُستخدمون سابقون ممتازون. وهي نصف سويدية ونصف ألمانية. وكان من الطبيعي أن أصبحت إيلي متعلقة بها كثيراً.

– هذا ما فهمتُه.

– وبطريقة ما، أحسب أن إيلي كانت متعلقة بها أكثر من اللازم. هل تمانع في قولي هذا.

– لا. ولماذا أمانع؟ الحقيقة أنني... أنني فكرتُ بهذا مع نفسي مرة أو مرتين. قالت غريتا، وفعلت غريتا، وقد... وقد.. أنا أعرف أنْ لا حق لي في الاعتراض، ولكنني سئمتُ من ذلك أحياناً.

– ومع ذلك لم تعبّر إيلي عن رغبة في أن تجمعك بغريتا؟

– من الصعب قليلاً شرح الأمر. ولكني أظن... نعم، أظن أنها اقترحت ذلك بشكل رقيق مرة أو مرتين، ولكننا كنا منشغلين بلقائنا. وفوق ذلك... آه، أحسب أنني لم أشأ حقاً الالتقاء بغريتا؛ لم أشأ أن أتقاسم إيلي مع أيٍ كان.

– فهمت، فهمت. ألم تقترح إيلي أن تحضر غريتا زواجكما؟

– لقد اقترحت ذلك.

– ولكن... أنت لم ترغب بمجيئها، لماذا؟

– لا أدري... لا أدري حقاً. شعرتُ فقط أن غريتا هذه، هذه الفتاة أو المرأة التي لم أقابلها، كانت دوماً تتدخل في كل شيء. ترتب حياة إيلي نيابة عنها. ترسلِ البطاقات البريدية والرسائل وتملأُ الفراغ مكان إيلي مخترعة برنامجاً مفصلاً تمرره على العائلة. شعرتُ أن إيلي عالة على غريتا بطريقة ما، وأنها تركت غريتا تقودها، وأنها أرادت القيام بكل ما تريده منها غريتا. إنني... آه، أنا آسف يا سيد ليبنكوت، ربما ما كان عليّ أن أقول كل هذه الأشياء، فلتعتبر أنني كنتُ مجرد غيور فقط. على أية حال، فقدت أعصابي وقلتُ إنني لا أريد غريتا في العرس، وإن العرس هو عرسنا، وإنه شأننا فقط وليس شأن أحد آخر.

وهكذا ذهبنا إلى مكتب التسجيل، وكان أحد موظفي المكتب وكاتبة الطابعة فيه هما الشاهدين. ولعله كان لؤماً مني أن أرفض حضور غريتا، ولكني أردتُ أن تكون إيلي لي وحدي.

- فهمت. نعم، فهمت، وأحسبك كنتَ عاقلاً بذلك، إن سمحتَ لي بهذا القول.

قلتُ له بفطنة: أنت لا تحب غريتا أيضاً؟

- أنت لا تكاد تستطيع استخدام كلمة «أيضاً» يا مايكل إن كنتَ لم تقابلها -بعدُ- مجرد مقابلة.

- نعم، أعرف، ولكنك عندما تسمع الكثير عن شخص فإنك تستطيع تكوين فكرة عنه أو حُكم عليه. حسناً، سمِّها غيرة مجردة. لماذا لا تحب أنت غريتا؟

- ليس في موقفي هوى أو تحيز، أما أنت فإنك زوج إيلي يا مايكل، وأنا أضع سعادة إيلي ضمن أهم اهتماماتي. لا أظن أن التأثير الذي تمارسه غريتا على إيلي تأثير مرغوب به كثيراً. إنها تأخذ الكثير جداً على عاتقها.

سألتُه: أتظن أنها ستحاول إثارة المتاعب بيننا؟

- أظن أنه ليس من حقي أن أقول شيئاً كهذا.

جلس ينظر إليّ بحذر ويرمش بجفنيه كسلحفاة عجوز ملأتها التجاعيد، ولم أدرِ تماماً ما أقول بعد ذلك. تحدث هو بداية وهو يختار

كلماته بشيء من العناية: ألم يُطرح اقتراح -إذن- بأن غريتا أندرسن يمكن أن تقيم معكما؟

- لن تقيم ما دمتُ أستطيع منع ذلك.

- آه، هذا إذن ما تشعر به؟ لقد تمت إثارة الفكرة إذن.

- لقد قالت إيلي فعلاً شيئاً من هذا القبيل، ولكننا متزوجان حديثاً يا سيد ليينكوت، ونريد بيتنا... بيتنا الجديد لأنفسنا. سوف تأتي طبعاً وتقيم أحياناً بقصد الزيارة فيما أظن؛ فهذا أمر طبيعي.

- سيكون هذا أمراً طبيعياً كما تقول. ولكن لعلك تدرك أن غريتا ستكون في وضع صعب بعض الشيء فيما يخص حصولها على وظيفة أخرى. أعني أن المسألة ليست مسألة رأي إيلي بها، بل مسألة رأي وشعور الناس الذين وظفوها ووضعوا ثقتهم فيها.

- أتعني أنك أو أحداً من أقارب إيلي لن تزكّوها لوظيفة أخرى من هذا النوع؟

- يصعب أن يتوقع منهم المرء تزكيتها إلاّ بقدر ما يفي بالمتطلبات القانونية المحضة.

- وتظن أنها سوف ترغب في المجيء إلى إنكلترا والعيش على حساب إيلي.

- لا أريد أن أجعلك تتحامل عليها كثيراً، فهذا لا يعدو أن يكون في عقلي فقط في نهاية الأمر. إنني أكره بعض الأشياء التي فعلتْها

والطريقة التي فعلتْها بها، ولكن أظن أن إيلي (ذات القلب الطيب جداً) سوف تنزعج لأنها تسببت في عرقلة فرص غريتا المستقبلية بأكثر من طريقة. وربما أصرت -بدافع عفوي مفاجئ- على أن تُحضرها لتعيش معكما.

قلت بتمهل: لا أحسب أن إيلي ستصرّ.

ومع ذلك فقد بدا عليّ أنني قلق، ورأيتُ أن لينكوت لاحظ ذلك. ثم قلت: ولكن ألا يمكننا... أعني ألا يمكن إيلي أن تحيلها على التقاعد براتب؟

- ينبغي أن لا نعبّر عن الأمر بهذه الطريقة؛ فإحالة أي امرئ على التقاعد توحي بكبر السن، وغريتا فتاة شابة، ويمكنني القول إنها شابة بالغة الحسن.

ثم أضاف بصوت مُستهجن مُنكر: الحقيقة أنها جميلة جداً، وهي جذابة في أعين الرجال أيضاً.

- حسناً، ربما تزوجتْ. إن كانت بكل هذا الجمال فلماذا لم تتزوج حتى الآن؟

- لقد انجذب إليها بعض الأشخاص فيما أظن، ولكنها لم تفكر فيهم. ومع ذلك فإنني أرى أن ملاحظتك صحيحة جداً، وأحسب أنها يمكن أن تُنفَّذَ بطريقة لا تجرح مشاعر أحد. فقد يبدو أمراً طبيعياً تماماً من طرف إيلي -بعد أن بلغت سن الرشد وتزوجت بمساعدة مساعي غريتا الخيرة- أن تهب لها مبلغاً من المال في نوبة عرفان بالجميل.

جعل السيد ليبنكوت الكلمتين الأخيرتين تبدوان كعصير الليمون شديد الحموضة. قلتُ بمرح: حسناً إذن، لا بأس بذلك.

- أرى -مرة أخرى- أنك متفائل. دعنا نأمل بأن تقبل غريتا بما يُقدّم لها.

- ولماذا لا تقبل؟ ستكون مجنونة إن لم تقبل.

- لا أدري. أحسب أنه سيكون من الغريب أن لا تقبل، وسوف تبقيان على علاقات صداقة بالطبع.

- أترى... ما هو رأيك؟

قال: "إنني أود أن أرى نهاية لتأثيرها على إيلي". ثم نهض وقال: أرجو أنك ستساعدني وتفعل كل ما بوسعك لتقريب هذا الهدف، أليس كذلك؟

- تأكد من ذلك تماماً. إن آخر ما أريده هو أن تبقى غريتا لاصقة بنا طوال الوقت.

- قد تُغيِّر رأيكَ عندما تراها.

- لا أظن ذلك. إنني لا أحب النساء القائمات بأدوار الإدارة، بالغاً ما بلغت كفاءتهن أو حتى جمالهن.

شكراً لك يا مايكل على الإصغاء إليّ بكل ذلك الصبر. أرجو أن تمنحاني شرف تناول العشاء معي أنتما الاثنان. ما رأيك في مساء الثلاثاء القادم؟ ربما كانت كورا فان ستايفسنت وفرانك بارتُن في

لندن بحلول ذلك الوقت.

- وأحسب أن عليّ أن أقابلهم، أليس كذلك؟

- نعم، سيكون ذلك أمراً لا مفر منه.

ابتسم لي، وكانت ابتسامته -هذه المرة- أكثر صدقاً من ذي قبل. ثم قال: لا يجب أن تهتم كثيراً. أتوقع أن تكون كورا وقحة جداً معك، أما فرانك فلن يعدو أن يكون قليل اللباقة، وروبن لن يكون موجوداً في الوقت الحاضر.

لم أكن أعرف من هو روبن... لعله كان قريباً آخر لإيلي. وذهبتُ إلى البابين اللذين يفصلان الغرفتين وفتحتهما قائلاً: هيا يا إيلي، لقد انتهت جلسة الشواء.

عادت إلى الغرفة ونقلت نظرها بسرعة من ليبنكوت إليّ، ثم قالت: يا عزيزي العم آندرو، أرى أنك كنتَ لطيفاً مع مايكل.

- حسناً يا عزيزتي، لو لم أكن لطيفاً مع زوجك لما كانت لك بي حاجة في المستقبل، أليس كذلك؟ إنني أحتفظ بحقي في تقديم قليل من النصيحة بين الحين والآخر.

قالت إيلي: حسناً، وسوف نصغي لك بصبر.

- والآن يا عزيزتي، أود لو أتبادل كلمة معك أنت إذا أمكن.

قلتُ وأنا أخرج من الغرفة: جاء دوري لأصبح النشاز الذي سيخرج.

أغلقت ظاهرياً البابين الواقعين بين الغرفتين، ولكنني عدتُ وفتحت الباب الداخلي بعد أن دخلت. لم أكن قد تربيت بشكل جيد كما تربت إيلي، ولذلك شعرتُ بشيء من اللهفة على اكتشاف المدى الذي يمكن أن يظهر فيه السيد ليبنكوت ذا وجهين. ولكن لم أسمع -عملياً- ما كنتُ بحاجة لسماعه، فقد وجّه لإيلي بعض كلمات النصيحة، وقال لها إنها يجب أن تدرك أنني قد أجد صعوبة في كوني رجلاً فقيراً تزوج بامرأة غنية. ثم مضى يستقصي -بحذر- موقفها من إعطاء مبلغ لغريتا. وقد وافقتْ على ذلك بلهفة وقالت إنها كانت ستطلب منه ذلك بنفسها. كما اقترح أيضاً أن تخصص مبلغاً إضافياً لكورا فان ستايفسنت قائلاً: لا توجد حاجة أبداً لأن تفعلي ذلك؛ فلديها دخل ممتاز جداً بصيغة نفقات من أزواجها العديدين، وهي تتلقى دخلاً كما تعلمين من صندوق الائتمان الذي خلّفه جدك، ولو أنه ليس دخلاً كبيراً جداً.

- ولكنك ترى أن عليّ أن أعطيها المزيد مع ذلك؟

- لا يوجد التزام قانوني أو أدبي يُلزمك بذلك. ما أظنه هو أنك ستجدينها أقل إثارة للمشكلات وأقل مكراً إذا ما فعلتِ ذلك، وسأجعل المبلغ بصيغة دخل إضافي تستطيعين فسخه في أي وقت. فإذا ما وجدتِ أنها تنشر الشائعات الحاقدة عن مايكل أو عنك أو عن حياتكما معاً فإن معرفتها بأنك تستطيعين إلغاء ذلك الدخل سيجعل لسانها يتخلى عن تلك الأشواك السامة التي تُحسنُ طريقةَ زرعها تماماً.

قالت: "لقد كرهتني كورا دوماً... لقد عرفتُ ذلك". ثم أضافت بشيء من الخجل: لقد أعجبك مايك، أليس كذلك يا عم آندرو؟

- أظنه شاباً جذاباً جداً، ويمكنني أن أفهم تماماً كيف تطور الأمر وتزوجتِ به.

أحسب أن ذلك كان من أجود ما يمكنني توقعه. لم أكن حقاً من النوع الذي يروق له، وكنتُ أعرف ذلك. عدت فأغلقتُ الباب بهدوء، وبعد لحظات جاءت إيلي لإحضاري.

كنا نحن الاثنين واقفين لوداع السيد ليبنكوت عندما سمعنا طرقاً على الباب، وجاء عامل الفندق حاملاً برقية. أخذتها إيلي وفتحتها، ثم أطلقت صيحة صغيرة من الفرح المندهش وقالت: إنها غريتا. ستصل إلى لندن الليلة، وستأتي لرؤيتنا غداً. ما أروع ذلك!

ثم نظرت إلينا معاً وقالت: أليس كذلك؟

رأت وجهين عابسين وسمعت صوتين مهذبين يقول أحدهما: "نعم، فعلاً يا عزيزتي"، ويقول الآخر: "بالطبع".

* * *

- ١١ -

خرجتُ صباح اليوم التالي أتسوق خارج الفندق، وعدتُ إليه متأخراً قليلاً عما كنتُ أتوقعه لأجد إيلي جالسة في البهو المركزي للفندق وقد جلسَتْ مقابلها شابة طويلة شقراء الشعر... إنها غريتا. وكانتا منخرطتين في حديث لا يتوقف.

إنني لا أتقن أبداً وصف الناس، ولكني سأحاول وصف غريتا. وبداية لا يمكن للمرء أن ينكر أنها كانت -كما قالت إيلي- جميلة جداً، كما كانت -كما اعترف السيد ليبنكوت بتردد- وسيمة جداً. وهذان الوصفان ليسا الشيء ذاته تماماً، فإذا ما قلت إن امرأة ما وسيمة فهذا لا يعني أنك معجب بها شخصياً. وقد فهمتُ أن السيد ليبنكوت لم يكن مُعجباً بغريتا، ومع ذلك فعندما تدخل غريتا إلى بهو فندق أو إلى مطعم فإن رؤوس الرجال تلتفت لتنظر إليها. كانت شقراء بطريقة إسكندنافية، ذات شعر باللون الصافي للذرة الصفراء، وكانت تُسرح شعرها عالياً فوق رأسها حسب الموضة السائدة، وكانت عيناها بلون أزرق صاف ذي بريق، وبدت كما هي حقيقتها، سويدية أو ألمانية شمالية. والحقيقة أنه ما كان ينقصها إلاّ أن تُثبت جناحين حتى يمكنها

أن تذهب إلى حفلة ثياب تنكرية تبدو فيها كواحدة من أولئك الخادمات (في الأسطورة الإسكندنافية) اللاتي يخترن الأبطال الذين سيُذبحون في المعركة. ولنعترف أنها امرأة لا يمكن تجاهلها!

جئتُ إلى حيث كانتا جالستين وانضممتُ إليهما وأنا أحيي الاثنتين بطريقة كنتُ آمل أن تكون طبيعية ودودة، رغم أنني لم أملك إلاّ الشعور بشيء من الحرج. وأنا لستُ بارعاً عادة في تمثيل الأدوار. قالت إيلي على الفور: وأخيراً يا مايك، هذه غريتا.

قلتُ بطريقة لا تخلو من المرح المفتعل وغياب الفرح إنني خمنتُ ذلك. ثم أضفت: أنا سعيد جداً بلقائك أخيراً يا غريتا.

قالت إيلي: كما تعرفُ حق المعرفة، ما كنا لنستطيع الزواج أبداً لولا غريتا.

– ومع ذلك فقد تمكنا من تدبير الأمر بطريقة أو بأخرى.

– ما كنا لنستطيع ذلك لو أن العائلة قد هبطت علينا كطنٍّ من الفحم، بل كان من شأنهم أن يفسدوا الأمر بشكل أو بآخر. أخبريني يا غريتا، أكانوا فظيعين جداً معك؟ لم تكتبي أو تقولي لي شيئاً عن ذلك.

قالت غريتا: أنا أكثر لباقة من أن أكتب ذلك لزوجين سعيدين وهما في شهر عسلهما.

– ولكن هل كانوا غاضبين جداً منك؟

– بالطبع! ماذا تتخيلين؟ ولكن أؤكد لك أنني كنتُ مستعدة لذلك.

– ما الذي قالوه أو فعلوه؟

قالت غريتا بمرح: قالوا كل ما يمكنهم قوله. بدءاً بطردي بالطبع.

– نعم، أحسب أن ذلك كان أمراً حتمياً. ولكن... ولكن ماذا فعلتِ؟ إنهم لا يستطيعون -في نهاية الأمر- أن يرفضوا إعطاءك رسائل تزكية.

– بل يستطيعون طبعاً؛ فقد كنت -من وجهة نظرهم- في موقع ثقة وقد أسأت إليه بشكل معيب، بل واستمتعتُ بالإساءة إليه.

– ولكن ما الذي ستفعلينه الآن؟

– لديّ وظيفة جاهزة ألتحق بها.

– في نيويورك؟

– لا، بل هنا في لندن، سكرتيرةً.

– ولكن هل أنت على ما يرام؟

– يا غاليتي إيلي، كيف لا أكون على ما يرام مع ذلك الشيك الرائع الذي أرسلتِه لي استشرافاً لما سيحصل عندما ينفجر البالون؟

كانت إنكليزيتها جيدة جداً لا يكاد المرء يحس فيها بأية لكنة، مع أنها كانت تستعمل الكثير من التعابير العامية التي لا تأتي أحياناً كما يجب. قالت: لقد تجولتُ قليلاً لرؤية العالم، وثبّتُّ نفسي في

لندن، واشتريتُ كثيراً من الأشياء أيضاً.

قالت إيلي وهي تبتسم متذكرة: أنا ومايك اشترينا أيضاً الكثير من الأشياء.

وكان ذلك صحيحاً؛ إذ كنا قد دلّلنا أنفسنا بمشترياتنا في أوروبا. وكان من الرائع حقاً أن تكون لدينا دولارات نصرفها دون قيود ميزانيات شحيحة. اشترينا من إيطاليا شراشف وأغطية للبيت، كما اشترينا لوحات من إيطاليا ومن باريس أيضاً، ودفعنا أثماناً بدت أسطورية لتلك اللوحات. لقد انفتح أمامي عالم كامل لم أحلم أبداً أن أصادفه.

قالت غريتا: تبدوان سعيدَيْن تماماً كلاكما.

أجابت إيلي: أنت لم تري بيتنا بعد. سيكون رائعاً. سيكون تماماً كما حلمنا بأنه سيكون، أليس كذلك يا مايك؟

قالت غريتا: لقد رأيته. في أول يوم عدتُ فيه إلى إنكلترا استأجرتُ سيارة وذهبتُ إلى هناك.

- وكيف وجدته؟

سألتها أنا نفس السؤال، فقالت غريتا وهي تفكر: "حسناً..."، ثم نقّلت رأسها من جانب إلى آخر.

بدت إيلي شديدة الحزن وفوجئت تماماً، ولكنني لم أُخدع. رأيتُ على الفور أن غريتا كانت تحاول مداعبتنا قليلاً. ولئن كانت فكرة المداعبة هذه تفتقر قليلاً إلى اللطف فإنها لم تكد تستمر وقتاً

يسمح لها بأن تؤثر، فقد انفجرت غريتا ضاحكة ضحكة موسيقية عالية جعلت الناس يلتفتون وينظرون إلينا، ثم قالت: كان يجب أن تري وجهيكما، وخاصة وجهك أنتِ يا إيلي. كان عليّ أن أغيظكما قليلاً. إنه بيت رائع جميل. إن ذلك الرجل عبقري.

قلتُ: نعم، إنه امرؤ خارج عن المألوف. انتظري حتى تريه.

– لقد قابلتُه. كان هناك يوم ذهبت. نعم، إنه رجل غير عادي. ولكن ألا تظنان أنه مخيف قليلاً؟

قلتُ مندهشاً: مخيف؟ بأي معنى؟

قالت: "آه، لا أدري. إنه كما لو كان يخترق المرء بنظره و... ويرى كل ما بداخل المرء. وهذا أمر مربك دوماً". ثم أضافت: إنه يبدو مريضاً.

– إنه مريض، مريض جداً.

– مع الأسف. وما هو مرضه، أهو السل أو ما شابه ذلك؟

– لا، لا أظنه السل. أحسب أن لمرضه علاقة... علاقة بالدم.

– آه، فهمت. يستطيع الأطباء هذه الأيام أن يفعلوا أي شيء تقريباً، ما لم يقتلوك أولاً وهم يحاولون معالجتك! ولكن دعونا لا نفكر بذلك الآن. دعونا نفكر في البيت. متى سينتهي؟

قلتُ: أظنه سينتهي في وقت قريب جداً كما يبدو من شكله. لم

أتخيل أبداً أن من الممكن أن يرتفع بيت بهذه السرعة.

قالت غريتا دون اهتمام: آه، هذا من المال. وجباتُ عمل متناوبة، وأجور سخية وغير ذلك. إنك لا تعرفين -يا إيلي- كم هو حقاً رائع أن تكون لدى المرء كل الأموال التي لديك.

أما أنا فكنتُ أعرف. لقد كنتُ أتعلم، أتعلم الكثير في الأسابيع القليلة الماضية. لقد دخلتُ -نتيجةَ الزواج- إلى عالم مختلف كلياً، ولم يكن بالعالم الذي تخيلتُه من الخارج. فطوال حياتي الماضية حتى زواجي كان أقصى ما أعرفه عن الوفرة والبحبوحة ضربة حظٍ أضاعف بها ما وضعتُه من مال في الرهان. مبلغ من المال يأتيني فأنفقه بأسرع ما يمكن على أكبر وجبة أستطيع العثور عليها. وهو تصرف فظ وبدائي بالطبع، وهي الفظاظة التي تميز طبقتي. أما عالم إيلي فقد كان عالماً مختلفاً. لم يكن كما كان من شأني أن أظنه، بل كان ترفاً فائقاً أكثر فأكثر. لم يكن مجرد حمّامات أكبر وبيوت أضخم وأجهزة كهربائية أكثر ووجبات أدسم وسيارات أسرع. لم يكن مجرد صرف من أجل الصرف ومباهاة أمام أنظار الجميع، بل كان هذا العالم -بدل ذلك- بسيطاً بشكل غريب. ذلك النوع من البساطة التي تأتي عندما تتجاوز نقطةَ الإنفاق لمجرد الإنفاق. فأنت لا ترغب بثلاثة يخوت أو أربع سيارات، ولا تستطيع تناول أكثر من ثلاث وجبات في اليوم، وإذا ما اشتريت لوحة من أرقى اللوحات فإنك لا ترغب بأن تكون في الغرفة الواحدة أكثر من لوحة واحدة من تلك اللوحات. إنه أمر بمثل هذه البساطة. إن كل ما تملكه هو -ببساطة- أفضل ما هو موجود من نوعه، ليس لأنه الأفضل حقاً بالضرورة، ولكن لعدم وجود سبب يدعوك

-إذا ما رغبت بأي شيء معين- إلى عدم امتلاكه. ليس من لحظة تقول فيها: "أخشى أنني لا أستطيع شراء هذا الشيء". وهذا يتسبب أحياناً ببساطة غريبة لم أستطع فهمها. لقد كنا نفكر في لوحة لفنان انطباعي فرنسي، أظن أنه يُدعى سيزان. وبعدها، فيما كنا نمشي في شوارع البندقية، توقفت إيلي لتنظر إلى بعض الرسامين الذين يمارسون رسمهم على الرصيف. كانوا -عموماً- يرسمون لوحات فظيعة للسائحات، وكانت لوحاتهم تبدو متماثلة كلها؛ صوراً لنساء ذوات صفوف ضخمة من الأسنان اللامعة والشعر الأشقر الذي ينحدر على رقابهن. ثم اشترت لوحة صغيرة تماماً، مجرد صورة تمثل لمحة صغيرة من داخل قناة. ولقد قوّم الرجل الذي رسمها منظرنا، واشترتها إيلي بما يعادل ستة جنيهات إنكليزية. الأمر الغريب هو أنني أحسستُ بأن إيلي كانت متلهفة على لوحة الجنيهات الستة هذه بقدر لهفتها على لوحة سيزان.

وقد حدث ما يشبه ذلك في باريس. حيث قالت لي فجأة: كم سيكون هذا ممتعاً... لنشترِ رغيفاً فرنسياً مُحمصاً حقاً ونجعل فيه زبدة وبعضاً من ذلك الجبن الذي يلفونه بورق الشجر.

وهذا ما فعلناه، وأحسب أن إيلي قد استمتعت بذلك أكثر مما استمتعت بالوجبة التي تناولناها قبل ذلك بليلة وكلّفتنا ما يقرب من عشرين جنيهاً إنكليزياً. في البداية لم أكن أفهم الأمر، ثم بدأت أدركه. كان الأمر المحرج هو أنني بدأت أدرك الآن أن زواجي بإيلي لم يكن يعني فقط المتعة واللعب، إذ أن عليّ أن أؤدي واجبي وأحفظ درسي. عليّ أن أتعلم كيف أدخل إلى مطعم، والأمور التي ينبغي أن أطلبها،

والإكراميات الصحيحة التي يجب دفعها، ومتى يجب أن يعطي المرء -لسبب ما- إكرامية أسخى من المعتاد. وعليّ أن أتعلم معظم هذه الأشياء بالملاحظة. لم يكن بوسعي أن أسأل إيلي لأن هذا كان أحد الأمور التي ليس من شأنها أن تفهمها، وما كان ذلك ليهم بالنسبة إليها، لأنها وُلدت هكذا، ولكن الأمر كان يهمني لأنني لا أستطيع أن أفعل تماماً ما أحبه. لم أكن بسيطاً بما فيه الكفاية. ونفس الأمر يسري على الملابس أيضاً، رغم أن إيلي كانت أكثر تعاوناً في هذه النقطة، لأنها تفهم بشكل أفضل. كانت ترشدني فقط إلى المحلات الصحيحة وتطلب مني أن أدعهم يتولون الأمر بطريقتهم.

وبالطبع لم أكن أبدو في أحسن حال بعد، ولكن ذلك لم يكن يهم كثيراً. كنت قد تعلمت أصول اللعبة إلى الحد الذي أستطيع معه أن ألقى قبولاً من أناس مثل السيد ليبنكوت، وربما -قريباً- من العائلة، عندما تأتي زوجة الأب والأعمام، ولكن ذلك لم يكن ليهم في المستقبل أبداً؛ فعندما ينتهي البيت وننتقل إليه سنكون بعيدين كل البعد عن كل الناس، وسيكون البيت مملكتنا.

نظرتُ إلى غريتا الجالسة قبالتي، وتساءلتُ عن حقيقة رأيها ببيتنا. لقد كان هو ما أردته على كل حال. إنه يقنعني كلياً. كنتُ أريد أن أسوق سيارتي إليه وأمرّ من خلال ممشى خاص تحف به الأشجار وينتهي عند خليج صغير مسقوف سيكون شاطئنا الخاص ولا يستطيع أحد أن يأتي إليه من جهة اليابسة، ورأيت أنه سيكون أفضل ألف مرة -وهو يمتد لساناً في البحر- من شاطئ مفتوح ممتد يستلقي عليه مئات الناس. لم أُرِد كل الأشياء الثمينة التي لا روح فيها. لقد أردت...

ها هي تلك الكلمة تتردد ثانية، كلمتي الخاصة نفسها: أريد، أريد... بوسعي أن أحس بكل المشاعر التي تمور في داخلي. لقد أردتُ امرأة رائعة وبيتاً رائعاً ليس ككل البيوت، وأردتُ لبيتي الرائع أن يكون مليئاً بالأشياء الرائعة. الأشياء التي تكون لي. كل شيء سيكون لي.

* * *

في وقت لاحق من ذلك اليوم... كان الوقت ليلاً عندما كنا نرتدي ملابسنا لنخرج للعشاء، وقالت إيلي بشيء من الحذر: مايك، لقد... لقد أحببتَ غريتا، أليس كذلك؟

- طبعاً أحببتها.

- لا أستطيع تحمل الأمر لو لم تحبها.

اعترضتُ قائلاً: ولكني أحبها. ما الذي يجعلك تظنين عكس ذلك؟

- لستُ واثقة تماماً من السبب. أظن أن ذلك من الطريقة التي لا تكاد فيها تنظر إليها، حتى وأنت تتكلم معها.

- أحسب أن ذلك لأني... لأني أشعر بالارتباك.

- الارتباك، من غريتا؟

- نعم، إنها مُدهشةٌ ومؤثِرةٌ قليلاً.

ثم أخبرت إيلي كيف أنني تخيلتُ غريتا أشبه بواحدة من خادمات

الأسطورة الإسكندنافية اللاتي يخترن الأبطال الذين سيُذبَحون في المعركة. قالت وهي تضحك: ولكنها ليست بمثل تلك البدانة التي يصورونهن بها في الأوبرا.

وضحكنا نحن الاثنين، ثم قلت: إن الأمر لا يسترعي انتباهك كثيراً لأنك عرفتِها منذ سنوات طويلة. ولكنها... أعني أنها شديدة الكفاءة والعملية.

كافحتُ بالكثير من الكلمات التي لم يبدُ حقاً أنها الكلمات الصحيحة. ثم قلتُ فجأة: إنني أشعر... أشعر معها بأنني في موقف ثانوي أمامك.

قالت إيلي وقد بدا عليها تأنيب الضمير: آه يا مايك! أعرف أن بيننا الكثير من الأمور التي يمكننا الحديث عنها؛ قصصاً وأشياء قديمة حدثت وغير ذلك. أحسب... نعم، أحسب أن ذلك قد يُشعرك بشيء من الحرج، ولكنكما سرعان ما ستصبحان صديقين. إنها تحبك. هي قالت لي ذلك.

- اسمعي يا إيلي، ربما كانت ستقول لك ذلك على أية حال.

- آه، لا. إن غريتا صريحة جداً. لقد سمعتَها، وسمعتَ بعض ما قالته اليوم.

كان صحيحاً أن غريتا لم تُخفِ آراءها تحت ستار التهذيب خلال الغداء. كانت قد قالت وهي تخاطبني أكثر مما تخاطب إيلي: لا بد أنك قد رأيت -أحياناً- غرابة في طريقة دعمي لإيلي في وقت

لم أكن قد رأيتك مجرد رؤية. ولكني جُننتُ غضباً... غضبتُ للحياة التي كانوا يرسمونها لها، إذ يحبسونها في شرنقة من أموالهم وأفكارهم التقليدية. لم تكن لها أية فرصة في الاستمتاع بحياتها أو الذهاب إلى أي مكان بنفسها أو فعل ما تريد. لقد أرادت أن تتمرد ولكنها لم تعرف طريقة ذلك. وهكذا... نعم، الحقيقة أنني شجعتها. اقترحتُ عليها أن تبحث عن بيت في إنكلترا، ثم قلتُ لها إنها -عندما تبلغ سن الواحدة والعشرين- يمكنها أن تشتري بيتاً خاصاً بها وتقول وداعاً لكل أهل نيويورك هناك.

قالت إيلي: إن لدى غريتا دوماً أفكاراً رائعة. إنها تفكر بأمور ربما لم أكن أنا لأفكر بها أبداً.

ماذا كانت تلك الكلمات التي قالها لي السيد ليبنكوت؟ "إن لها تأثيراً كبيراً على إيلي". شككتُ في مدى صحة ذلك، ولعل من الغريب تماماً أنني لم أرَ ذلك حقاً. شعرتُ أنه يوجد -في مكان ما داخل إيلي- لُبٌّ وجوهر لم تُقدِّره غريتا حق قدره أبداً، رغم كل معرفتها بها. كنتُ واثقاً أن من شأن إيلي أن تتقبل دوماً أية أفكار تتماشى مع الأفكار التي تريد هي تبنّيها. لقد حثّتْ غريتا إيلي على التمرد، ولكن إيلي نفسها كانت تريد أن تتمرد، كل ما في الأمر أنها لم تكن متأكدة من كيفية قيامها بذلك. ولكني شعرتُ بأن إيلي (الآن وقد أخذتُ أعرفها بشكل أفضل) كانت واحدة من أولئك الناس البسطاء جداً الذين يملكون إمكانات احتياطية غير متوقعة. رأيت أن من شأن إيلي أن تكون قادرة تماماً على اتخاذ موقف خاص بها إذا رغبت بذلك، وقد كانت النقطة هي أنها لا ترغب غالباً في اتخاذ مثل

تلك المواقف. وفكرتُ -بعدها- بمدى صعوبة فهم أي إنسان. حتى إيلي، وحتى غريتا. بل حتى أمي أنا... بالطريقة التي نظرَتْ بها إليّ والخوف في عينيها.

وتساءلتُ عن السيد ليبنكوت. قلتُ ونحن نقشّر بعض حبات الخوخ الضخمة: لقد بدا وكأن السيد ليبنكوت قد تقبل زواجنا بشكل جيد حقاً. لقد أدهشني هذا.

قالت غريتا: السيد ليبنكوت ثعلب عجوز.

قالت إيلي: أنت تقولين ذلك دوماً يا غريتا، ولكني أرى أنه رجل عزيز، وهو دقيق جداً ومحترم تماماً.

- حسناً، استمري في رأيك هذا إن أردتِ. أما أنا فما كنتُ لأثق به دقيقة واحدة.

- لا تثقين به!

هزت غريتا رأسها وقالت: أعرف. إنه تمثال من الاحترام والموثوقية. إنه كل ما ينبغي للمحامي والوصي أن يكونه.

ضحكت إيلي وقالت: أتعنين أنه يختلس ثروتي؟ لا تكوني سخيفة يا غريتا. يوجد فيض من المدققين الماليين والبنوك وأعمال المراجعة وما إلى ذلك من أمور.

- حسناً، أحسب أنه رجل لا بأس به عموماً. ومع ذلك فإن هؤلاء الناس هم فعلاً مَن يختلسون الأموال. الناس الموثوقون! وبعد

ذلك ترين الجميع يقولون: "ما كنتُ لأصدق ذلك عن السيد فلان أو السيد فلان... آخر شخص في الدنيا يمكن أن يُظن به ذلك". نعم، هذا ما يقوله الناس... "آخر شخص في الدنيا"!

قالت إيلي وهي تتأمل إنها ترى أن عمها فرانك يُحتمل منه أن يُقدِم على أعمال غير نزيهة أكثر بكثير من السيد ليبنكوت. ولم تبدُ قلقة أو مندهشة أكثر من اللازم من هذه الفكرة.

قالت غريتا: الحقيقة أنه يبدو كمحتال، وهذا ما يحدُّ من قدرته بدايةً، مع كل ذلك المرح وتلك الأريحية. ولكنه لن يكون أبداً في وضع يصبح فيه محتالاً على مستوى كبير.

سألتُ إيلي: "أهو عم حقيقي لك؟"؛ فقد كنتُ دوماً أخلط في أقارب إيلي.

- إنه زوج عمتي. وقد تركته وتزوجت رجلاً آخر، ثم توفيت قبل نحو ست سنوات أو سبع. وقد بقي العم فرانك متعلقاً بالعائلة بطريقة أو بأخرى.

قالت غريتا بلطف: يوجد ثلاثة منهم؛ ثلاثة متطفلين علقوا بالعائلة إذا صح التعبير. لقد قُتل العمّان الحقيقيان لإيلي، قُتل أحدهما في كوريا والآخر في حادث سيارة، ولذلك فإن كل ما لدى إيلي هو زوجة أبٍ سيئة، والعم فرانك، المتطفل الودود في بيت العائلة، وابن خالها روبن الذي تسميه خالها وهو لا يعدو أن يكون ابن خال بعيد، وآندرو ليبنكوت، وستانفورد لويد.

سألتُ وقد فوجئت: ومن هو ستانفورد لويد؟

- إنه أشبه بوصي آخر، أليس كذلك يا إيلي؟ إنه -على أية حال- يدير استثماراتك وما شابه ذلك، الأمر الذي لا يمكن أن يكون صعباً جداً في الواقع، لأن امتلاك أموال كتلك التي تملكها إيلي يجعل تلك الأموال تكسب المزيد من الأموال تلقائياً دون أن يضطر أحد لبذل الكثير من الجهد.

ثم أضافت غريتا: هذه هي المجموعة الأساسية المحيطة. وما من شك عندي في أنك سوف تقابلهم قريباً جداً. سيأتون إلى هنا لإلقاء نظرة عليك.

دمدمتُ ونظرتُ إلى إيلي، فقالت بكل لطف وعذوبة: لا تهتم يا مايك، فسوف يسافرون ثانية.

* * *

- ١٢ -

وقد أتوا بالفعل. لك يبقَ أيٌّ منهم لفترة طويلة. ليس في تلك المرة، ليس في أول زيارة. جاؤوا لإلقاء نظرة علي، وقد وجدتُ من الصعب فهمهم لأنهم كانوا كلهم أمريكيين بالطبع. كما كانوا من أنواعٍ لم أكن آلفُها تماماً. وقد كان بعضهم لطيفاً تماماً، كالعم فرانك مثلاً (الذي أتفقُ مع غريتا بشأنه؛ فلم أكن لأثق به لحظة واحدة). كنتُ قد قابلتُ أناساً من نوعه في إنكلترا، وكان رجلاً ضخماً. ورأيتُ أنه مهتم بالنساء، ومهتم أكثر بمصالحه الخاصة. اقترض مني مالاً مرة أو مرتين، وكانت مبالغ بسيطة، لمجرد تدبير أحواله ليوم أو يومين. وظننتُ أنه لم يكن مدفوعاً إلى ذلك بحاجته إلى المال بقدر ما كان يريد اختباري ليرى إن كنتُ أُقرض المال بسهولة. وكان هذا الأمر مقلقاً بعض الشيء لأنني لم أكن واثقاً من الطريقة المثلى التي يجب أن أتبعها معه. أكان من الأفضل أن أرفض فوراً ومباشرة لأجعله يعرف أنني شحيح، أم أن من الأفضل أن أتظاهر بالسخاء اللاهي الذي كنتُ أبعد ما أكون عنه؟ وفكرتُ قائلاً لنفسي: فليذهب العم فرانك إلى الجحيم!

كانت كورا -زوجة والد إيلي- هي التي أثارت اهتمامي أكثر

من غيرها. كانت امرأة في حوالي الأربعين من عمرها، أنيقة الثياب ذات شعر مصبوغ وأسلوب كلام مفرط قليلاً في عاطفيته السخيفة. وقد كانت مثال العذوبة مع إيلي، إذ قالت: لا يجدر أن تهتمي لتلك الرسائل التي أرسلتُها لك يا إيلي. يجب أن تعترفي أن زواجك بهذا الشكل جاء صدمة رهيبة، بكل هذه السرية! ولكنني أعرف -طبعاً- أن غريتا هي التي دفعتك إلى أن تفعلي ذلك بهذا الشكل.

أجابتها إيلي: يجب أن لا تلومي غريتا. أنا لم أقصد أن أزعجكم جميعاً بهذا الشكل. إنني رأيتُ فقط أن... أن الضجة كلما قلّتْ...

- آه، بالطبع يا عزيزتي إيلي، معك بعض الحق في هذه النقطة. لقد استشاط كل المسؤولين عن أعمالك غضباً، ستانفورد لويد وآندرو ليبنكوت. أحسب أنهم ظنوا أن الجميع سيلومونهم على عدم عنايتهم بك بشكل أفضل، كما أنهم لم يكونوا يعرفون طبعاً كيف سيكون مايك. لم يدركوا كم سيكون ساحراً رائعاً. أنا نفسي لم أدرك ذلك.

ثم ابتسمت لي ابتسامة عذبة جداً. كانت واحدة من أكذب الابتسامات التي رأيتها في حياتي! وفكرت مع نفسي قائلاً: لئن كانت امرأة قد كرهت رجلاً أبداً لكانت تلك المرأة هي كورا، ولكنتُ أنا ذلك الرجل! رأيت أن عذوبتها مع إيلي يمكن فهمها تماماً. فقد عاد آندرو ليبنكوت إلى أمريكا، ولا شك أنه وجّهَ لها بعض كلمات التحذير. كانت إيلي تبيع بعض ممتلكاتها في أمريكا، طالما أنها قد قررت نهائياً العيش في إنكلترا، ولكنها كانت ستمنح كورا راتباً ضخماً بحيث تستطيع الأخيرة أن تعيش حيث تريد. لم يُشر أحدٌ كثيراً لزوج كورا، وقد فهمتُ أنه قد سافر إلى مكان آخر من هذا العالم، ولم

يسافر إليه وحيداً. وفهمتُ أن طلاقاً آخر كان وشيكاً في أغلب الاحتمالات.

لقد أرادت كورا ذلك الراتب؛ فقد كانت امرأة ذات أذواق مترفة. ولا شك أن آندرو ليبنكوت قد لمّح لها بوضوح تام إلى أن الراتب قد ينقطع إذا أرادت إيلي، أو إذا ذهبت كورا بعيداً في نسيان نفسها وانتقاد زوج إيلي الجديد بشكل حقود جداً.

أما ابن الخال، أو الخال روبن، فإنه لم يأتِ. وبدلاً من ذلك كتب إلى إيلي رسالة لطيفة آملاً لها أن تكون سعيدةَ جداً، ولكنه شك في أنها ستحب العيش في إنكلترا. "وإذا لم تحبي العيش فيها -يا إيلي- فعودي مباشرة إلى أمريكا. ولا تحسبي أنك لن تلقي ترحيباً حاراً هنا، لأنك ستلقينه بالفعل. من خالك روبن على الأقل".

قلتُ لإيلي: إنه يبدو لطيفاً.

أجابت بتأمل: نعم.

ولكن بدا أنها لم تكن واثقة جداً من ذلك. سألتُها: هل أنت مغرمة بأيٍ منهم يا إيلي؟ أم أن عليّ عدم طرح هذا السؤال؟

- يمكنك طبعاً أن تسأل عن أي شيء.

ولكنها -مع ذلك- لم تجبني للحظات، ثم قالت بشيء من الحسم النهائي: لا، لا أظنني مغرمة بأحد منهم. يبدو ذلك غريباً، ولكنني أظن أن السبب عائد إلى أنهم لا ينتمون إليّ. لا تجمعني معهم إلاّ البيئة المشتركة، وليس القرابة. ما من أحد منهم يمتُّ إليّ بقرابة

لحم ودم. لقد أحببتُ والدي، أو ما أذكره منه. أظنه كان رجلاً ضعيفاً بعض الشيء، وأحسب أن جدي قد خاب أمله فيه لأنه لم يكن يهتم كثيراً بالجوانب التجارية. لم يكن يريد الانخراط في الحياة العملية التجارية، وكان يحب الذهاب إلى فلوريدا وصيد السمك، ثم تزوج فيما بعد بكورا، وأنا لم أحبها كثيراً... كما لم تحبني هي بالمقابل. أما أمي الحقيقية فأنا لا أذكرها طبعاً. كنتُ أحب عمي هاري وعمي جو. كانا ممتعين، ممتعين أكثر من أبي في بعض الجوانب. كان هو رجلاً هادئاً حزيناً على نحو ما، ولكن أخويه كانا يمتعان نفسيهما. وأظن أن العم جو كان طائشاً قليلاً، من ذلك النوع الذي يفسده امتلاك الكثير من المال. وعلى كل حال، كان هو الذي سُحِق في حادث السيارة، والعم الآخر قُتل وهو يقاتل في الحرب. كان جدي وقتها رجلاً مريضاً، وكانت ضربة هائلة له أن يموت أولاده الثلاثة. لم يكن يحب كورا، كما لم يكن يهتم كثيراً بأيٍّ من أقاربه الأبعدين، كالخال روبن مثلاً. كان يقول إنك لا تستطيع أن تجزم بما ينوي روبن فعله، ولذلك قام بترتيبات لوضع أمواله في صندوق ائتمان. وقد ذهب الكثير من تلك الأموال إلى المتاحف والمستشفيات. وقد ترك لكورا ما يكفيها ويزيد، وكذلك لزوج ابنته، العم فرانك.

- ولكن معظم الأموال بقيت لك؟

- نعم، وأحسب أن ذلك قد أقلقه قليلاً. وقد قام بكل ما يستطيع لتأمين من يعتني لي بهذه الأموال.

- مثل العم آندرو والعم ستانفورد لويد. محامٍ ومصرفي.

- نعم. وأظن أنه لم يرَ أن بوسعي أن أعتني بالأموال بنفسي.

الأمر الغريب هو أنه جعل الثروة تؤول إليّ عند بلوغي الحادية والعشرين، ولم يدعها في صندوق الائتمان حتى أبلغ الخامسة والعشرين كما يفعل الكثير من الناس. وأحسب أنه فعل ذلك لأنني فتاة.

- هذا غريب. يبدو لي أن الأمر كان ينبغي أن يكون بالعكس تماماً، أليس كذلك؟

هزت إيلي رأسها بالنفي وقالت: لا، أظن أن جدي كان يرى أن الشباب من الذكور يكونون دوماً طائشين ويرتكبون الأخطاء، وأن الشقراوات ذوات الكيد يوقعن بهم. أظنه رأى أن من الجيد أن يأخذوا وقتاً أطول لتنضج عقولهم. ولكنه قال لي يوماً: "إن كان لفتاة أن يكون لها عقل أبداً فسيكون لها عقل في سن الواحدة والعشرين، ولا مبرر لجعلها تنتظر أربع سنوات أخرى. وإذا ما كانت ستصبح مغفلة فستبقى مغفلة حتى بعد الخامسة والعشرين".

ثم نظرت إيلي إليّ وهي تبتسم وقالت: كما قال لي إنه لا يظن أنني مغفلة. قال: "قد لا تعرفين الكثير عن الحياة، ولكن لك عقلاً راجحاً يا إيلي. وخاصة فيما يخص الناس، وأظن أنك ستكونين دوماً ذات عقل راجح".

قلتُ متأملاً: لا أحسب أنني كنتُ سأعجبه لو رآني.

كان لدى إيلي الكثير من الصدق. لم تكن لتحاول طمأنتي بقول شيء إلاّ إذا كان حقيقة لا شك فيها. قالت: نعم، أظنه كان سيشعر بشيء من الهلع... في البداية طبعاً. وكنا سنضطر للانتظار حتى يعتاد عليك.

قلتُ فجأة: يا للمسكينة إيلي!

- لماذا تقول ذلك؟

- لقد قلتها لك مرة من قبل، أتذكرين؟

- نعم. لقد قلتَ: "يا للفتاة الغنية المسكينة"، وكنتَ محقاً تماماً.

- لم أقصدها بنفس المعنى هذه المرة. لم أقصد أنك كنت مسكينة لأنك غنية. أظنني قصدتُ... أن حولك الكثير من الناس، كلهم عليك. حولك من كل جانب، كثير من الناس الذين يريدون أشياء منك، ولكنهم لا يهتمون بك حقاً. أليس هذا صحيحاً؟

قالت إيلي بقليل من الارتياب: أظن أن العم آندرو يهتم بي حقاً. لقد كان دوماً لطيفاً معي، ومتعاطفاً. أما الآخرون... فكلا، أنت محقّ. إنهم لا يريدون إلاّ أشياء مني.

- إنهم يأتون ويشحذون منك، أليس كذلك؟ يقترضون منك المال، ويطلبون المعروف، ويريدون منك أن تُخرجيهم من ورطاتهم وغير ذلك من الأمور. إنهم متكالبون عليك، عليك، عليك!

قالت إيلي بهدوء: أحسب أن هذا طبيعي تماماً، ولكني انتهيت منهم جميعاً الآن. إنني قادمة للعيش في إنكلترا، ولن أرى الكثير منهم.

كانت مخطئة في ذلك طبعاً، ولكنها لم تكن قد فهمت الحقيقة بعد. جاء ستانفورد لويد لاحقاً بمفرده. أحضر معه الكثير من الوثائق والأوراق لكي توقعها إيلي، وأراد موافقتها على الاستثمارات. تحدث

معها عن استثمارات وأسهم وممتلكات تمتلكها، وعن إدارة أموال صندوق الائتمان. وكان ذلك كله كالهيروغليفية بالنسبة لي. ما كان بوسعي أن أساعدها أو أنصحها، وما كان بوسعي أن أوقف ستانفورد لويد عن غشها أيضاً. لقد رجوت أن لا يكون كذلك، ولكن أنىّ لامرئ جاهل مثلي أن يتأكد؟

كان في ستانفورد لويد شيء يكاد يكون أروع من أن يكون حقيقياً صادقاً. كان مصرفياً، ويبدو على شكل المصرفيين؛ رجلاً وسيماً بعض الشيء رغم أنه ليس شاباً صغيراً. وكان شديد الأدب معي، ولعله كان يراني مثل القمامة، ولكنه حاول عدم إظهار ذلك. قلتُ أخيراً بعد أن انصرف: حسناً، هذا آخر القوم.

- لم يعجبك أحدٌ منهم، أليس كذلك؟

- أحسب أن زوجة أبيك كورا منافقة ذات وجهين. إنني آسف يا إيلي، ربما ما كان عليّ أن أقول ذلك.

- ولِمَ لا إن كان هذا ما تراه؟ أحسب أنك لم تخطئ كثيراً.

- لا بد أنك كنتِ تشعرين بالوحدة يا إيلي.

- نعم، كنتُ أشعر بالوحدة. لقد عرفتُ فتيات في مثل عمري، وذهبتُ إلى مدرسة حديثة، ولكنني لم أكن حرة حقاً. فإذا ما أقمتُ صداقة مع أحد يجعلون صداقتي تنفصل بطريقة أو بأخرى، ويدفعون إليّ فتاة أخرى. أتعلم؟ لقد كان كل شيء محكوماً بالمنزلة الاجتماعية. ولكني لم أتعمق في أية علاقة كثيراً. لم يكن من أحد أهتم حقاً به، إلى

أن جاءت غريتا، وعندها أصبح كل شيء مختلفاً. فلأول مرة وُجد شخص مغرمٍ حقاً بي أنا. كان ذلك رائعاً.

ثم رقّتْ قسماتُ وجهها. قلتُ وأنا ألتفت بعيداً باتجاه النافذة: أتمنى...

– ماذا تتمنى؟

– آه، لا أدري... أتمنى ربما لو لم تكوني... لو لم تكوني معتمدة إلى هذا الحد على غريتا. إنه لأمر سيء أن يعتمد المرء إلى هذا الحد على أي إنسان.

– أنت لا تحبها يا مايك.

سارعت بالاحتجاج: بل أحبها، أحبها حقاً. ولكن يجب أن تدركي يا إيلي بأنها... بأنها غريبة تماماً بالنسبة لي. لأكن صريحاً: إنني أغار قليلاً منها. أغار لأنك أنت وهي... الحقيقة أنني لم أفهم من قبل مدى ارتباطكما ببعضكما البعض.

– لا تكن غيوراً. إنها الوحيدة التي كانت طيبة معي، التي اهتمت بي... حتى التقيتك.

– ولكنك التقيتِني. وتزوجتِ بي.

ثم قلتُ ثانية ما كنتُ قد قلتُه من قبل: وسوف نعيش طوال حياتنا بسعادة دائمة.

* * *

إنني أحاول بأفضل ما أستطيع (رغم محدودية إمكاناتي) أن أرسم صورة للناس الذين دخلوا حياتنا، وأعني بذلك مَن دخلوا حياتي أنا، لأنهم كانوا في حياة إيلي أصلاً. كانت غلطتنا هي أننا ظننا أنهم سيخرجون من حياة إيلي، ولكنهم لم يخرجوا، ولم تكن لديهم نية الخروج. إلاّ أننا لم نكن نعرف ذلك وقتها.

كان الأمر التالي الذي حدث يتعلق بحياتنا في جانبها الإنكليزي. فقد اكتمل بيتنا، وتلقينا برقية من سانتونيكس. طلب منا أن نبقى بعيدين نحواً من أسبوع، ثم جاءت البرقية تقول: "تعالوا غداً".

قدنا السيارة إلى هناك ووصلنا عند الغروب، وسمع سانتونيكس صوت السيارة فخرج لاستقبالنا ووقف أمام البيت. وعندما رأيتُ بيتنا مكتملاً قفز شيءٌ ما في داخلي، قفز وكأنه يريد أن ينفجر خارجاً من جلدي! كان هذا بيتي أنا... وقد حصلتُ عليه أخيراً! أمسكت بذراع إيلي بكل قوة.

قال سانتونيكس: أأعجبكما؟

قلتُ: إنه قمة.

كان ذلك قولاً سخيفاً مني ولكنه فهم ما عنيتُه وقال: نعم؛ إنه أفضل بناء بنيته. لقد كلّفكما مبلغاً هائلاً، وهو يستحق كل قرش من هذا المبلغ. لقد تجاوزتُ تقديراتي في كل شيء. هيا يا مايك، احملها واعبُر بها عتبة الباب. هذا ما ينبغي فعله عندما تدخل بيتاً مع عروسك!

احمرّ وجهي خجلاً، ثم حملتُ إيلي... وكانت خفيفة تماماً. وعبرتُ بها العتبة كما أشار سانتونيكس. وفيما أنا أفعل ذلك تعثرتُ قليلاً ورأيتُ سانتونيكس يعبس. ثم قال: حسناً، كن طيباً معها يا مايك. اعتنِ بها، ولا تدع الأذى يصل إليها. إنها لا تستطيع الاعتناء بنفسها، وتظن أنها تستطيع.

قالت إيلي: ولماذا يحدث لي أي أذى؟

– لأن هذا العالم عالم سيء، وبه أناس سيئون، ويوجد بعض السيئين حولك يا فتاتي. إنني أعرف ذلك. لقد رأيتُ واحداً أو اثنين منهم. رأيتهما هنا؛ جاءا يتسقطان الأخبار ويتشممان الأمور كالجرذان. أرجو أن تصفحي عن لغتي السيئة، ولكن يجب على شخص ما أن يقول ذلك.

قالت إيلي: إنهم لن يضايقونا، لقد عادوا جميعاً إلى أمريكا.

– ربما، ولكن العودة لا تستغرق إلاّ بضع ساعات بالطائرة.

وضع يديه على كتفيها. وكانت يداه نحيلتين جداً وشاحبتين كثيراً الآن، وبدا مريضاً إلى حدٍّ مخيف. قال: كان من شأني أن أعتني

بك بنفسي يا طفلتي لو استطعت، ولكني لا أستطيع. لن يطول بي الأمر بعد الآن. سيتعين عليك أن تعتني أنت بنفسك.

قلتُ له: كُفَّ عن إنذارات الغجر يا سانتونيكس، وخذنا لنرى البيت، كل شبر فيه.

دُرنا في البيت. كانت بعض الغرف ما زالت فارغة، ولكن أغلب الأشياء التي اشتريناها -من لوحات وأثاث وستائر- كانت موجودة هناك. قالت إيلي فجأة: إننا لم نُطلق عليه اسماً. لا نستطيع تسميته «تاورز»؛ فقد كان ذلك اسماً سخيفاً. ماذا كان اسمه الثاني الذي أخبرتني عنه مرة يا مايك؟ أكان فدان الغجري؟

- لن نسميه بهذا الاسم؛ لا أحب هذا الاسم.

قال سانتونيكس: سوف يُدعى دائماً بهذا الاسم في المنطقة.

قلتُ: إنهم أناس سخفاء تتلبسهم الخرافات.

ثم جلسنا على المصطبة الخارجية ننظر إلى الشمس الآفلة وإلى المنظر أمامنا، وفكرنا في أسماء للبيت. كان ذلك أشبه بلعبة، ثم حلت العتمة والبرد فجأة ودخلنا إلى الداخل. لم نغلق الستائر، بل اكتفينا بإغلاق النوافذ. وكنا قد أحضرنا معنا بعض الطعام والشراب. فسيأتي -في اليوم التالي- طاقم من الخدم الذين تم استئجارهم بمبالغ باهظة.

قالت إيلي: ربما كرهوا المكان وقالوا إنه موحش وإنهم سيذهبون جميعاً.

قال سانتونيكس: وعندها ستعطينهم أجوراً مضاعفة ليبقوا.

أجابته إيلي مازحة: أنت ترى أن كل امرئ يمكن أن يُشترى!

كنا قد أحضرنا معنا بعض فطائر اللحم والخبز الفرنسي. وجلسنا حول الطاولة نضحك ونأكل ونتحدث، وحتى سانتونيكس بدا قوياً ونشطاً، وكان في عينيه شيء من الانفعال الشديد.

وعندها حدث ذلك فجأة. فقد اندفع حجر فكسر زجاج الباب الزجاجي، ووقع على الطاولة فكسر كأساً، فانطلقت منه شظية جرحت وجنة إيلي. جلسنا للحظة كالمشلولين، ثم قفزتُ واندفعتُ إلى الباب الزجاجي ففتحته وخرجتُ إلى المصطبة. لم يكن هناك أحد يمكن رؤيته، فعدتُ إلى الغرفة ثانية.

أخذتُ منديلاً ورقياً وانكببتُ على إيلي أمسح عن وجنتها خيطاً من الدم رأيته ينحدر على خدها.

- لقد جرحك... دقيقة يا عزيزتي، ليس الأمر خطيراً. مجرد جرح صغير جداً من شظية زجاج.

التقت عيناي بعيني سانتونيكس. وقالت إيلي: لماذا يمكن لأي امرئ يفعل ذلك؟

بدت مذعورة، فقلتُ لها: إنهم صبيان؛ من الشبان الأشقياء. ربما علموا أننا ننتقل لنستقر هنا. يمكنني القول إنك محظوظة إذ لم يرموا سوى حجر صغير!

- ولكن لماذا يفعلون ذلك لنا؟ لماذا؟

- لا أدري، مجرد وضاعة.

نهضت إيلي فجأة وقالت: إنني خائفة.

- سنكشف الأمر غداً. إننا لا نعرف الكثير عن الناس حولنا هنا.

- أذلك لأننا أغنياء وهم فقراء؟

طرحتْ هذا السؤال على سانتونيكس أكثر ممّا طرحته عليّ أنا، وكأن من شأنه أن يعرف جوابه أفضل مني. قال سانتونيكس ببطء: لا، لا أظن أن هذا هو السبب...

- إنه بسبب كراهيتهم لنا. إنهم يكرهون مايك ويكرهونني. لماذا؟ ألأننا سعيدان؟

هز سانتونيكس رأسه بالنفي ثانية، فقالت إيلي وكأنها تؤيده: لا، لا، إنه أمر آخر، أمر لا نعرف عنه شيئاً. فدان الغجري. كلُّ مَن يعيش هنا سيلقى الكراهية، وسوف يؤذى. ربما نجحوا في النهاية في إخراجنا من هنا...

سكبتُ كأساً من العصير وأعطيته لها قائلاً بتوسل: كلا، لا تقولي مثل هذه الأمور يا إيلي. اشربي هذا. لقد كان حدوث ذلك أمراً قذراً، ولكنه لم يكن سوى سخف ومزاح فظٍّ ثقيل.

قالت إيلي: "أشكّ في ذلك... أشك"، ثم نظرت إليّ بإمعان وقالت: إن أحدهم يحاول إخراجنا من هنا يا مايك... إخراجنا وطردنا من البيت الذي بنيناه، من البيت الذي نحبه.

- لن نسمح لهم بأن يُخرجونا. سوف أعتني بك، ولن يؤذيك شيء.

نظرت ثانية إلى سانتونيكس وقالت: لا بد أنك تعرف، فقد كنتَ هنا عندما كان البيت يُبنى. ألم يقل أحدٌ لك شيئاً؟ ألم يأتِ أحد ويرمي حجارة... أو يتدخل في بناء البيت؟

- يمكن للمرء أن يتخيل أموراً.

- إذن فقد وقعت حوادث بالفعل؟

- تحدث -دوماً- بعض الحوادث عند بناء البيوت. لم يقع شيء خطير أو مأساوي. يَسقط رجلٌ عن السُلّم، أو يُسقط أحدهم حملاً على قدمه، أو تدخل شظية خشب في إصبع أحدهم فتلتهب.

- ألم يحدث ما يتجاوز ذلك؟ شيء يمكن أن يكون مقصوداً؟

- لا، لا. أقسم لك!

التفتت إيلي إليّ وقالت: أنت تذكر تلك المرأة الغجرية يا مايك. كم كانت غريبة في ذلك اليوم، وكيف حذرتني من القدوم إلى هنا!

- إنها لا تعدو أن تكون مخبولة، مختلة العقل قليلاً.

قالت: "لقد فعلنا ما حذّرَتْنا من فعله". ثم ضربت الأرض بقدمها وأضافت: لن يُخرجوني من هنا... لن أدع أحداً يخرجني!

قلتُ لها: لن يخرجنا أحد، وسنكون سعيدين هنا.

قلنا ذلك وكأنه تحدٍّ للمجهول.

* * *

- ١٤ -

هكذا بدأت حياتنا في فدان الغجري. لم نجد اسماً آخر للبيت. وقد ثبَّتَتْ تلك الليلةُ الأولى الاسمَ في رأسينا، فقد قالت إيلي: سوف نسميه فدان الغجري... لمجرد المباهاة! إنه نوع من التحدي، ألا ترى ذلك؟ إنه فداننا نحن، وليذهب تحذير الغجرية إلى الجحيم.

في اليوم التالي عادت إلى طبيعتها المرحة، وسرعان ما انشغلنا بشؤون استقرارنا في البيت وبمعرفة المنطقة حولنا والجيران. مشينا، أنا وإيلي، إلى ذلك البيت الصغير حيث تسكن المرأة الغجرية. شعرتُ أن من المفيد أن نجدها تحفر في حديقة بيتها. لقد كانت المرة الوحيدة التي رأتها إيلي يوم أن قرأت لها طالعنا، فإذا ما رأت الآن أنها مجرد عجوز عادية تحفر بحثاً عن البطاطا...

ولكننا لم نرها. وكان البيت الصغير مُغلقاً، فسألتُ عنها جارتها التي كانت خارجة –في تلك اللحظة– من بيتها فقالت: لا بد أنها ارتحلت. إنها ترتحل من وقت لآخر؛ فهي غجرية حقيقية، ولذلك لا تستطيع البقاء في البيوت. إنها تذهب فتتجول ثم تعود ثانية.

ثم نقرت على رأسها وقالت: "إن عقلها ليس على ما يرام". ثم

سرعان ما قالت وهي تحاول إخفاء فضولها: لقد جئتما من البيت الجديد هناك، أليس كذلك؟ ذلك البيت على رأس التلة الذي بُني حديثاً.

- نعم، لقد انتقلنا إليه ليلة أمس.

قالت: "إنه بيت رائع المنظر. لقد ذهبنا جميعاً للنظر إليه وهو يُبنى. من الجميل رؤية بيت كهذا مكان تلك الأشجار الكئيبة التي كانت هناك". ثم قالت لإيلي بشيء من الخجل: أنت سيدة أمريكية، أليس كذلك؟ هذا ما سمعناه.

- نعم. أنا أمريكية... أو كنتُ كذلك، ولكنني الآن متزوجة برجل إنكليزي، ولذلك فأنا إنكليزية.

- وقد جئتِ هنا لتستقري وتعيشي، أليس كذلك؟

أجبناها بالإيجاب، فقالت: حسناً، أرجو أن تحبوا المكان بالتأكيد.

وبدت مرتابة من ذلك، فقالت إيلي: ولماذا لا نحبه؟

- إنه مكان موحش هناك، والناس لا يحبون بيتاً موحشاً تَحِفٌ به الكثير من الأشجار.

- فدان الغجري؟

- آه، أوتعرفين اسمه القديم؟

قالت إيلي: وأحسب أننا سنستمر في تسميته فدان الغجري.

قلتُ لها: سيتعين علينا أن نخبر مكتب البريد بذلك، وإلاّ لما وصلتنا أية رسائل.

– نعم، أحسب أننا لن نتلقى رسائل.

– ومع ذلك فعندما يفكر المرء بالأمر فإنه يتساءل: هل سيكون ذلك مهماً يا إيلي؟ ألن يكون الأمر أكثر روعة لو أننا لم نتلقَّ أية رسائل؟

– قد يسبب ذلك الكثير من التعقيدات، فلن نتلقى وقتها حتى فواتيرنا.

– ستكون تلك فكرة رائعة.

– لا، لن تكون كذلك؛ لأن الدائنين سيأتون ويعسكرون هناك أمام البيت. وعلى أية حال فأنا لا أحب التوقف عن استلام الرسائل، فسأكون بحاجة لاستلام رسائل غريتا.

– دعك من غريتا، ودعينا نمضي في اكتشاف المكان.

وهكذا زرنا قرية كينغستُن بيشوب. وكانت قرية جميلة، وفي محلاتها أناس لطفاء، ولم يكن في المكان ما هو شرير. لم يعتد خدم بيتنا عليها كثيراً، ولكننا سرعان ما رتّبنا الأمر بحيث تأخذهم سيارة مُستأجَرة إلى بلدة ماركت تشادويل أيامَ عطلتهم. لم يكونوا متحمسين فيما يخص موقع البيت، ولكن لم تكن الخرافات هي التي تُقلقهم.

وقد قلتُ لإيلي إن أحداً لا يستطيع القول إن البيت مسكون لأنه قد بُني لتوه. وقد وافقتني قائلة: نعم، المسألة ليست في البيت نفسه. ليس في البيت شيء غير طبيعي، ولكن الأمر في الخارج. إنه في الطريق حيث يلتوي الطريق خلال الأشجار، وتلك البقعة الكئيبة من الغابة حيث وقفت تلك المرأة وجعلتني أجفل في ذلك اليوم.

- حسناً، في العام القادم يمكننا أن نقطع تلك الأشجار ونزرع مكانها الكثير من الورود.

ومضينا نضع الخطط. وجاءت غريتا وأمضت معنا عطلة نهاية الأسبوع، وقد كانت متحمسة للبيت وهنأتنا على كل مفروشاتنا ولوحاتنا وعلى توزيع الألوان، وكانت لبقة جداً. وبعد انتهاء عطلة نهاية الأسبوع قالت إنها لن تزعج شهر عسلنا أكثر من ذلك وإن عليها أن تعود إلى عملها على أية حال.

وقد استمتعت إيلي بمرافقتها لرؤية البيت، وكان بوسعي أن أرى مقدار حب إيلي لها. لقد حاولتُ أن أتصرف بكل عقلانية ومرح، ولكني كنتُ سعيداً بعودة غريتا إلى لندن لأن إقامتها معنا كانت عامل توتر بالنسبة لي.

بعد نحو أسبوعين من إقامتنا في البيت بدأنا نُقبَل محلياً وتعرفنا على السيد المُطاع الذي جاء في إحدى الأمسيات لزيارتنا. كنتُ وإيلي نتحاور حول أفضل مكان لزراعة سياج من الورد عندما خرج من البيت خادمنا الدقيق (الذي أراه أنا متبجح المنظر) وأعلن أن الميجر فيلبوت في غرفة الجلوس. وقتَها قلتُ لإيلي هامساً: «السيد المطاع».

وسألتني هي عما قصدته فقلتُ لها: إن أهل المنطقة يعاملونه كسيد مطاع تماماً.

وهكذا دخلنا، وكان الميجر فيلبوت هناك. كان مجرد رجل لطيف عصبي على الوصف قارب عمره الستين. وكان يرتدي ملابس ريفية بالية قليلاً، وله شعر أشيب يخف قليلاً عند الأعلى وشارب قصير منتصب الشعر. اعتذر عن عدم قدرة زوجته على المجيء لزيارتنا قائلاً إنها مُقعدة تقريباً، وجلس وتجاذب معنا أطراف الحديث. لم يكن فيما قاله شيءٌ ملفت للنظر أو مثير بشكل خاص، وكانت لديه موهبة جعل الناس مسترخين معه. وقد مر مرور الكرام على العديد من الموضوعات، فلم يسأل أية أسئلة مباشرة، ولكنه سرعان ما فهم أين تكمن اهتماماتنا تحديداً. تحدث معي عن سباق الخيل، ومع إيلي عن زراعة الحدائق وعن النباتات التي تنجح في هذه التربة تحديداً، وقال إنه زار أمريكا مرة أو مرتين. وقد وجد أن إيلي تحب ركوب الخيل رغم عدم اهتمامها بسباقات الخيل، وأخبرها أنها -إن أرادت تربية الخيول- فإن بوسعها أن تركبها خلال طريق خاص يمر عبر غابة الصنوبر وأنها ستخرج من هناك إلى مساحة واسعة من السهل حيث يمكن لها أن تُجري الفرس في أسرع عَدْوٍ ممكن.

وبعد ذلك وصلنا إلى موضوع بيتنا والقصص التي تدور حول فدان الغجري. قال: أرى أنكما تعرفان اسمه المحلي، وأحسب أنكما تعرفان أيضاً كل الخرافات المحلية حوله.

قلتُ له: تحذيرات كثيرة من الغجر، الكثير الكثير منها، وأغلبها من السيدة لي العجوز.

- آه، إيستر العجوز المسكينة. لقد كانت مصدر إزعاج لكما، أليس كذلك؟

- أهي مختلة عقلياً؟

- ليس بقدر ما يحلو لها أن تُظهر نفسها. أنا أشعر أنني مسؤول عنها بشكل أو بآخر، وقد أسكنتُها في ذلك البيت الصغير، رغم أنها غير ممتنة لذلك. إنني أحب تلك العجوز رغم أنها قد تكون مزعجة أحياناً.

- وتقرأ الطالع؟

- لا، ليس تماماً. لماذا، هل فعلت ذلك معكما؟

قالت إيلي: لا أدري إن كان بوسعك أن تسميه طالعاً. لقد كان أقرب إلى تحذير لنا من القدوم إلى هنا.

قال الميجر فيلبوت وحاجباه الشائكان يرتفعان: يبدو هذا غريباً بالنسبة لي؛ إذ أن لها -عادةً- لساناً مفرحاً في قراءة الطالع: "غريب وسيم، وزواج، وستة أطفال، وحظٌ سعيد وأموال ستجري في يدك...".

وعلى غير توقع كان يُقلد النواح في صوت المرأة الغجرية وهو يقول ذلك، ثم أضاف: لقد اعتاد الغجر على أن يحلّوا هنا كثيراً عندما كنتُ صبياً. وأحسب أنني قد أحببتهم وقتها، رغم أنهم كانوا لصوصاً. كنتُ دوماً أنجذب إليهم. فلا بأس بهم طالما أنك لا تتوقع منهم أن يمتثلوا للقوانين. ولطالما تناولتُ من أطعمتهم عندما كنتُ صبياً في عمر المدرسة. لقد شعرنا أن العائلة مدينة للسيدة لي بشيء، فقد

أنقذتْ حياة أخٍ لي عندما كان طفلاً؛ أخرجته من بركة وقع فيها تحت سطح الثلج.

تحركتُ حركة خرقاء فأوقعتُ آنية زجاجية عن الطاولة، وقد انكسرت الآنية وأصبحت شظايا. لملمت القطع المتناثرة وساعدني الميجر فيلبوت.

قالت إيلي: أحسب أن السيدة لي غير مؤذية حقاً؛ لقد كان سخفاً مني أن أخاف إلى ذلك الحد.

قال الميجر وقد ارتفع حاجباه ثانية: وهل خفتِ؟ أكان الأمر على هذا القدر من السوء؟

سارعتُ إلى القول: أنا لا أعجب من خوفها؛ فقد كان كلام العجوز أقرب إلى التهديد منه إلى الإنذار.

– تهديدا!

بدا وكأنه غير مصدق.

– هكذا بدا بالنسبة لي. وبعدها، في الليلة التي انتقلنا فيها إلى هنا حدث شيء آخر.

ثم أخبرتُه بالحجر الذي قُذف عبر النافذة، فقال: أخشى أن يكون في المنطقة الكثير من الأشقياء الصغار في هذه الأيام. رغم أنه ليس لدينا الكثير منهم هنا... ليس الأمر هنا بما هو عليه الحال من سوء في بعض المناطق، ومع ذلك يؤسفني القول إن هذا يحدث أحياناً.

ثم نظر إلى إيلي وقال: أنا آسف جداً على ما شعرتِ به من خوف. لقد كان حدوث ذلك أمراً وضيعاً في أول ليلة تنتقلين فيها.

قالت إيلي: آه، لقد تجاوزتُ ذلك الآن. ولكن الأمر لم يقتصر على هذا، فقد كان... فقد وقع أمر آخر بعد فترة وجيزة من ذلك.

أخبرتُه عن ذلك أيضاً. كنا قد نزلنا إلى الطابق الأرضي صباح أحد الأيام فوجدنا طيراً ميتاً وقد شُقّ طولياً بسكين، ومعه ورقة صغيرة كُتب عليها بخربشة أُميّة: «اخرجا من هنا إن كنتما تعرفان مصلحتكما».

بدا الميجر فيلبوت غاضباً تماماً وقال: كان يجب أن تبلغا الشرطة بالأمر.

– لم نرغب بذلك؛ فلن يكون من شأن هذا –في النهاية– إلاّ أن يزيد من عداء من فعلها كائناً من كان.

قال الميجر وقد أصبح –فجأة– الحاكم المُطاع: حسناً، إن مثل هذا الأمر يجب إيقافه عند حده، وإلاّ فإن الناس سيستمرون بمثل هذا العمل. أحسبهم يظنون ذلك لعبة ممتعة. إلاّ... إلاّ أن هذا يبدو أكثر قليلاً من مجرد لعبة. إنه أمر قذر وحاقد.

ثم أضاف كما لو كان يتحدث مع نفسه: لا يعقل أن يكون الأمر من شخص في المنطقة يحمل لكما ضغينة، أعني ضغينة لأيٍ منكما شخصياً.

– لا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، فنحن غريبان هنا.

قال: "سأبحث في هذا الأمر". ثم نهض واقفاً ليذهب وهو ينظر حوله وقال: لقد أعجبني بيتكما هذا. لم أحسب أنني سأحبه؛ فأنا رجل عجوز قديم الطراز قليلاً وأحب البيوت القديمة والمباني القديمة. لا أحب عُلَب الثقاب تلك التي تشمخ في كل أنحاء البلد. إنها مجرد صناديق ضخمة، أشبه بخلايا النحل. أحب أن يكون للمباني شيء من الزخرفة، شيء من الجمال. ولكن هذا البيت أعجبني؛ فهو بسيط وحديث جداً فيما أراه، ولكن له شكلاً فريداً وإضاءة جيدة. وعندما تنظر منه إلى الخارج ترى الأشياء... ترى الأشياء بطريقة مختلفة عما رأيتها من قبل. إنه مثير... مثير جداً. مَن الذي صممه؟ مهندس إنكليزي أم أجنبي؟

أخبرته عن سانتونيكس، فقال: هممم، أظنني قرأتُ عنه في مكان ما. أيمكن أن يكون في مجلة البيت والحديقة؟

قلتُ له إن سانتونيكس مشهور تماماً فقال: أودّ لو أقابله يوماً ما، رغم أنني لا أظن أنني سأعرف ماذا أقول له، فأنا لا أفقه في الأمور الفنية.

ثم طلب منا أن نحدد يوماً نأتي فيه لتناول الغداء معه ومع زوجته، وقال: ستريان إن كنتما ستُعجبان ببيتي.

سألتُه: أحسبه بيتاً قديماً، أليس كذلك؟

– لقد بني عام ١٧٢٠، وهي فترة رائعة. كان البيت الأصلي يعود إلى العصر الإليزابيثي، وقد احترق في نحو عام ١٧٠٠ وتم بناء بيت جديد في نفس المكان.

- لقد عشتم دائماً هنا إذن؟

لم أكن أقصده هو شخصياً بالطبع، ولكنه فهمني وقال: نعم، لقد كنا هنا منذ العصر الإليزابيثي. نكون أحياناً في أحسن حال، وأحياناً تتقلب الأمور، نبيع الأراضي عندما تسوء الأمور، ونعود فنشتريها عندما تتحسن. سيسعدني أن أريكما البيت.

ثم قال وهو ينظر إلى إيلي مبتسماً: "أعرف أن الأمريكيين يحبون البيوت القديمة". ثم قال لي: ربما كنتَ أنت الذي لن يعجبه البيت.

قلت: لن أدّعي أنني أعرف الكثير عن البيوت القديمة.

وعندها غادر بمشيته الثقيلة إلى سيارته، وكانت سيارة قديمة مستهلكة تلاشى لونها، ولكني كنتُ قد تعلمتُ قيمي الجديدة الآن. عرفتُ أنه ما يزال السيد المُطاع في هذه المنطقة، وقد حظينا بقبول حسن منه، كان بوسعي أن أدرك ذلك. لقد أحب إيلي. وكنتُ أميل للقول بأنه أحبني أنا أيضاً، رغم أنني لاحظتُ نظرات التقويم التي كان يرميني بها من وقت لآخر، وكأنه كان يُشكِّل رأياً سريعاً عن شيء لم يصادفه من قبل.

عندما عدتُ إلى غرفة الجلوس كانت إيلي تضع شظايا الزجاج بحذر في سلة المهملات. قالت بأسف: أنا آسفة لأن هذه الآنية قد انكسرت؛ لقد كنتُ أحبها.

- يمكننا شراء واحدة مثلها.

- أعرف. ما الذي أجفلك يا مايك؟

فكرتُ للحظات ثم قلت: أحفلني شيء قاله فيلبوت. لقد ذكّرني بشيء حدث عندما كنتُ طفلاً. كان لي صديق في المدرسة، وكنا طفلين شقيين سخيفين. وذات يوم تغيبنا عن المدرسة وذهبنا لنمارس التزلج فوق بركة في المنطقة تجمد سطحها، ولكن الجليد لم يتحملنا، وقد انخسف به الجليد فغرق قبل أن يستطيع أحد إخراجه.

– ما أفظع ذلك!

– نعم. كنتُ قد نسيتُ كل شيء عن الموضوع حتى ذكر الميجر فيلبوت مسألة أخيه.

– لقد أعجبني يا مايك، هل أعجبك أنت؟

– نعم، كثيراً. أتساءل كيف هي زوجته.

* * *

ذهبنا للغداء في بيت الميجر فيلبوت في بداية الأسبوع التالي. كان بيتاً أبيض من الطراز الجورجي، لا يخلو من جمال في خطوطه العامة، رغم أنه ليس مثيراً على نحو خاص. أما من الداخل فقد كان بالياً ولكنه مريح، وقد عُلّقت لوحات لمن اعتبرتهم أسلافاً على جدران غرفة الطعام الطويلة. ورأيتُ أن معظم تلك اللوحات كان سيئاً تماماً، رغم أنها كان يمكن أن تبدو أفضل لو نُظّفت. وكانت هناك لوحة لفتاة شقراء الشعر في ثوب من الساتان الأحمر أعجبتني قليلاً.

وقد ابتسم الميجر فيلبوت وقال: لقد اخترتَ واحدة من أفضل

لوحاتنا. إنها من رسم توماس غينزبورو، وهي لوحة جيدة من لوحاته. رغم أن صاحبة الصورة قد سببت بعض المتاعب في زمانها، فقد ثارت شكوك قوية بأنها سممت زوجها، ولكن ربما كان ذلك مجرد تحيز ضدها لأنها كانت أجنبية، إذ كان غيرفاز فيلبوت قد أحضرها من مكان ما خارج البلاد.

كان بعض الجيران الآخرين قد دُعوا أيضاً للقائنا. الدكتور شو، وهو رجل كهل ذا سمت لطيف ولكنه مُتعَب، وقد اضطر للخروج على وجه السرعة قبل أن نتم غداءنا. وكان هناك القس الذي كان شاباً وجدياً، وامرأة في وسط عمرها ذات صوت مسيطر تربي الكلاب الصغيرة. وكانت هناك فتاة سمراء طويلة جميلة تدعى كلوديا هاردكاسل بدا أنها كرست حياتها للخيول، رغم أن ما كان يعيقها هو تعرضها لحساسية تسبب لها نوبات عنيفة مما يُسمى حمى القش.

وقد انسجمت هي وإيلي بشكل جيد. كانت إيلي تعشق ركوب الخيل، وكانت هي أيضاً تعاني من نوع من أنواع الحساسية. قالت: في أمريكا عادة ما تكون زهرة الشيخ هي التي تسبب لي الحساسية، ولكن الخيول أيضاً تسببها لي أحياناً. إنها لا تزعجني كثيراً هذه الأيام، إذ توجد مثل تلك الأدوية الرائعة التي يعطيها الأطباء لمختلف أنواع الحساسية. سأعطيك بعضاً من كبسولاتي. إنها باللون البرتقالي اللامع، وإذا ما تذكرتِ تناول واحدة منها قبل البدء في عملك فلن تعطسي عطسة واحدة.

قالت كلوديا هاردكاسل إن ذلك سيكون رائعاً، ثم أضافت: إن الجِمال تثير لديّ تلك الحساسية أكثر مما تثيرها الخيول. لقد كنتُ

في مصر في العام الماضي، وكانت الدموع تهطل وتغطي وجهي وأنا أدور حول الأهرامات على ظهر جمل.

قالت إيلي إن بعض الناس يتحسسون من القطط والوسائد، ثم مضتا تتحدثان عن الحساسية.

كنتُ أجلس بجانب السيدة فيلبوت التي كانت طويلة نحيلة وتتحدث -حصراً- عن صحتها في الفترات التي تفصل بين تناولها لوجبات دسمة، وقد أعطتني تقريراً كاملاً عن كل العلل التي تشكو منها، ومدى حيرة العديد من كبار الأطباء في معرفة حالتها. وكانت تخرج بين حين وآخر -من باب اللباقة- عن موضوعها الأثير هذا لتسألني عما أفعله أنا. وقد تفاديت هذا السؤال، ثم قامت بجهود فاترة لتكتشف من الذين أعرفهم. وقد كان بوسعي أن أجيبها صادقاً: "لا أحد"، ولكنني رأيت أن من الأفضل أن أمتنع عن ذلك، خاصة وأنها لم تكن حقاً ممن يحسون بنقص احتماعي، ولم تكن تريد حقاً أن تعرف. أما مربية الكلاب (التي لم أتذكر اسمها) فقد كانت أعمق وأشمل بكثير في أسئلتها، ولكنني حولتُ الموضوع إلى ما يميز الأطباء البيطريين عموماً من احتيال وجهل! وقد مضى كل شيء بلطف وهدوء، وإن كان بشكل يثير الملل.

وفيما بعد، وبينما كنا نقوم بجولة غير منظمة في الحديقة، انضمت كلوديا هاردكاسل إليّ وقالت بشكل مفاجئ نوعاً ما: لقد سمعتُ عنك... من أخي.

بدت عليّ الدهشة، فلم أستطع أن أتصور معرفةً لي بأخٍ لكلوديا

هاردكاسل. قلتُ لها: أأنتِ واثقة؟

بدت متسلية بالموضوع وقالت: الحقيقة أنه هو الذي بنى بيتكما.

– أتعنين أن سانتونيكس أخوك؟!

– نصف أخ. مع أنني لا أعرفه معرفة جيدة جداً؛ فنادراً ما نلتقي.

– إنه رائع.

– بعض الناس يرونه هكذا، أعرف ذلك.

– ألا ترينه هكذا أنت؟

– أنا غير واثقة أبداً. إن فيه جانبين، فقد كان في وقت من الأوقات ينحدر ويتراجع ولم يكن الناس يريدون أية علاقة معه، وبعد ذلك... بدا وكأنه تغير. بدأ ينجح في مهنته بطريقة غريبة جداً. كان الأمر وكأنه كان...

توقفت وهي تبحث عن كلمة، ثم قالت: وكأنه كان مكرساً نفسه لعمله.

– أظن أنه كذلك... تماماً.

ثم سألتُها إن كانت قد رأت بيتنا فقالت: لا. ليس بعد أن اكتمل.

قلت لها إن عليها أن تأتي وتراه، فقالت: أحذّرك بأنني لن أحبه.

أنا لا أحب البيوت الحديثة؛ إن بيوت عصر الملكة آن هي المفضَّلة لديّ.

قالت إنها ستُدخل إيلي إلى نادي الغولف وإنهما ستركبان الخيول معاً. كانت إيلي ستشتري حصاناً، وربما أكثر من حصان. وبدا أنها وإيلي أصبحتا صديقتين.

وعندما كان فيلبوت يريني إسطبلاته قال بضع كلمات عن كلوديا: إنها تقود الخيول بشكل رائع خلف كلاب الصيد. من المؤسف أنها أفسدت حياتها.

- أوقد أفسدتها؟

- لقد تزوجت رجلاً غنياً يكبرها بسنوات، وكان أمريكياً اسمه لويد. ولم ينجح الزواج، وانفصلا على الفور تقريباً، وعادت هي لاسمها الأول. لا أظنها ستتزوج ثانية أبداً؛ إنها معادية للرجال! أمر مؤسف.

وعندما كنا نقود السيارة عائدين إلى البيت قالت إيلي: إن القوم هنا مملّون... ولكنهم لطفاء. أناس لطفاء. سنكون سعيدين جداً هنا، أليس كذلك يا مايك؟

- نعم، سنكون كذلك.

وعندما عدنا أنزلتُ إيلي أمام البيت وأخذتُ السيارة فوضعتُها في الموقف. وفيما أنا أمشي عائداً نحو البيت سمعتُ نقرات خفيفة على غيتار إيلي. كان لديها غيتار إسباني قديم جميل لا بد أنه كان

يساوي ثروة، وقد اعتادت أن تغني عليه بصوت منخفض رقيق أقرب للهمهمة، وكان سماعه لذيذاً جداً. لم أكن أعرف غالبية الأغاني التي تغنيها. أحسب أن بعضها من الأشعار الغنائية الإيرلندية والإسكوتلندية القديمة، عذبة ولا تخلو من حزن.

استدرتُ حول المصطبة الخارجية وتوقفتُ أمام بابها الزجاجي قبل أن أدخل. كانت إيلي تغني واحدة من أغانيّ المفضلة. ولا أدري ماذا كان اسمها. كانت تهمهم بالكلمات بهدوء مع نفسها وهي تحني رأسها على الغيتار وتداعب أوتاره بلطف. وكان للأغنية لحن عذب حزين ساحر:

للسعد والأسى، قد خُلق الإنسان
وعندما نعرف هذا جيداً،
فإننا نعيش في أمان.
في كلِّ صبحٍ ينقضي، أو ينقضي مساء،
يولد بعض الناس للشقاء،
كلَّ مساء ينقضي، أو ينقضي صباح،
يولد بعض الناس للأفراح،
لكلٍّ ما لذّ من الأفراح،
ويولَد البعضُ لِلَيلٍ لا ينتهي.

رفعت بصرها فرأتني، فقالت: لماذا تنظر إليّ هكذا يا مايك؟

- كيف هكذا؟

- إنك تنظر إليّ كما لو كنتَ تحبني...

- أنا أحبك بالطبع. كيف أنظر إليك بغير ذلك؟

- ولكن بماذا كنتَ تفكر الآن بالضبط؟

أجبتها ببطء وبصدق: كنتُ أفكر بك كما رأيتُك أول مرة... واقفة عند شجرة تنّوبٍ داكنة.

نعم، كنتُ أتذكر تلك اللحظة الأولى لرؤيتي إيلي، دهشة اللحظة وانفعالها...

ابتسمت إيلي لي وغنت برقة:

كلَّ مساء ينقضي، أو ينقضي صباح،
يولد بعض الناس للأفراح،
لكلِّ ما لذَّ من الأفراح،
ويولَد البعضُ لليلٍ لا ينتهي.

إن المرء لا يدرك في حياته اللحظات الهامة حقاً... إلاّ بعد أن يفوت الوقت كثيراً.

ذلك اليوم الذي تغدينا فيه لدى عائلة فيلبوت وعدنا إلى بيتنا بكل تلك السعادة كان من تلك اللحظات، ولكني لم أعرف وقتها.. لم أعرف إلاّ فيما بعد.

قلتُ لها: غنِّ تلك الأغنية عن الفراشة.

فتحوّلَتْ إلى لحنٍ بهيج راقص وغنت:

أيتها الفراشة الصغيرة الجميلة،
إن يدي الغافلة الثقيلة،
قد هبطت لتمحوَ لهوَكِ الصيفيّ.
ألستُ فراشة مثلك؟
فأنا أرقص وأغني،
حتى تجيءَ يدٌ عمياء، فتمحوَ جناحي.
إن كان التفكير هو الحياة،
وهو القوة والنَفَسْ،
وإن كان نقص التفكير هو الموت،
فأنا -إذن- فراشة سعيدة،
سواء عشتُ أم مُتّ.

آه يا إيلي... يا إيلي...

*   *   *

- ١٥ -

إنه لمن المدهش في هذه الدنيا كيف أن الأمور لا تنتهي أبداً كما يتوقع لها المرء!

كنا قد انتقلنا إلى بيتنا، وأصبحنا نعيش فيه، وابتعدنا عن الجميع، تماماً كما كنت أنوي وأخطط. إلاّ أننا طبعاً لم نبتعد حقاً عن الجميع، فقد عادت الأمور لتتراكم فوق رؤوسنا قادمة من أمريكا عبر المحيط، وبوسائل أخرى أيضاً.

كان ذلك في البداية من قِبل زوجة والد إيلي التعيسة؛ فقد أرسلت رسائل وبرقيات وطلبت من إيلي أن تذهب وترى مكاتب العقارات. قالت إنها قد افتُتنت كثيراً ببيتنا بحيث شعرت أنها يجب أن تمتلك حقاً بيتاً خاصاً بها في إنكلترا، وقالت إنها تحب أن تقضي شهرين من كل عام في إنكلترا. وسرعان ما وصلت بعد آخر برقية لها، وأصبحنا مضطرين لاصطحابها لتتجول في المنطقة وترى الكثير من البيوت المعروضة للبيع. وفي النهاية استقر رأيها -بشكل أو بآخر- على أحد البيوت، وكان بيتاً يبعد نحواً من خمسة عشر ميلاً عن بيتنا. لم نكن نريدها هناك، وقد كرهنا فكرة وجودها قربنا... لكننا لم

نستطيع قول ذلك. أو أن ما أعنيه -بالأحرى- هو أننا (حتى لو قلنا لها ذلك) فما كان ذلك ليوقفها عن شرائه إذا ما رغبت فيه. وفيما كانت تنتظر تقريراً من مسّاح أراضٍ جاءت بعض البرقيات الأخرى.

بدا أن العم فرانك قد أوقع نفسه في ورطة ما، وفهمت أنه أمر يتصف بالاحتيال، مما يعني الحاجة إلى مبلغ ضخم من المال لإخراجه من ورطته. وتُبودل المزيد من البرقيات بين السيد ليبنكوت وإيلي. ثم تبيّن وجود مشكلة ما بين ستانفورد لويد وليبنكوت؛ فقد حدثت مشاجرة حول بعض استثمارات إيلي. وكنتُ قد ظننتُ -لجهلي وسذاجتي- أن الناس في أمريكا كانوا بعيدين كثيراً، ولم أكن قد أدركتُ أبداً أن أقارب إيلي ومعارفها في مجال العمل لا يترددون أبداً في ركوب الطائرة إلى إنكلترا لأربع وعشرين ساعة والعودة بعد ذلك لأمريكا. فقد جاء أولاً ستانفورد لويد وعاد، ثم جاء آندرو ليبنكوت.

اضطرت إيلي للذهاب إلى لندن ومقابلته، ولم أكن قد اكتسبتُ معرفة بتلك الأمور المالية، وظننتُ أن الجميع حريصون كثيراً فيما يقولونه. ولكن الأمر كان ذا صلة بتحويل أموال صناديق الائتمان إلى إيلي، كما أثيرت نقطة مشؤومة تشير إلى أحد احتمالين: إما أن السيد ليبنكوت قد أخّر هذه القضية، أو أن ستانفورد لويد هو الذي يعيق عملية الحسابات.

وفي فترة الهدوء بين هذه المخاوف اكتشفنا، أنا وإيلي، في الأراضي التابعة لبيتنا بيتاً صغيراً بسيطاً. لم نكن قد بحثنا -حتى ذلك الوقت- في كل الأراضي التابعة لبيتنا، ولم نتجول سوى في ذلك الجزء المحيط به، وقد اعتدنا على أن نتبع الطرق الترابية خلال الغابات

لنرى إلى أين تقودنا. وفي أحد الأيام اتبعنا طريقاً كانت النباتات قد نبتت فوقه إلى الحد الذي لا يكاد معه المرء يرى مكانه بداية. ولكننا ميّزنا خط سيره واتبعناه، وفي النهاية أفضى الطريق إلى بيت صغير أبيض بسيط الشكل. وكان بحالة جيدة نسبياً، ولذلك نظفناه وطليناه، ووضعنا فيه طاولة وبعض الكراسي وأريكة وخزانة في الزاوية وضعنا فيها بعض الأواني الصينية والزجاجات والكؤوس. كان ذلك ممتعاً حقاً، وقالت إيلي إننا سننظف الطريق المفضية إليه بحيث يسهل الصعود فيها، ولكنني اعترضتُ قائلاً إنه سيكون من الأمتع ألاّ يعرف أحدٌ غيرنا بمكان وجوده.

ورأت إيلي في اقتراحي هذا فكرة رومانسية، ووافقتني قائلة: لن ندع كورا تعرف مكانه بالتأكيد.

وذات يوم كنا عائدين منه، ليس في زيارتنا الأولى له، ولكن بعد أن سافرت كورا وكنا نأمل أن ننعم بالهدوء ثانية، وكانت إيلي تتقافز أمامي بخفة فتعثرت فجأة بجذر شجرة ووقعت فلوت كاحلها.

جاء الدكتور شو وقال إنها قد تعرضت لالتواء سيء في الكاحل ولكنها ستصبح على ما يرام في غضون أسبوع. وعندها أرسلتْ إيلي في طلب غريتا. ولم أستطع الاعتراض؛ فلم يكن عندنا مَن يمكن أن يعتني بها بشكل جيد، أعني من النساء؛ إذ لم يكن في خادماتنا كثير فائدة، وقد أرادت إيلي -على أية حال- أن تحضر غريتا، وهكذا جاءت غريتا.

جاءت وكانت نعمة كبرى بالنسبة لإيلي بالطبع، وكذلك بالنسبة

لي بالنتيجة؛ فقد رتبت الأمور وحافظت على حسن سير العمل في البيت. وكان خدمنا قد أبلغونا بنيتهم ترك العمل في ذلك الوقت قائلين إن المكان موحش جداً، فنشرت غريتا إعلاناً وحصلت على خادمتين على الفور تقريباً. وقد اعتنت بكاحل إيلي، وأحضرت لها أشياء تعرف أنها تحبها (من الكتب والفواكه وغير ذلك من الأشياء... الأشياء التي لم أكن أعرف عنها شيئاً)، وقد بدتا سعيدتين جداً معاً. كانت إيلي مسرورة بالتأكيد برؤية غريتا. وبشكل أو بآخر، لم تعد غريتا لتغادر ثانية... بل بقيت مستمرة في البيت. قالت لي إيلي: لا أحسبك تمانع إن بقيت غريتا لفترة، أليس كذلك؟

- آه، لا، لا أمانع بالطبع.

- إن وجودها مبعث راحة عظيمة، فالحقيقة أنه يوجد الكثير من الأمور ذات الطابع الأنثوي التي نستطيع فعلها معاً. إن المرء يشعر بوحدة فظيعة دون وجود امرأة أخرى قريبة.

ولاحظتُ أن غريتا كانت تتولى -في كل يوم- شأناً جديداً، فتصدر الأوامر، وتتصرف كملكة على مختلف الشؤون. وقد تظاهرتُ بأنني أحب وجود غريتا، ولكن في أحد الأيام كانت إيلي تتمدد وقد عُلِّقت قدمها داخل غرفة الجلوس، وكنتُ أنا وغريتا على المصطبة الخارجية، وفجأة نشأ شجار بيننا. لا أستطيع تذكر الكلمات التي أدت إلى ذلك بالضبط، ولكن شيئاً قالته غريتا أزعجني فأجبتها بحدة، ثم مضينا نتشاجر بكل قوة. ارتفع صوتانا، وأشبعتني سباباً قائلة كل ما خطر على بالها من أمور سيئة مجحفة، ولم أتردد أنا في رد الصاع صاعين، فقلتُ لها إنها متسلطة تحاول فرض سيطرتها والتدخل في كل

شيء وإن لها تأثيراً أكبر بكثير على إيلي، وقلت إنني لن أتحمل أن يسيطر أحد على إيلي طوال الوقت. أخذنا نصرخ ببعضنا البعض، ثم جاءت إيلي فجأة إلى المصطبة وهي تعرج، وأخذت تُنقِّل نظرها بيننا نحن الاثنين، فقلتُ: حبيبتي، إنني آسف، آسف جداً.

عدتُ لدخول البيت ومدّدتُ إيلي على الأريكة ثانية فقالت: أنا لم أدرك... لم أدرك أبداً بأنك... بأنك كرهتَ حقاً وجود غريتا هنا.

هدّأتها وسرّيتُ عنها وقلتُ إنني فقدت أعصابي فقط، وإنني أكون أحياناً ميّالاً للشجار. قلتُ إن القضية كلها هي أنني رأيتُ غريتا متسلطة قليلاً. وربما كان ذلك طبيعياً تماماً لأنها اعتادت أن تكون كذلك. وفي النهاية قلتُ إنني لم أكره غريتا في الواقع، والمسألة لا تعدو أنني فقدتُ أعصابي لأنني كنتُ منزعجاً قلقاً. وهكذا انتهى بي الأمر إلى التوسل لغريتا لكي تبقى!

كان ما مر بيننا مشهداً لا يُنسى، وأحسب أن الكثيرين ممّن في البيت قد سمعوه أيضاً، وقد سمعه –دون شك– خادمنا الجديد وزوجته. إنني أصرخ عادة عندما أغضب، وأظن أنني بالغتُ قليلاً في الصراخ، فأنا كذلك عادة.

وبدا أن غريتا قد جعلت دأبها القلق على صحة إيلي، وهي تؤكد أنها لا ينبغي أن تفعل كذا أو تقوم بكذا. قالت لي: إنها ليست قوية جداً حقاً.

أجبتُها: ليس في إيلي شيء؛ إنها دوماً في أحسن حال.

- لا، إنها ليست كذلك يا مايك؛ إنها رقيقة ناعمة.

وعندما جاء الدكتور شو ثانية لإلقاء نظرة على كاحل إيلي، وليخبرها -بالمناسبة- أنها أصبحت بخير تماماً من جديد وأنها لن تُضطر إلاّ لربط كاحلها إن كانت ستسير على أرض متعرجة، عندها قلتُ له بالطريقة السخيفة التي يعمد إليها الرجال: إنها ليست رقيقة الصحة، أليس كذلك يا دكتور شو؟

- من قال إنها رقيقة الصحة؟

كان الدكتور شو من أولئك الأطباء العامّين النادرين كثيراً هذه الأيام، والحقيقة أنه كان معروفاً محلياً بالسيد «اتركها للطبيعة شو». قال: ليس فيها شيء بقدر ما أرى. يمكن لأي امرئ ان يلوي كاحله.

- لم أعنِ كاحلها. كنتُ أتساءل إن كان قلبها ضعيفاً مثلاً.

نظر إليّ من فوق نظارته وقال: لا تبدأ بتخيل الأمور أيها الشاب. ما الذي أدخل هذه الفكرة في رأسك؟ أنت لستَ من النوع الذي يقلق عادة من علل النساء.

- كان ذلك ما قالته الآنسة أندرسن فقط.

- آه، الآنسة أندرسن. وماذا تعرف عن ذلك؟ أهي مؤهلة طبياً؟

- لا.

- إن زوجتك امرأة ذات ثراء واسع، حسبما تقوله الإشاعات المحلية على الأقل. فبعض الناس يتخيلون أن كل الأمريكيين أثرياء.

- إنها ثرية فعلاً.

- حسناً، ينبغي أن تتذكر هذا الأمر: إن النساء الثريات يُصَبنَ بأسوأ الأمور من أكثر من وجه؛ إذ ترى أن هذا الطبيب أو ذاك يعطيهن حبوباً ومساحيق ومحفِّزات أو منشطات أو مهدئات... أشياء من الأفضل عموماً عدم تعاطيها. وأنت ترى نساء القرى أتم صحة لأن أحداً لا يقلق على صحتهن بنفس الطريقة.

- إنها تتناول بعض الكبسولات بالفعل.

- يمكنني أن أفحصها بدقة وأرى أدويتها إن شئت، فلعلي أحد ما أُعطي لها من قذارة. تأكد أنني قلت لبعض الناس قبل الآن: "ارموا كل أدويتكم في سلة المهملات".

ثم تحدث مع غريتا قبل مغادرته قائلاً: لقد طلب مني السيد روجرز إجراء فحص عام للسيدة روجرز، ولم أعثر على أي علة فيها. أحسب أن المزيد من التمارين في الهواء الطلق ستفيدها. ما الذي تتناوله من أدوية؟

- لديها بعض الحبوب تتناول منها عندما تكون متعبة، والبعض تتناوله للنوم إذا ما رغبت بذلك.

ثم ذهبت هي والدكتور شو الذي ألقى نظرة على وصفات إيلي الطبية، وقد ابتسمت إيلي قليلاً وقالت: أنا لا أتناول كل هذه الأدوية يا دكتور شو. لا أتناول إلاّ كبسولات الحساسية.

ألقى الدكتور شو نظرة على الكبسولات، وقرأ الوصفة وقال إنها

غير ضارة، ثم انتقل إلى وصفة للحبوب المنومة، وسأل: ألديك أي مشكلات في النوم؟

- ليس وأنا أعيش في الريف. لا أظنني تناولتُ قرصاً منوماً واحداً منذ أن أتيتُ إلى هنا.

ربت على كتفها وقال: حسناً، هذا أمر جيد. ليس فيك أي شيء غير طبيعي يا عزيزتي. أحسبك تميلين للقلق أحياناً، هذا كل ما في الأمر. وهذه الكبسولات مخففة تماماً، ويتناولها الكثير من الناس هذه الأيام دون أن تضرهم. استمري في تناولها ولكن دعي حبوب النوم وشأنها.

قلتُ لإيلي معتذراً: لا أدري لماذا قلقتُ... أحسب أن غريتا كانت السبب.

قالت إيلي وهي تضحك: آه، إن غريتا تبالغ في حدبها علي، وهي نفسها لا تتناول مثل أدويتي. سوف نقوم بحملة تنظيف يا مايك ونرمي معظم هذه الأدوية.

* * *

طورت إيلي علاقات صداقة جيدة مع أغلب الجيران، وكانت كلوديا هاردكاسل تأتي كثيراً، وكانت تخرج -من حين لآخر- مع إيلي لركوب الخيل. لم أكن أركب الخيل، فقد تعاملتُ مع السيارات والآلات طوال حياتي، ولكن لم أعرف حتى ألفباء الخيول، رغم أنني

عملتُ مرة في تنظيف الإسطبلات في إيرلندا لأسبوع أو أسبوعين، ولكني فكرت مع نفسي بأنني سأذهب (في وقت ما عندما نكون في لندن) إلى إسطبل راقٍ لتعلم ركوب الخيل لأتعلم كيف أركبها بشكل جيد. لا أريد أن أبدأ تعلمي هنا؛ فمن شأن الناس أن يسخروا مني غالباً. وقد رأيتُ أن ركوب الخيل ربما كان جيداً بالنسبة لإيلي؛ فقد بدا أنها تستمتع به. وقد شجعتها غريتا على ركوب الخيل، رغم أن غريتا نفسها لم تكن تعرف شيئاً عن الخيل هي الأخرى.

ذهبت إيلي وكلوديا معاً إلى مزاد لبيع الخيول، واشترت إيلي لنفسها -بناءً على نصيحة من كلوديا- حصاناً كستنائي اللون يُدعى كونكر. وقد ألححتُ على إيلي كي تنتبه عندما تخرج بمفردها لركوبه، ولكنها ضحكت من إلحاحي وقالت: لقد ركبتُ الخيول منذ أن كنتُ في الثالثة من عمري.

وهكذا كانت تخرج عادةً لركوب الخيل مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، كما اعتادت غريتا أن تركب السيارة وتذهب إلى ماركت تشادويل للقيام بشراء الحاجيات.

في أحد الأيام قالت غريتا وقت الغداء: يا لكما ولغجركما! لقد كانت هناك امرأة فظيعة الشكل صباح اليوم. وقفت في وسط الطريق بحيث كان يمكن أن أدعسها. اكتفت بالوقوف ساكنة أمام السيارة، وقد اضطررتُ للتوقف وأنا أصعد التلة.

- لماذا، ما الذي أرادته؟

كانت إيلي تصغي إلينا دون أن تقول شيئاً. قالت غريتا: مجرد

وقاحة مطلقة، لقد هددتني.

قلتُ بحدة: هددتكِ؟!

- قالت لي إن عليّ أن أخرج من هنا. قالت: "هذه أرض الغجر هنا. ارجعوا... ارجعوا جميعاً. عودوا إلى حيث جئتم إن كنتم ترغبون في البقاء سالمين". ثم رفعت قبضتها وهزتها في وجهي قائلة: "إنْ أنا لعنتُك فلن تجدي خيراً بعد ذلك أبداً. تشترون أرضنا وتبنون عليها بيوتاً. نحن لا نريد بيوتاً حيث يجب أن يكون سكان الخيام".

قالت غريتا أكثر من هذا بكثير، وقالت لي إيلي بعد ذلك وهي تقطب جبينها قليلاً: لقد بدا الأمر كله غير ممكن، ألا ترى ذلك يا مايك؟

- أظن أن غريتا كانت تبالغ قليلاً.

- لم يبدُ كلامها صحيحاً على نحوٍ ما. أتساءل إن كانت غريتا قد ألّفت بعضه من لدنها.

فكرتُ ثم قلت: "ولماذا يمكن أن ترغب بتأليف تلك القصص؟". ثم سألتُها بحدة: ألم تري أنت صاحبتّنا إيستر مؤخراً، وأنت تخرجين لركوب الخيل؟

- المرأة الغجرية؟ لا.

- لا تبدين واثقة تماماً من ذلك يا إيلي.

- أظنني لمحتها لمحات سريعة وهي تقف بين الأشجار وتُطلّ

من خلالها، ولكنها لم تكن قريبة بحيث يمكنني الجزم.

ولكن إيلي عادت ذات يوم من جولتها المعتادة لركوب الخيل وهي شاحبة ترتعد؛ فقد خرجت العجوز من بين الأشجار، فشدت إيلي عنان فرسها وتوقفت لتتكلم معها. قالت إن العجوز كانت تهز قبضتها وتدمدم من بين أسنانها، وقالت إيلي: وفي هذه المرة غضبتُ وقلتُ لها: "ما الذي تريديه هنا؟ هذه الأرض ليست أرضك. إنها أرضنا وبيتنا". فقالت العجوز عندئذ: "إنها لن تكون أرضكم أبداً، ولن تكون لكم أبداً. لقد حذرتُكِ مرة، وأحذرك مرة أخرى، ولن أحذرك بعد ذلك. لن يطول الأمر الآن... يمكنني أن أؤكد لك ذلك. إن الموت هو ما أراه... هناك خلف كتفك الأيسر. إنه الموت يقف قربك، والموت سوف يأخذك. إن لهذا الحصان الذي تمتطينه ساقاً واحدة بيضاء. ألا تعلمين أن امتطاء حصان برجل بيضاء واحدة دليل الحظ العاثر؟ إن الموت هو ما أراه، وسوف يتهاوى البيت الضخم الذي بنيتموه ليصبح خراباً!".

قلتُ بغضب: لا بد من وقف هذا الأمر.

لم تستبعد إيلي ذلك بضحكة هذه المرة، وقد بدت هي وغريتا كلاهما منزعجتين. ذهبتُ مباشرة إلى القرية، وعمدتُ بداية إلى بيت السيدة لي الصغير. ترددتُ دقيقة ولكن لم يكن في البيت ضوء، فذهبتُ إلى مركز الشرطة. كنتُ أعرف العريف المسؤول، العريف كين، وهو رجلٌ مربوع القامة عقلاني التفكير. أصغى إليّ ثم قال: أنا آسف لتعرضكم لهذه المشكلة. إنها امرأة عجوز خَرِفة، وربما بدأت تصبح مزعجة. سأتكلم معها وأطلب منها أن تكف عن ذلك.

- نعم، إذا سمحت.

تردد لحظات ثم قال: أنا لا أحب الإيحاء بالأمور... ولكن حسب معلوماتك يا سيد روجرز، هل يوجد أحد هنا يمكن -لسبب تافه ما- أن يُكِنَّ لك أو لزوجتك ضغينة؟

- أظن أن ذلك أبعد الأشياء احتمالاً، لماذا؟

- لقد كانت السيدة لي مؤخراً تمتلك الكثير من المال... ولا أدري من أين أتاها.

- ما الذي توحي به؟

- ربما كان أحدهم يدفع لها... أحد يريد خروجكم من هنا. لقد وقع حادث مشابه منذ سنوات طويلة؛ فقد أخذت مالاً من أحد الناس في القرية لكي تخيف أحد الجيران وتُبعده، وذلك عن طريق القيام بمثل هذه الأمور... التهديدات، والتحذيرات، وقصص العين الشريرة... إن أهالي القرى يؤمنون بالخرافات، وسوف تندهش لو علمت عدد القرى التي تمتلك كل منها ساحرتها المحلية الخاصة إذا صح التعبير. وقد تلقت العجوز إنذاراً وقتها ولم تحاول -حسب علمي- القيام بذلك منذ ذلك الحين. ولكن الأمر قد يكون من هذا القبيل؛ فهي تحب المال كثيراً، ومن شأنها أن تفعل الكثير من أجله.

ولكني لم أستطع تقبل تلك الفكرة. قلتُ للعريف كين إننا غريبان تماماً هنا وأضفت: لم يُتح لنا الوقت لإثارة أية عداوات.

عدتُ أمشي إلى البيت وأنا قلق حائر، وفيما أنا أستدير عند

زاوية المصطبة سمعتُ صوتاً خافتاً لغيتار إيلي، واستدار جسمٌ طويل كان يقف عند الباب الزجاجي وينظر إلى الداخل ثم جاء باتجاهي. حسبتُ -للحظة- أنه غجري، ثم استرحتُ عندما ميّزتُ أنه لم يكن سوى سانتونيكس. قلتُ وأنا أشهق قليلاً: آه، هذا أنت. من أين ظهرت فجأة؟ لم نسمع منك شيئاً من أمد بعيد.

لم يجبني مباشرة، بل اكتفى بأن أمسك بذراعي وسحبني بعيداً عن الباب الزجاجي قائلاً: إنها هنا إذن! لا يدهشني ذلك؛ فلقد عرفتُ أنها ستأتي عاجلاً أم آجلاً. لماذا سمحتَ لها؟ إنها خطيرة، يجب أن تعرف ذلك.

- أتعني إيلي؟

- كلا، كلا، ليس إيلي. بل الأخرى! ما هو اسمها؟ غريتا؟

حدقتُ به، فقال: هل تعرف حقيقة غريتا أم لا تعرف؟ لقد أتت، أليس كذلك؟ فرضت سيطرتها! لن تستطيع التخلص منها الآن. لقد جاءت لتبقى.

- لقد لوت إيلي كاحلها فجاءت غريتا لتعتني بها. إنها... أحسب أنها ستغادر قريباً.

- أنت لا تعرف شيئاً من ذلك. لقد كانت تنوي المجيء دوماً. كنتُ أعرف ذلك. لقد فهمتها تماماً عندما جاءت إلى هنا عندما كان البيت في طور البناء.

- يبدو أن إيلي تريدها.

- آه، نعم، لقد قضت فترة طويلة مع إيلي، أليس كذلك؟ إنها تعرف كيف تتحكم بإيلي.

كان هذا هو ما قاله ليبنكوت. وقد رأيتُ بأم عيني كم كان ذلك صحيحاً.

- أتريدها هنا يا مايك؟

قلتُ بانزعاج: لا أستطيع رميها خارج المنزل. إنها صديقة إيلي القديمة، بل أقرب صديقاتها. ماذا عساني أستطيع العمل؟

- نعم، أحسب أنك لا تستطيع فعل شيء، أليس كذلك؟

ثم نظر إلي. وكانت نظرته غريبة جداً. وكان سانتونيكس نفسه رجلاً غريباً. لا يمكن للمرء أن يعرف ما تعنيه كلماته حقاً. قال: أتعرف إلى أين أنت ذاهب يا مايك؟ هل لديك أية فكرة عن ذلك؟ أحياناً لا أظن أنك تعرف شيئاً على الإطلاق.

- بل أعرف بالطبع. إنني أفعل ما أريد فعله وأذهب إلى حيث أردتُ الذهاب.

- أحقاً؟ أنا أشك... أشك في أنك تعرف -حقاً- ما تريده. وأنا خائف عليك مع غريتا؛ إنها أقوى منك.

- لا أرى كيف استطعت استنتاج ذلك. إنها ليست مسألة قوة.

- أليست كذلك؟ بل أظنها مسألة قوة. إنها من النوع القوي، النوع الذي يحصل دوماً على ما يريد. أنت لم تقصد استضافتها هنا...

هذا ما قلتَه أنت. ولكن ها هي ذي هنا. وقد كنتُ أراقبهما، تجلسان معاً هي وإيلي، في بيتهما معاً، تتجاذبان الحديث وهما مستقرتان. فأين مكانك أنت يا مايك؟ ألست الغريب؟ أم أنك لست غريباً؟

- أنت مجنون... بما تقوله من أشياء. ماذا تعني بقولك إني غريب؟ أنا زوج إيلي، أليس كذلك؟

- هل أنت زوج إيلي أم أن إيلي هي زوجتك؟

- إنك لمغفل، وما هو الفرق؟

تنهد. وفجأة ارتخى كتفاه كما لو أن حيويته قد خرجت منه، وقال: لا أستطيع أن أصل إليك... لا أستطيع جعلك تسمعني... لا أستطيع جعلك تفهم. أحياناً أظن أنك تفهم، وأحياناً أرى أنك لا تعرف شيئاً أبداً عن نفسك أو عن غيرك.

- اسمعني، إنني مستعد لأخذ الكثير منك يا سانتونيكس؛ فأنت مهندس معماري رائع، ولكن...

تغير وجهه بالطريقة الغريبة التي يتغير بها وقال: نعم، أنا مهندس جيد، وهذا البيت هو أفضل بيت بنيتُه، وأنا أقرب ما أكون للاقتناع به. لقد أردتَ بيتاً كهذا، وأرادت إيلي بيتاً كهذا أيضاً، لتعيش فيه معك. وقد حصلَتْ عليه، كما حصلتَ أنت عليه. أبعِدْ تلك المرأة الأخرى عنه يا مايك قبل أن يفوت الأوان.

- كيف لي أن أزعج إيلي؟

- لقد وضعتكما تلك المرأة حيث تريد وضعكما.

- اسمعني، إنني لا أحب غريتا؛ فهي تثير أعصابي. بل إنني تشاجرتُ معها قبل أيام مشاجرة فظيعة. ولكن الأمر ليس بالسهولة التي تظنها.

- نعم، لن يكون الأمر سهلاً معها.

قلتُ غاضباً: ربما كان يوجد بعض الصحة في قول مَن أطلق على هذا المكان اسم فدان الغجري وقال إن لعنة قد حلت عليه؛ فنحن نتعرض لغجر يقفزون من خلف الأشجار ويلوحون بقبضاتهم في وجوهنا مهددين بأن قدراً مخيفاً سيحل بنا إن لم نخرج من هنا. هذا المكان الذي يجب أن يكون رائعاً وجميلاً!

كانت هذه الكلمات الأخيرة كلمات من المُستغرب قولها، وقد قلتُها وكأن أحداً آخر هو الذي يقولها.

قال سانتونيكس: نعم، يجب أن يكون المكان كذلك. يجب أن يكون، ولكنه لا يمكن أن يكون كذلك إن كان شيء شرير يستحوذ عليه، أليس كذلك؟

- أنت بالتأكيد لا تؤمن بـ...

- يوجد الكثير من الأمور الغريبة التي أؤمن بها، وأنا أعرف شيئاً عن الشر. ألا تدرك، ألم تشعر في أحيان كثيرة بأنني أنا نفسي شرير جزئياً؟ لقد كنتُ دوماً كذلك؛ ولهذا فإنني أعرف عندما يكون الشر قريباً مني، رغم أنني لا أعرف دوماً أين هو بالضبط! وأنا أريد أن

يتطهر البيت الذي بنيتُه من الشر. هل تفهم ذلك؟ هل تفهم ذلك؟ هذا يهمني.

كانت لهجته خطيرة متوعدة. ثم تغير كل سمته، وقال: هيا، دعنا لا نتحدث بالكثير من الهراء. هيا ندخل لنرى إيلي.

وهكذا دخلنا البيت، وحيّتْ إيلي سانتونيكس بفرح غامر، وظهر هو بسَمْته المعتاد في تلك الأمسية وعاد إلى طبيعته تماماً؛ ساحراً، خفيف الظل. كان أغلب حديثه مع غريتا، حيث خصّها بسحره وفتنته إذا صح التعبير. وكان فيه الكثير من السحر. وكان من شأن أي امرئ أن يُقسم أن سانتونيكس مُعجب بها وأنه متلهف على إسعادها. لقد جعلني ذلك أشعر بأن سانتونيكس رجل خطير حقاً، وأن فيه أشياء أكثر بكثير مما استطعتُ فهمه حتى الآن.

وكانت غريتا تستجيب دوماً للإعجاب، فقد أظهرت نفسها بأفضل صورها. إن بوسعها -أحياناً- أن تُعتِّم على جمالها أو تُظهره، وقد بدت الليلة في أجمل صورة رأيتها بها؛ تبتسم لسانتونيكس وتصغي إليه وكأنها واقعة تحت تأثير سحر. وقد تساءلتُ عما يكمن خلف أسلوبه هذا، فالمرء لا يستطيع الجزم بشيء فيما يخص سانتونيكس. قالت إيلي إنها تتمنى لو يبقى عندنا بضعة أيام، ولكنه هزّ رأسه بالنفي قائلاً إن عليه أن يغادر في اليوم التالي. قالت: هل تبني شيئاً في هذه الأيام؟ هل أنت مشغول؟

أجاب بالنفي وقال إنه قد خرج لتوه من المستشفى، ثم أضاف: لقد رقّعوني مرة أخرى، ولكن ربما كانت هذه المرة الأخيرة.

- رقّعوك؟ ماذا فعلوا لك؟

- سحبوا الدم الفاسد من جسمي ووضعوا مكانه دماً جيداً طازجاً أحمر.

تأوهت إيلي وارتعدت قليلاً، فقال سانتونيكس: لا تقلقي، فلن يحدث هذا لك.

- ولكن لماذا يُقدّر أن يحدث ذلك لك؟ إنه لأمرٌ قاسٍ.

- كلا، ليس قاسياً، لقد سمعتُ ما كنتِ تغنينه قبل قليل:

للسعد والأسى، قد خُلق الإنسان
وعندما نعرف هذا جيداً،
فإننا نعيش في أمان.

أنا أعيش في أمان لأنني أعرف سبب وجودي هنا. وبالنسبة لكِ يا إيلي فإن:

"كل مساء ينقضي، أو ينقضي صباح، يولد بعض الناس للأفراح".
وهذا أنت.

قالت إيلي: أتمنى لو أستطيع الشعور بالأمان.

- ألا تشعرين بالأمان؟

- أنا لا أحب أن أهدَّد ولا أحب أن يصب أحدٌ لعنةً عليّ.

- أتتحدثين عن غجريتك؟

- نعم.

قال سانتونيكس: انسي هذا الأمر، انسيه لهذه الليلة ولنكن سعداء. ليعطِك الله -يا إيلي- عمراً مديداً، وليعطني أنا نهاية سريعة ورحيمة، وليُعطِ مايكل هذا حظاً طيباً.

* * *

سافر سانتونيكس في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

قالت إيلي: يا له من رجل غريب! لم أفهمه أبداً.

أجبتُها قائلاً: إنني لم أفهم أبداً نصف ما يقوله.

قالت إيلي وهي تتأمل: إنه يعرف الأمور.

- أتعنين أنه يعرف المستقبل؟

- لا، لم أقصد ذلك. إنه يعرف الناس. لقد قلتُ لك ذلك مرة من قبل... إنه يعرف الناس بشكل أفضل مما يعرفون أنفسهم، وأحياناً يكرههم بسبب ذلك، وأحياناً يُشفق عليهم.

ثم أضافت متأملة: ورغم ذلك فإنه لا يُشفق عليّ.

- ولماذا يُشفق عليك؟

- آه، لأن...

* * *

- ١٦ -

كنتُ أمشي عصرَ اليوم التالي بشيء من السرعة في أكثر الأجزاء عتمة في الغابة، حيث كان ظل أشجار التنّوب يُنذر بالخطر أكثر من أي مكان آخر، فرأيت جسداً طويلاً لامرأة تقف في الممشى المؤدي إلى البيت. خرجتُ عن طريقي فجأة بخطوة سريعة تلقائية وقد سلّمتُ -جدلاً- بأنها المرأة الغجرية، ولكني توقفتُ فجأة إذ تبينتُ حقيقةَ مَنْ رأيتُها. كانت أمي، وكانت تقف هناك طويلة عابسة رمادية الشعر.

قلت: يا إلهي! لقد أفزعتِني يا أمي. ماذا تفعلين هنا؟ أجئتِ لرؤيتنا؟ لقد دعوناكِ مراراً، أليس كذلك؟

لم نكن قد دعوناها مراراً بالفعل. كنتُ قد أرسلتُ دعوة واحدة فاترة بعض الشيء، ولا شيء غيرها. وكنتُ قد صُغتُها أيضاً بطريقة تجعل من المؤكد كثيراً أن لا تقبلها أمي. لم أُرد حضورها إلى هنا، ولم أكن قد رغبتُ بوجودها هنا أبداً.

قالت: "نعم، لقد جئتُ لأراكما أخيراً. لأرى أن كل أموركم على ما يرام". ثم قالت وهي تنظر خلفي: إذن فهذا هو البيت الفخم

الذي بنيتَه، وهو بيت فخم بالفعل.

خُيِّل لي أنني لمحتُ في صوتها مرارة الاستهجان التي توقعتُ وجودها. قلت: إنه أفخم من أن يكون لأمثالي، أليس كذلك؟

- أنا لم أقل ذلك يا بني.

- ولكنكِ فكرتِ به.

- إنه ليس ما وُلدتَ له، وما من خير يُرجى من خروج المرء عن موقعه في الحياة.

- ليس من شأن أحدٍ أن يصل أبداً إلى هدفه إن استمع إليك.

- إيه، أعرف أن هذا هو ما تقوله وتفكر به، ولكني لا أعرف ما هو الخير الذي جاء به الطموح لأي إنسان. إنه من الأمور التي تتحول إلى ثمر مُرٍّ في حلقك.

- آه، بالله عليك لا تبدئي بهذا الحديث. هيا، هيا اصعدي لتري بيتنا الفخم بنفسك وتعالي لتري زوجتي الفخمة أيضاً.

- زوجتك؟ لقد سبق ورأيتها.

- ماذا تقصدين بقولك: "سبق ورأيتها"؟

- إذن فهي لم تخبرك، أليس كذلك؟

- ماذا؟

- بأنها أتت لرؤيتي.

سألتُها وقد صُعقت: أتت لرؤيتك؟

- نعم. لقد كانت هناك في أحد الأيام واقفة خارج الباب تقرع الجرس وتبدو خائفة قليلاً. إنها فتاة جميلة وعذبة أيضاً. قالت: "أنت والدة مايك، أليس كذلك؟"، فقلتُ لها: "نعم، ومن أنت؟"، فقالت: "أنا زوجته. وكان يجب أن آتي لرؤيتك. فلم يبدُ مناسباً أن لا أعرف والدة مايك...". قلتُ لها :"إنني أراهن على أنه لم يشأ أن تأتي إلي"، فترددت، فقلتُ لها: "لا حاجة لأن تُحرجي من إخباري بذلك؛ فأنا أعرف ولدي وأعرف ما يمكن أن يريده أو لا يريده". قالت: "لعلك تظنين أنه خَجِلٌ منك لأنكما فقيران وأنا غنية، ولكن الأمر ليس على هذا النحو أبداً، ليس كذلك حقاً". فقلتُ لها ثانية: "لا حاجة لأن تخبريني يا فتاتي؛ فأنا أعرف ما لدى ولدي من أخطاء، وهذه ليست من أخطائه. إنه ليس خجِلاً من أمه وليس خجلاً من أصوله. إنه ليس خجِلاً مني. ولئن كان به شيء فهو أنه خائف مني؛ فأنا أعرف الكثير عنه". وقد بدا أنها وجدت ذلك مُسلياً، فقالت: "أحسب أن كل الأمهات يشعرن دوماً بذلك... بأنهن يعرفن كل شيء عن أبنائهن. وأحسب أن الأبناء يشعرون دوماً بالحرج بسبب ذلك تحديداً!".

- لقد كان على إيلي أن تخبرني أنها ذهبت لرؤيتك. لا أعرف لماذا تبقي الأمر سراً على هذا النحو. كان عليها أن تخبرني.

كنتُ غاضباً، بل غاضباً جداً. لم أكن أعلم أن من شأن إيلي أن تخفي أسراراً من هذا القبيل عني.

قالت أمي: ربما كانت خائفة قليلاً مما فعلَتْهُ، ولكن لا حاجة بها

لأن تخاف منك يا ولدي.

- هيا، هيا لتري بيتنا.

لا أدري إن كان بيتنا قد أعجبها أم لا، ولا أظنه أعجبها. نظرت حولها في الغرف ورفعت حاجبيها، ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس التي تُفضي إلى المصطبة الخارجية. كانت إيلي وغريتا تجلسان هناك بعدما عادتا لتوهما من الخارج، وكانت غريتا تضع رداء قرمزياً من الصوف يتهدل عن كتفيها. نظرت أمي إليهما معاً. اكتفت بالوقوف هناك للحظات وكأنها انزرعت في مكانها. وقفزت إيلي وتقدمت إليها عبر الغرفة قائلة: آه، السيدة روجرز.

ثم التفتت إلى غريتا وقالت: إنها والدة مايك جاءت لترى بيتنا وترانا. أليس هذا رائعاً؟ هذه صديقتي غريتا أندرسن.

ثم مدت كلتا يديها وأخذت يدي أمي، ونظرت أمي بإمعان إليها ثم نظرت من فوق كتفها إلى غريتا بكل إمعان، وتمتمت مع نفسها: فهمت، فهمت.

سألتها إيلي: ما الذي فهمتِه؟

- كنتُ أتساءل كيف سيكون الحال كله هنا.

ثم نظرت حولها وأضافت: نعم، إنه بيت جميل، وستائر جميلة، ومقاعد جميلة، ولوحات جميلة.

قالت إيلي: يجب أن تتناولي بعض الشاي.

- يبدو وكأنكم قد فرغتم من تناول الشاي لتوِّكم.

قالت إيلي: "الشاي مشروب لا حاجة لأن ينتهي المرء من تناوله". ثم نظرت إلى غريتا وقالت: لن أقرع الجرس طلباً للخدم. هل لك -يا غريتا- أن تذهبي إلى المطبخ وتُعِدّي لنا إبريقاً من الشاي الجديد؟

قالت غريتا: "بالطبع يا حبيبتي"، ثم خرجت من الغرفة وهي تلتفت مرة واحدة إلى أمي بطريقة حادة تكاد تكون خائفة.

جلست أمي، وقالت لها إيلي: أين متاعك؟ ألم تأتي للبقاء؟ هذا ما أرجوه.

قالت أمي: "لا يا فتاتي، لن أبقى. إنني عائدة بالقطار في غضون نصف ساعة. لقد أردتُ فقط أن أتفقدكما". ثم أضافت بشيء من السرعة، ولعلها أرادت بذلك أن تقول عبارتها قبل عودة غريتا: والآن لا تُقلقي نفسك يا حبيبتي، لقد أخبرتُه كيف جئتِ لرؤيتي وقمتِ بزيارة لي.

قالت إيلي بثبات: أنا آسفة يا مايك إذ لم أخبرك، إلاّ أنني رأيتُ أنه ربما كان الأفضل أن لا أفعل.

قالت أمي: "لقد جاءت مدفوعة بطيبة قلبها. إن مَن تزوجتَها يا مايك فتاة طيبة، وجميلة أيضاً. نعم، جميلة جداً". ثم أضافت بصوت لا يكاد يُسمع: إنني آسفة.

قالت إيلي وقد احتارت قليلاً: آسفة؟!

قالت أمي: "آسفة لتفكيري بالأمور التي فكرتُ بها". ثم أضافت بقليل من الضغط والتوتر: إن الأمر كما قلتِ، هذا هو دأبُ الأمهات؛ يملن دوماً إلى الشك بكنّاتهنّ. ولكني -عندما رأيتك- عرفتُ أنه كان محظوظاً. لقد بدا لي الأمر أروع من أن يكون حقيقة.

قلتُ لها وأنا أبتسم: يا للغرابة! لقد كان لديّ دوماً ذوق ممتاز.

قالت أمي وهي تنظر إلى الستائر المزركشة: لقد كان لديك دوماً ذوق باهظ التكاليف، هذا ما تقصده.

قالت إيلي وهي تبتسم لها: أنا لستُ حقاً أسوأ مَن يمكن أن يختاره صاحب الذوق باهظ التكاليف.

– اجعليه يوفر قليلاً من المال من وقت لآخر؛ فسيكون هذا جيداً لشخصيته.

قلتُ: إنني أرفض تحسين شخصيتي. إن فائدة اتخاذ زوجة هي أن الزوجة ترى كل ما يفعله زوجها رائعاً، أليس الأمر كذلك يا إيلي؟

بدت إيلي سعيدة من جديد، وضحكت وقالت: أنت شديد التباهي يا مايك؛ يا لغرورك!

عادت غريتا حاملةً إبريق الشاي. كنا قبل ذلك في حالة من الحرج وعدم الارتياح، وقد أوشكنا أن نتغلب عليها، وعندما عادت غريتا ظهر التوتر ثانية على نحو ما. وقد قاومت والدتي كل مساعي إيلي لإقناعها بالبقاء عندنا، ولم تعد إيلي تُلحّ بعد فترة قصيرة. مشيتُ أنا وهي مع أمي لوداعها في الممشى المُلتف بين الأشجار وصولاً إلى

البوابة. وسألتْ أمي فجأة: ماذا أسميتموه؟

قالت إيلي: فدان الغجري.

- آه، نعم، إن لديكم غجراً في المنطقة، أليس كذلك؟

سألتُها: كيف عرفتِ ذلك؟

- لقد رأيت إحداهن وأنا قادمة، وقد نظرَتْ إليّ بشكل غريب.

- ليس بها شيء في الواقع، ولكنها حمقاء قليلاً، هذا كل ما في الأمر.

- لماذا تقول إنها حمقاء؟ لقد كانت لها نظرة غريبة عندما نظرتْ إليّ. ألديها شكوى أو مظلمة من نوع ما ضدكما؟

قالت إيلي: ليس من شيء حقيقي. أحسبها تخيلت الأمر كله... بأننا اقتلعناها من أرضها أو ما شابه ذلك.

قالت أمي: أظن أنها تريد مالاً، فهكذا هم الغجر؛ يثيرون أحياناً ضجة واسعة حول كيفية تعرضهم للظلم بطريقة أو بأخرى، ولكنهم سرعان ما يكفّون عن ذلك عندما يُعطَوْن بعض المال.

قالت إيلي: أنت لا تحبين الغجر.

- إنهم لا يعملون باستقامة ولا يكُفُّون أيديهم عما ليس ملكَهم.

- حسناً، إننا... إننا لم نعد نقلق الآن.

ودعتنا أمي ثم أضافت قائلة: مَن هي الشابة التي تعيش معكما؟

شرحت إيلي كيف أن غريتا كانت معها منذ ثلاث سنوات قبل زواجها، وكيف أنها كانت ستعيش حياة تعيسة لولاها، ثم أضافت: لقد فعلتْ غريتا كل ما في وسعها لمساعدتنا. إنها إنسانة رائعة. ما كنتُ لأعرف كيف... كيف أستمر من دونها.

- أهي تعيش معكما أم في زيارة؟

قالت إيلي وهي تتجنب السؤال: آه، إنها... إنها تعيش معنا في الوقت الحاضر لأنني لويتُ كاحلي واضطررتُ لإحضار أحدٍ للعناية بي، ولكنني بخير الآن.

قالت أمي: إن من الأفضل لعروسين جديدين أن يكونا بمفردهما في البداية.

وقفنا عند البوابة نراقب أمي وهي تبتعد، وقالت إيلي متأملة: إن لها شخصية قوية جداً.

كنتُ غاضباً من إيلي، بل غاضباً جداً -في الواقع- لأنها ذهبت وعثرت على أمي وزارتها دون أن تخبرني. ولكن عندما التفتت ووقفت تنظر إليّ وقد ارتفع أحد حاجبيها قليلاً وعلى وجهها تلك الابتسامة الطفولية نصف الخنوعة ونصف الراضية لم أتمالك نفسي ولِنتُ لها قائلاً: يا لك من مخادعة صغيرة!

- الحقيقة أنني مضطرة لأن أكون كذلك أحياناً.

قلت: "هذا يشبه ما سمعته -ذات مرة- في إحدى مسرحيات شيكسبير التي شاركت في تمثيلها حين كنت في المدرسة". ثم اقتطفتُ من المسرحية بشيء من الخجل: "لقد خدعتْ أباها، ويمكن أن تخدعك".

- مَن الذي كنتَ تمثل دوره... عُطيل؟

- لا، بل مثلتُ دور والد الفتاة، وأحسب أن هذا هو السبب في تذكري لهذا القول. وكانت هذه -عملياً- الجملةَ الوحيدة التي قلتُها!

قالت إيلي بتأمل: "لقد خدعتْ أباها، ويمكن أن تخدعك". أنا لم أخدع والدي حسب علمي، ولكن ربما كان من شأني أن أخدعه فيما بعد، لو بقي حياً.

- لا أحسب أنه كان سيتعامل مع زواجك مني بكثير من اللطف، تماماً كما كان موقف زوجة أبيك.

- نعم، لا أحسبه كان سيتعامل بلطف مع زواجنا؛ فقد كان تقليدياً جداً فيما أظن.

ثم أطلقت ابتسامتها الطفولية الغريبة مرة أخرى وقالت: ولذلك فإنني أحسب أنني كنتُ سأضطر إلى أن أكون مثل دزدمونة، فأخدع أبي وأهرب معك.

سألتُها بفضول: لماذا أردتِ رؤية أمي إلى هذا الحد يا إيلي؟

- لم يكن الدافع الأساسي أنني أردتُ رؤيتها، ولكنني شعرتُ أن

من السيء جداً ألاّ أفعل شيئاً إزاء هذا الأمر. أنت لم تتحدث كثيراً عن أمك، ولكنني فهمتُ أنها فعلت دوماً كل ما في وسعها من أجلك؛ فوقفتْ إلى جانبك في كل ضائقة وعملتْ بكلِ جدٍ لتوفر لك تعليماً إضافياً، ورأيتُ أن عدم اقترابي منها سيبدو تصرفاً وضيعاً جداً يُمكن أن يُفسّر على أنه تكبُّر الغني.

- ما كانت تلك لتكون غلطتك أنت، بل غلطتي أنا.

- نعم، يمكنني أن أفهم أنك لم تحب ذهابي لرؤيتها.

- أتظنين أن لديّ عقدة نقص من أمي؟ هذا ليس صحيحاً أبداً يا إيلي، أؤكد لك أنه غير صحيح... لم يكن ذلك هو السبب.

قالت إيلي وهي تتأمل: نعم، إنني أعرف ذلك الآن. السبب أنك لم تُرد لها أن تتلو عليك أناشيد الأمهات.

- أناشيد الأمهات؟

- بوسعي أن أرى أنها من النوع الذي من شأنه أن يعرف تماماً كيف يجب أن يتصرف الآخرون. أعني أنها كانت ستطلب منك أن تتخذ لك نوعاً معيناً من الأعمال.

- صحيح تماماً. كانت ستطلب أعمالاً ثابتة، واستقراراً.

- ما كان ذلك ليهمّ كثيراً الآن. وأظن أن تلك النصيحة جيدة جداً، ولكنها ما كانت بالنصيحة التي تناسبك أنت يا مايك؛ فأنت لست ممّن يميلون للاستقرار، ولا تريد أن تثبت على أمر. تريد أن

تذهب فترى الأشياء وتفعل الأشياء... في كامل الحيوية.

- إنني أريد أن أبقى هنا في هذا البيت معك.

- ربما لفترة فقط، وأظن... أظن أنك سترغب دوماً بالعودة إلى هنا... وكذلك أنا. أظن أننا سنأتي إلى هنا في كل عام، وأظننا سنكون هنا أكثر سعادة من أي مكان آخر. ولكنك سترغب في السفر إلى أماكن أخرى أيضاً. سترغب في السفر ورؤية الأشياء وشراء الأشياء. وربما فكرتَ بأفكار جديدة لتنظيم الحديقة هنا. ربما ذهبنا لنرى الحدائق الإيطالية أو اليابانية أو الحدائق العامة من كل نوع.

- أنت تجعلين الحياة تبدو مثيرة جداً يا إيلي، وأنا آسف إذ كنتُ غاضباً.

قالت: "آه، إنني لا أهتم كثيراً لغضبك؛ فأنا لا أخاف منك". ثم أضافت وهي مقطبة الجبين: إن أمك لم تحب غريتا.

- كثير من الناس لا يحبون غريتا.

- بمن فيهم أنت.

- اسمعيني الآن يا إيلي، إنك تقولين ذلك دوماً، وهذا غير صحيح. لقد كنتُ أغار منها فقط في البداية، وكان هذا كل ما في الأمر. إننا منسجمان تماماً الآن.

ثم أضفتُ: أحسب أنها ربما كانت تضع الناس في موقف انتظار النقد إلى حدٍّ ما.

- السيد لينكوت لا يحبها هو الآخر، أليس كذلك؟ يظن أن لها الكثير من التأثير عليّ.

- وهل لها تأثير حقاً؟

- أتعجّب لماذا عساك تسأل هذه السؤال. نعم، أظن أنه ربما كان لها تأثير عليّ، وهذا أمر طبيعي؛ فهي ذات شخصية طاغية، وأنا مضطرة لأن يكون معي أحدٌ أستطيع الثقة به والاعتماد عليه. شخص يقف للدفاع عني.

سألتُها وأنا أضحك: ويضمن لك فعل ما تريدين؟

ثم دخلنا البيت يداً بيد. ولسبب ما بدت الدنيا وكأنها معتمة في تلك الأمسية، وأحسب أن السبب كان أن الشمس انحسرت عن المصطبة تاركةً وراءها شعوراً بالعتمة.

قالت إيلي: ما الأمر يا مايك؟

- لا أدري. لقد شعرتُ فجأة وكأن أحدهم يمشي فوق قبري.

- «وَزّةٌ تمشي فوق قبرك». هذا هو المثل الصحيح، أليس كذلك؟

لم تكن غريتا في أي مكان من البيت، وقال الخدم إنها خرجت لتتمشى.

الآن وقد عرفت أمي كل شيء عن زواجي ورأت إيلي، فعلتُ ما كنتُ أريد حقاً فعله منذ فترة طويلة. أرسلت لها شيكاً بمبلغ ضخم،

وأخبرتها أن تنتقل إلى بيت أفضل وتشتري لنفسها أي أثاث إضافي تريده. وقد كانت لديّ -طبعاً- شكوك فيما إذا كانت ستقبله أم لا. وكما توقعت، فقد أعادت الشيك ممزقاً إلى قطعتين ومعه ملاحظة كتبتْها على عجل تقول: "لن أمدّ يدي إلى أي شيء من هذا. أنت لن تتغير أبداً. إنني أعرف ذلك الآن، كان الله في عونك".

رميتُ الملاحظة إلى إيلي قائلاً: أترين كيف هي أمي؟ لقد تزوجتُ فتاة غنية، وأنا أعيش على مال زوجتي، والعجوز العنيدة تستنكر ذلك!

- لا تقلق؛ فالكثير من الناس يفكرون بهذه الطريقة. سوف تجتاز أمك ذلك. إنها تحبك كثيراً يا مايك.

- لماذا تريد إذن أن تغيّرني طوال الوقت وتجعلني من نمطها هي؟ إن لي شخصيتي الخاصة، وأنا لست من نمط أي شخص آخر. لستُ الطفلَ الصغير لدى أمه بحيث تصبُّه على الشاكلة التي تريدها. إن لي شخصيتي، وأنا ناضج. إنني أنا!

- إنك أنت، وأنا أحبك أنت.

بعد ذلك -ولتغيير مجرى الحديث- قالت شيئاً يثير الاضطراب: ما رأيك بهذا الخادم الجديد لدينا؟

لم أكن قد فكرتُ فيه. فبماذا أفكر بشأنه؟ ولئن كان لي رأي فإني فضلتُه على خادمنا السابق الذي لم يكلف نفسه عناء إخفاء ازدرائه لمكانتي الاجتماعية. قلتُ لها: لا بأس به، لماذا؟

- كنتُ تساءلتُ فقط إن كان من الممكن أن يكون رجل أمن.

- رجل أمن؟ ماذا تعنين؟

- رجل تحرٍ. لقد فكرتُ بأن العم آندرو ربما رتّب هذا الأمر.

- ولماذا يفعل ذلك؟

- فلنقل... خشية عملية اختطاف ممكنة، كما أظن. ففي أمريكا نحتفظ عادة بحرس... وخاصة في الريف.

واحدة أخرى من سيئات الغنى لم أكن أعرفها من قبل! قلت: يا لها من فكرة قذرة!

- آه، لا أدري... أحسبُني اعتدتُ على ذلك. ماذا يهم؟ إن المرء لا يلاحظ ذلك حقاً.

- وهل زوجة الخادم شريكة معه في ذلك أيضاً؟

- لا بد أنها ستكون كذلك فيما أظن، رغم أنها تطبخ بشكل رائع. أحسب أن العم آندرو، أو ربما ستانفورد لويد (كائناً من كان الذي فكر بذلك منهما) قد دفع مالاً للخدم السابقين ليغادروا، وجهّز هذين الاثنين تماماً لاحتلال مكانهم. من شأن ذلك أن يكون عملية سهلة.

قلتُ وأنا ما أزال غير مصدق: دون أن يخبروك؟

- ما كانوا ليحلموا بإخباري بذلك؛ فمن شأني أن أثير عليهم

ضجة لا آخر لها. وعلى أية حال، قد أكون مخطئة فيما يخصهما.

ثم مضت قائلة بشكل حالم: لا يعدو الأمر أن يكون شعوراً من نوعٍ ما، ينتاب المرء عندما يعتاد وجود مثل هؤلاء الأشخاص حوله دائماً.

قلتُ بقسوة: يا للفتاة الغنية المسكينة!

لم تأبه إيلي لذلك أبداً وقالت: أحسب أن هذا يصف الحالة بشكل جيد.

قلت: يا للأشياء التي أتعلمها عنك طوال الوقت يا إيلي!

* * *

إن النوم أمر غامض عجيب؛ فأنت تأوي إلى فراشك قَلِقاً من الغجر والأعداء السريين ورجال التحري المزروعين في بيتك واحتمالات الخطف ومئات الأمور الأخرى، فيأتي النوم ليأخذك بعيداً عن هذا كله؛ تسافر بعيداً ولا تدري أين كنت، فإذا استيقظت فإنك تفتح عينيك على عالم جديد بلا هموم ولا مخاوف.

ولكني -بدلاً من ذلك- استيقظتُ يوم السابع عشر من أيلول وأنا في مزاج من الإثارة الشديدة. قلتُ لنفسي باقتناع: "إنه يوم رائع... سيكون يوماً رائعاً". وقد عنيتُ ما قلت. كنتُ مثل أولئك الناس في الدعايات الذين يبدون استعداداً للذهاب إلى أي مكان وفعل أي شيء، وراجعتُ خططاً في ذهني. كنتُ قد رتبتُ لقاء الميجر فيلبوت في مزاد يجري في بيت ريفي يبعد نحواً من خمسة عشر ميلاً، وكانت ضمن المعروضات بعض الأشياء الرائعة، وقد وضعتُ إشارة على قطعتين أو ثلاث منها في الدليل الخاص بالمزاد. وكنتُ منفعلاً تماماً بهذا الأمر كله.

وقد كان فيلبوت عارفاً مطلعاً في شؤون الأثاث القديم والفضيات

وما شابه ذلك، وليس هذا بسبب ذوقه الفني (فقد كان رجلاً رياضياً فقط) ولكن لأنه -ببساطة- يعرف ذلك، وكانت كل عائلته مطلعة على هذه الأمور.

تصفّحتُ دليل المزاد على مائدة الإفطار. وكانت إيلي قد نزلت بثياب ركوب الخيل؛ فقد صارت تركب الخيل صباحاً في أغلب الأيام... أحياناً بمفردها، وأحياناً برفقة كلوديا. كانت لديها تلك العادة الأمريكية في شرب القهوة وعصير البرتقال، والاكتفاء بذلك تقريباً في وجبة الإفطار. أما أذواقي أنا (الآن، حيث لم أعد مضطراً لكبحها بأية طريقة كانت) فقد كانت أشبه بأذواق ملاّك أراض ريفي في العصر الفيكتوري! فقد كنتُ أحب وجود الكثير من الأطعمة الساخنة على المائدة. وقد أكلت لحم كلى وأنواعاً أخرى من اللحوم اللذيذة.

سألتُ: وماذا ستفعلين أنت يا غريتا؟

قالت إنها ستقابل كلوديا في المحطة في ماركت تشادويل، وستذهب معها إلى لندن لحضور ما وصفته بأنه مزاد أبيض. سألتها ماذا تعني بالمزاد الأبيض قائلاً: هل أصبحوا يسمون المزادات تبعاً لألوانها؟

بدا على غريتا شيء من الازدراء وقالت إن المزاد الأبيض يعني المزاد الذي تُباع فيه البياضات والشراشف والمناشف المنزلية وغير ذلك، وإن بعض المقايضات الجيدة جداً تتم في محل خاص في شارع بوند، وقد أُرسل لها دليل بمحتويات ذلك المزاد.

قلتُ لإيلي: حسناً، إذا كانت غريتا ذاهبة إلى لندن طوال هذا اليوم، فلماذا لا تأتين بالسيارة وتقابليننا في مطعم جورج في بارتينغتُن؟ الطعام هناك رائع جداً، هذا ما قاله فيلبوت العجوز، وقد اقترحَ أن تأتي. في الساعة الواحدة. تذهبين عبر ماركت تشادويل، ثم تنعطفين بعد ذلك بنحو ثلاثة أميال، وأحسب أن للمكان شاخصة تدل عليه.

- حسناً، سأكون هناك.

ساعدتُها على امتطاء الحصان، ومضتْ به عبر الأشجار. كانت إيلي تحب ركوب الخيل، وكانت تسلك في ركوبها -عادة- أحد الطرق الترابية الملتوية لتخرج أخيراً إلى السهل فتعدو بالحصان عدواً سريعاً قبل أن تعود إلى البيت. تركتُ السيارة الصغيرة لإيلي لأنها أيسر صفّاً، وأخذتُ أنا سيارة الكرايزلر الكبيرة. ووصلتُ إلى عزبة بارتينغتُن قبل أن يبدأ المزاد تماماً. وكان فيلبوت هناك، وقد احتفظ لي بمكان قائلاً: توجد بعض الأغراض الرائعة هنا، ولوحتان جيدتان؛ واحدة للرسام رومني والأخرى لرينولدز. لا أدري إن كنتَ مهتماً بذلك؟

هززتُ رأسي بالنفي؛ فقد كان ذوقي في تلك الفترة يتجه كلياً للفنانين المحدثين. ومضى فيلبوت قائلاً: يوجد هنا العديد من التجار. أترى ذلك الرجل النحيل هناك ذا الشفتين المزمومتين؟ هذا كريسنغتُن، وهو مشهور تماماً، وقد جاء هو وهذا التاجر الآخر هناك من لندن. هل ستحضر زوجتك؟

- لا، إنها ليست شديدة التعلق بالمزادات. وعلى أية حال فإنني

لم أُرد لها أن تأتي هذا الصباح تحديداً.

– ولماذا؟

– إنني أُعِدُّ مفاجأة لإيلي. هل لاحظتَ القطعة رقم ٤٢ في دليل المزاد؟

ألقى نظرة على الدليل ثم نظر عبر الغرفة وقال: هممم. ذاك المكتب المصنوع من عجائن الورق؟ نعم، إنه قطعة صغيرة جميلة، أحد أفضل النماذج التي رأيتُها من هذا النوع. والمكتب نفسه نادر أيضاً. توجد الكثير من المكاتب غيره، ولكن هذا نموذج مُبكر. لم أرَ مكتباً مثله أبداً.

كانت القطعة الصغيرة هذه محفورة برسم لقلعة وندسور، وعلى جوانبها نقوش لطاقات من الزهور.

قال فيلبوت: "إنه بحالة ممتازة". ثم أضاف وهو ينظر إليّ بفضول: لم أكن لأظن أن ذوقك يميل إلى هذا، ولكن...

– آه، هذا ليس مما يميل له ذوقي؛ ففيه من الأزهار واللمسة الأنثوية ما لا يناسبني، ولكن إيلي تحب هذا النوع. إن عيد ميلادها سيحل في الأسبوع القادم، وأريد هذا هدية لها... مفاجأة، ولهذا لم أرغب بأن تعرف بأمره. أنا أعرف أن أي شيء أُقدمه لها لن يُسعدها بقدر هذا المكتب الصغير. سوف تُفاجَأ حقاً.

ثم دخلنا وأخذنا أماكننا وابتدأ المزاد. والحقيقة أن ثمن القطعة التي أردتها قد وصل إلى مستويات عالية، وبدا التاجران القادمان من

لندن حريصين عليها كلاهما، رغم أن أحدهما كان من الخبرة والمراس والتحفظ تجاهها بحيث لا يكاد المرء يلحظ الحركة الخفيفة جداً للدليل الذي في يده، تلك الحركة التي كان مأمور المزاد يراقبها بدقة. اشتريتُ أيضاً كرسياً محفوراً من صنع تشيبنديل رأيتُ أن من شأنه أن يبدو جميلاً في الصالة، كما اشتريت بعض الستائر الضخمة المزركشة التي كانت بحالة جيدة.

وعندما اختتم مأمور المزاد جلسة المزاد الصباحية نهض فيلبوت واقفاً وقال: حسناً، يبدو أنك استمتعت تماماً. أتريد العودة للمزاد بعد الظهر؟

هززتُ رأسي بالنفي وقلت: لا، لا يوجد شيء في الجلسة الثانية مما أريده، فلن يكون فيها -غالباً- إلاّ أثاث غرف النوم والسجاد وما شابه ذلك.

قال: "نعم، لم أحسب أنك ستهتم بذلك". ثم نظر إلى ساعته وقال: حسناً، من الأفضل أن نذهب. هل ستقابلنا إيلي في المطعم؟

- نعم، ستكون هناك.

- وماذا عن... عن الآنسة أندرسن؟

- آه، لقد ذهبت غريتا إلى لندن. ذهبت إلى ما يسمونه مزاداً أبيض، مع الآنسة هاردكاسل فيما أظن.

- آه، نعم. لقد قالت كلوديا شيئاً عن ذلك قبل أيام. إن أسعار الشراشف وغيرها خيالية هذه الأيام. أتعرف كم يكلف ثوب الوسادة؟

ثلاثين شلناً! لقد كنتُ أشتري تلك الأثواب بأقل من ربع هذا السعر.

- أنت واسع المعرفة في مشتريات حاجات البيت.

ابتسم فيلبوت وقال: "إن زوجتي تشكو من ذلك!". ثم نظر إليّ وقال: أنت تبدو في قمة مزاجك الجيد يا مايك وفي أسعد حالاتك.

- هذا لأنني حصلتُ على ذلك المكتب، أو أن هذا جزء من السبب على الأقل. لقد نهضتُ هذا الصباح وأنا أشعر بالسعادة. لعلك تعرف مثل هذه الأيام التي يبدو لك فيها كل شيء رائعاً.

- هممم، كن حذراً؛ فهذه هي الحال التي يُطلقون فيها على الشخص صفة «مقدور»!

- مقدور؟ أظن أن هذا مفهوم إسكتلندي، أليس كذلك؟

- بلى، وهو يُقال وصفاً لمن تتملكه السعادة والنشوة قبل وقوع كارثة، فيكون حاله إنذاراً بها. من الأفضل أن تكبح نشوتك.

- آه، إنني لا أؤمن بهذه الخرافات.

- ولا بتنبؤات الغجر، أليس كذلك؟

- نحن لم نرَ غجريّتنا مؤخراً، منذ أسبوع على الأقل.

- ربما خرجت بعيداً عن المنطقة.

سألني إن كان بوسعي أن أُقِلّه معي في سيارتي فوافقت. قال معللاً: لا حاجة لأخذ السيارتين معاً. يمكنك أن تُنزلني هنا في طريق

العودة، أليس كذلك؟ وماذا عن إيلي؟ هل ستُحضر سيارتها معها؟

- نعم، ستُحضر السيارة الصغيرة.

- آمل أن يُحضِّر لنا مطعم جورج وجبة جيدة؛ فأنا جائع.

- هل اشتريتَ شيئاً؟ فقد كنتُ أكثر انفعالاً من أن أنتبه.

- نعم، فعليك أن تبقى متيقظاً تماماً عندما تشارك في مزاد وأن تلاحظ ما الذي يفعله التجار. لا، لم أشترِ. زايدتُ مرة أو مرتين، ولكن الأسعار تجاوزت كثيراً ما عرضتُه من سعر.

فهمتُ أن دخل فيلبوت لم يكن كبيراً رغم المساحات الشاسعة من الأراضي التي يملكها في المنطقة. لقد كان ما يمكن للمرء وصفه بالرجل الفقير رغم كونه ملاّك أراضٍ. وما كان له أن يحصل على أموال ينفقها إلاّ ببيع قطعٍ لا بأس بها من الأرض، ولم يكن ليريد بيع أرضه؛ فقد أحبها.

وصلنا إلى مطعم جورج ووجدنا الكثير من السيارات واقفة هناك من قبل. ربما كانت لأشخاص أتوا من المزاد، ومع ذلك لم أرَ سيارة إيلي. دخلنا المطعم، وتلفّتُّ بحثاً عنها ولكنها لم تكن قد أتت بعد. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة لتوها على أية حال.

كان المكان مزدحما تماماً بالناس، ونظرت إلى قاعة الطعام فرأيت أنهم ما زالوا يحتفظون بطاولتنا محجوزة. كان هناك العديد من الوجوه المحلية التي أعرفها، وكان يجلس على طاولة قرب النافذة رجل بدا وجهه مألوفاً لدي. كنتُ واثقاً أنني أعرفه، ولكنني لم أتذكر

أين ومتى التقينا. لم أرَ أنه من أهل المنطقة، لأن ملابسه لا تنسجم مع ما هو سائد في هذه المناطق. لقد قابلتُ -بالطبع- كثيراً من الناس في حياتي، وليس من المحتمل أن أستطيع تذكرهم جميعاً بسهولة. وهذا الرجل لم يكن في المزاد بقدر ما أذكر، مع أن الغريب هو أنه كان هناك وجه ظننتُ أنني ميّزتُه ولكنني لم أستطع تحديد هويته. إن تذكّر الوجوه مسألة صعبة ما لم تستطع ربطها بظروف لقائك بأصحابها.

جاءت إليّ المشرفة المسيطرة على مطعم جورج مرتدية ثوبها الحريري الأسود ذا الطراز الإدواردي المُنتحل الذي ترتديه دوماً، وقالت: هل ستطلبون الطعام عما قريب يا سيد روجرز؟ بعض الناس ينتظرون.

قلت لها: ستكون زوجتي هنا خلال دقائق.

ثم مضت مبتعدة فقلتُ لفيلبوت: من الأفضل أن نطلب الطعام، إذ يبدو أنهم بدؤوا ينزعجون من حجزنا للطاولة سدى. إن لديهم حشداً كبيراً اليوم، وإيلي ليست أشدَّ الناس دقةً في مواعيدها!

قال فيلبوت بأسلوبه قديم الطراز: آه، إن السيدات يحرصن كثيراً على إبقائنا ننتظر، أليس كذلك؟ حسناً يا مايك، إذا لم يكن عندك مانع... سوف نبدأ غداءنا.

اخترنا من قائمة الطعام طبقاً من اللحم المشوي وفطيرة الكِلى وبدأنا نأكل. قلت: إنه لأمر سيء من إيلي أن تُبقينا ننتظر هكذا.

ثم أضفتُ أن ذلك ربما يكون عائداً لوجود غريتا في لندن،

وقلت: إن إيلي معتادة كثيراً على غريتا في مساعدتها على الالتزام بالمواعيد، فهي تذكّرها بها وتحرص على خروجها إليها في الوقت المناسب وغير ذلك.

- أوتعتمد كثيراً على الآنسة أندرسن؟

- بهذا المعنى، نعم.

ومضينا نأكل، وبعد اللحم المشوي انتقلنا إلى فطيرة الكِلى، ثم إلى كعكة التفاح وعلى قمتها قطعة مهيبة من المعجنات. قلتُ فجأة: أتساءل إن كانت قد نسيت كل شيء عن الموضوع.

- ربما كان من الأفضل أن تتصل وترى.

- نعم، أظن أن من الأفضل أن أتصل.

خرجتُ إلى الهاتف واتصلت. وأجابتني الطباخة التي قالت: آه، أهذا أنت يا سيد روجرز؟ السيدة روجرز لم تعد إلى البيت بعد.

- ماذا تعنين بقولك: "لم تعد بعد"؟ لم تعد من أين؟

- لم تعد بعدُ من جولة ركوب الخيل.

- ولكن ذلك كان بعد الإفطار. لا يمكن أن تكون مستمرة في ركوب الخيل طوال الصباح.

- لم تقل إنها ستذهب إلى أي مكان آخر.

- لماذا لم تتصلي في وقت مبكر وتخبريني بالأمر؟

- لم أعرف أين يمكن أن أجدك؛ لم أعرف إلى أين ذهبت.

أخبرتها أنني في مطعم جورج في بارتينغتُن وأعطيتها رقم الهاتف، وقلتُ لها أن تتصل بمجرد عودة إيلي، ثم عدتُ لأنضم إلى فيلبوت. وقد رأى من وجهي فوراً أن ثمة خطباً، فقلتُ له: لم تعد إيلي إلى البيت بعد. لقد خرجت تركب الخيل صباح اليوم، وهي تفعل ذلك في أغلب الأيام، ولكن الأمر لا يستغرق سوى نصف ساعة إلى ساعة.

قال فيلبوت بلطف: لا تقلق قبل الأوان يا ولدي. إن بيتكم في منطقة موحشة نائية، وربما أصيب حصانها فعرج فقادته مشياً إلى البيت. ألم ترَ كل تلك السهول والمنحدرات وراء الغابة. لن تجد أحداً هناك ترسل معه خبراً.

- لو أنها غيرت خُططها وأخذت حصانها لتزور أحداً أو ما شابه ذلك لكانت اتصلت بي هنا... كان من شأنها أن تترك لنا خبراً بذلك.

- حسناً، لا تنفعل كثيراً. أظن أن من الأفضل أن نذهب الآن مباشرة ونرى ما يمكننا عمله.

وبينما كنا خارجين إلى موقف السيارات انطلقت منه سيارة أخرى. وكان فيها الرجل الذي لاحظتُه في قاعة الطعام، وفجأة تذكرتُ من هو. ستانفورد لويد أو شخص يشبهه كثيراً. وتساءلت ماذا عساه يفعل هنا. أيمكن أن يكون قد أتى لرؤيتنا؟ إن كان الأمر كذلك فمن الغريب أنه لم يُبلغنا بالأمر. وكانت معه في السيارة امرأة بدت وكأنها كلوديا هاردكاسل، ولكن المؤكد أنها في لندن مع غريتا تتسوق. وحيرني ذلك كله كثيراً!

وفيما نحن نقود السيارة نظر فيلبوت إليّ مرة أو مرتين، وقد انتبهتُ لنظرته مرة وقلتُ بشيء من المرارة: حسناً، لقد قلتَ صباح اليوم إنني مقدور.

- هيا، لا تفكر بهذا الأمر الآن. ربما كانت قد وقعت ولوت كاحلها أو ما شابه ذلك... رغم أنها فارسة جيدة. لقد رأيتُها، ولا يمكنني تخيل وقوع حادث.

- يمكن للحوادث أن تقع في أي وقت.

قدتُ السيارة بسرعة، ووصلنا أخيراً إلى الطريق الذي يطل على السهول فوق بيتنا، وأخذنا ننظر حولنا ونحن سائرون. توقفنا بين الحين والآخر لنسأل بعض الناس. أوقفنا رجلاً كان يحفر، وأخذنا منه أول الأخبار: لقد رأيتُ حصاناً لا يقوده أحد، منذ ساعتين تقريباً أو أكثر. وكنتُ أريد الإمساك به ولكنه ركض سريعاً عندما اقتربتُ منه... رغم أنني لم أرَ أحداً.

قال فيلبوت: الأفضل أن نذهب إلى البيت، فقد تكون هناك أخبار عنها.

ذهبنا إلى البيت، ولكن لم تكن هناك أية أخبار. وجدنا السائس وأرسلناه لكي يبحث في السهل بحثاً عن إيلي. واتصل فيلبوت ببيته وأرسل رجلاً من هناك أيضاً. أما أنا وهو فقد صعدنا معاً في طريق ترابي عبر الغابة كانت إيلي غالباً ما تستخدمه، إلى أن خرجنا منه إلى الأرض المنخفضة هناك.

في البداية لم يكن ثمة ما يمكن رؤيته، ثم مشينا على طول حافة

الغابة إلى حيث تنتهي العديد من الطرق الترابية الأخرى. وهكذا... وجدناها. رأينا ما بدا وكأنه كومة متهدلة من الملابس. كان الحصان قد عاد ووقف الآن يرعى قرب كومة الملابس. وبدأتُ أركض، وتبعني فيلبوت بسرعة أكبر مما يُتوقع من رجل في مثل عمره.

وكانت هناك... ممددة في كومة متداعية، ووجهها الأبيض الصغير ملتفت نحو السماء. قلت: "لا أستطيع... لا أستطيع..."، ثم أدرتُ وجهي جانباً.

ذهب فيلبوت وجثا قربها، وقد نهض على الفور تقريباً وقال: سنحصل على طبيب، شو. إنه الأقرب. ولكن... لا أظن أن في ذلك أية فائدة يا مايك.

- أتعني... أنها ميتة؟

- نعم، لا فائدة في التظاهر بأي شيء آخر.

قلتُ وأنا ألتفت جانباً: آه، يا إلهي! لا أستطيع تصديق ذلك، ليس إيلي.

قال: "اسمع، تنشق من هذه". وأخرج من جيبه زجاجة ذات عطر نفاذ ففتح غطاءها وناولني إياها. وتنشقتُ منها نفساً عميقاً وأنا أشكره، وبعد ذلك جاء السائس مسرعاً فأرسله فيلبوت لإحضار الدكتور شو.

* * *

- ١٨ -

جاء شو في سيارة لاند روفر مهترئة، وأحسب أنها كانت السيارة التي يستخدمها في الذهاب لزيارة المزارع المعزولة عندما يكون الطقس سيئاً. لم يكد ينظر إلى أيٍ منا، بل ذهب مباشرة وانحنى فوق إيلي، ثم جاء إلينا وقال: لقد مضت ثلاث ساعات أو أربع على وفاتها على الأقل. كيف حدث ذلك؟

أخبرتُه كيف خرجتْ لركوب الحصان كعادتها بعد الإفطار هذا الصباح، فقال: هل سبق أن تعرضت لأية حوادث حتى الآن عندما كانت تخرج لركوب الحصان.

- لا؛ فقد كانت فارسة جيدة.

- نعم، أعرف أنها فارسة جيدة؛ فقد رأيتها مرة أو مرتين، وقد فهمتُ أنها كانت تركب الحصان منذ أن كانت طفلة. لقد تساءلتُ إن كانت قد تعرضت إلى حادث مؤخراً مما يمكن أن يؤثر على أعصابها قليلاً. إن كان الحصان قد جفل...

قلت: ولماذا يجفل الحصان؟ ما أسوأ هذا الـ...

قال الميجر فيلبوت: ليس في هذا الحصان أي عيب؛ فهو مطواع تماماً. هل انكسر فيها أي عظم؟

- أنا لم أُجرِ فحصاً كاملاً بعد، ولكن لا يبدو عليها أي جرح ظاهري. قد يوجد جرحٌ داخلي ما، وربما كانت الصدمة هي السبب.

- ولكن لا يمكن للمرء أن يموت بسبب الصدمة.

- لقد سبق أن توفي أناس من الصدمة قبل الآن، وإذا كان لها قلب ضعيف...

- لقد قالوا في أمريكا إن في قلبها ضعفاً، نوعاً من أنواع الضعف على الأقل.

- هممم، أنا لم أجد أثراً لهذا عندما فحصتُها. ليس لدينا جهاز لتخطيط القلب هنا. وعلى أية حال لا فائدة من الخوض في ذلك الآن. سنعرف لاحقاً... بعد التحقيق.

نظر إليّ بتعاطف ثم ربت على كتفي وقال: اذهب إلى البيت ونم؛ فأنت من يعاني من الصدمة.

وبتلك الطريقة الغريبة التي يتجمع الناس فيها في الريف دون أن تعرف من أين جاؤوا وجدنا ثلاثة أشخاص أو أربعة يقفون بجانبنا في تلك اللحظة. كان أحدهم من هواة المشي في الريف جاء من الطريق العام بعد أن رأى مجموعتنا الصغيرة، والأخرى امرأة متوردة الوجه أظنها كانت ذاهبة إلى مزرعة من طريق مختصر، بالإضافة إلى عجوز يعمل في رصف الطريق. وكانوا يُطلقون الملاحظات وعبارات التعجب:

"يا للشابة المسكينة!"... "وهي صغيرة جداً أيضاً. وقعت عن حصانها، أليس كذلك؟"... "حسناً، لا يمكن للمرء أن يعرف أحوال الخيول".

- إنها السيدة روجرز، أليس كذلك؟ السيدة الأمريكية التي تسكن فدان الغجري.

وعندما انتهى الجميع من إطلاق عبارات التعجب بطريقتهم المندهشة تكلم الرجل العجوز، قال وهو يهز رأسه: كان يجب أن أرى ذلك وهو يحدث... كان يجب أن أرى حدوثه.

التفت إليه الطبيب بحدة وقال: ما الذي رأيته يحدث؟

- رأيتُ حصاناً يجفل ويركض عبر الحقول.

- هل رأيت السيدة تقع؟

- لا، لا، لم أرَها. كانت تقود الحصان بمحاذاة الغابة عندما رأيتها، وبعد ذلك أدرتُ ظهري ورحتُ أُقُدُّ الحجارة للطريق، وبعدها سمعتُ وقع حوافر فرفعتُ بصري لأرى الحصان يركض بأقصى سرعته. لم أحسب أن حادثاً قد وقع، بل ظننتُ أن السيدة ربما نزلت وتركت الحصان بطريقة ما. ولم يكن الحصان قادماً باتجاهي، بل في الاتجاه المعاكس.

- ألم ترَ السيدة ممددة على الأرض؟

- نعم، لم أرَها؛ فأنا لا أرى بشكل جيد عن بعد. لقد رأيتُ الحصان لأنه ظهر أمام خط الأفق.

- أكانت تقود الحصان بمفردها؟ هل كان معها أو بقربها أحد؟

- لا، لم يكن أحد بقربها، بل كانت بمفردها. وكانت تقود الحصان غير بعيد عني، وقد مرّت بي وهي تتجه في هذا الاتجاه. أظنها كانت تتجه باتجاه الغابة. كلا، لم أرَ أحداً أبداً غيرها وغير الحصان.

قالت المرأة ذات الوجه المتورد: ربما كانت الغجرية هي التي أفزعتها.

التفتُّ قائلاً: أي غجرية؟ ومتى؟

- آه، لا بد أن الأمر حدث منذ... منذ ثلاث ساعاتٍ أو أربعٍ مضت، عندما نزلتُ الطريق هذا الصباح. ربما كانت الساعةً حوالي العاشرة إلاّ ربعاً، ورأيتُ تلك المرأة الغجرية. تلك التي تعيش في البيت الصغير في القرية. ظننتُ على الأقل أنها هي، فلم أكن قريبة بما يكفي لأتأكد، ولكنها الوحيدة التي تتجول في المنطقة مرتدية رداء أحمر. وكانت تمشي صعوداً في أحد الممرات الترابية بين الأشجار. لقد أخبرني أحدهم أنها قالت أشياء قذرة للسيدة الأمريكية الشابة وأنها هددتها، وقالت لها إن شيئاً سيئاً سيحدث إن هي لم تخرج من هذا المكان. سمعتُ أنها كانت تهدد كثيراً.

قلتُ: الغجرية...

ثم قلتُ بمرارة لنفسي، ولكن بصوت عالٍ: فدان الغجري! ليتني لم أرَ هذا المكان.

* * *

الكتاب الثالث

- ١٩ -

غريب كم هو صعب بالنسبة لي تذكُّر ما حدث بعد ذلك، وأعني بهذا تسلسل الوقائع كلها. فحتى ذلك الحين كان الأمر كله واضحاً في عقلي. كل ما في الأمر أنني كنتُ متردداً قليلاً في اختيار نقطة البداية. ولكن ابتداء من تلك اللحظة أصبح الأمر أشبه بسكين هوت فقسمت حياتي نصفين، ويبدو لي الآن أنني لم أكن مستعداً لكل ما مررتُ به منذ لحظة وفاة إيلي. كانت حالة فوضى لأناس وعناصر وأحداث لم أكن فيها مسيطراً على شيء، وكانت الأشياء تحدث، ليس لي، بل من حولي. هكذا بدا لي الأمر.

كان الجميع في غاية اللطف معي، ويبدو أن هذا الأمر هو ما أتذكره أفضل من أي شيء آخر. تعثرتُ على غير هدى، وبدا عليّ الشرود ولم أعرف ماذا أفعل. وأذكر أن غريتا قد أبرزت معدنها الحقيقي. كانت لديها تلك القدرة المدهشة التي تمتلكها النساء على تولي مسؤولية موقف ما والتعامل معه، وأعني بذلك التعامل مع كل التفاصيل الصغيرة غير الهامة التي لا بد لأحد من متابعتها، ولم يكن من شأني أن أكون قادراً على متابعتها بنفسي.

وأظن أن أول شيء أذكره بوضوح بعد أن نقلوا إيلي وعدتُ أنا إلى بيتي... بيتنا... كان عندما جاء الدكتور شو وتحدث معي. لا أدري كم كان قد مضى على المأساة. كان هادئاً لطيفاً وعقلانياً، واكتفى بتوضيح الأمور بلطف.

الترتيبات. أذكر استخدامه لكلمة الترتيبات. يا لها من كلمة كريهة، هي وكل ما ترمز إليه. إن تلك الأشياء في الحياة التي تكون لها أسماء ضخمة كبيرة: الحب... الحياة... الموت... الكراهية... إن هذه ليست هي الأشياء التي تحكم وجودنا أبداً. بل إن ما يحكمها هو الكثير من الصغائر المُهينة الأخرى. أشياء يجب أن تتحملها، أشياء لا تفكر فيها أبداً حتى تحدث لك. ترتيبات الجنازة، وجلسات التحقيق، والخدم الذين يدخلون الغرف ويُغلقون الواقيات الخشبية للنوافذ. لماذا تُغلق واقيات النوافذ بسبب موت إيلي؟ لماذا هذا التصرف من بين كل التصرفات الحمقاء؟

أذكر أنني -لهذا السبب- شعرتُ بامتنان كبير للدكتور شو؛ فقد تعامل مع هذه الأمور بكل لطف وعقلانية، شارحاً برقة لماذا يجب أن تحدث بعض الأمور، كجلسة التحقيق مثلاً. وأذكر أنه كان يتحدث بكل تمهل بحيث يتأكد من استيعابي لكل النقاط.

لم أعرف كيف ستكون جلسة التحقيق، فلم أحضر جلسة تحقيق أبداً من قبل. وقد بدت لي الجلسة -بشكل غريب- غير واقعية وأقرب إلى عمل الهواة. كان قاضي التحقيق رجلاً ضئيل الجسم يضع نظارة على أنفه، وقد اضطررتُ لتقديم شهادةِ تَعَرُّف على الجثة، ولوصف آخر مرة رأيتُ فيها إيلي على مائدة الإفطار ومغادرتها للقيام بجولتها

الصباحية المعتادة على متن حصانها، والترتيبات التي وضعناها لنلتقي لاحقاً لتناول الغداء. وقلتُ إنها بدت تماماً كعادتها، بصحة جيدة تماماً.

كانت شهادة الدكتور شو هادئة وغير حاسمة: لم تكن في الجثة جروح خطيرة، بل التواء في عظمة الترقوة فقط ورضوض كتلك التي يمكن أن تحدث بسبب سقوط المرء عن حصان. وهي ليست ذات طبيعة خطيرة جداً، وقد حدثت وقت الوفاة. لم يبدُ أنها قد تحركت بعد وقوعها، ورأى أن وفاتها حدثت فوراً. لم يوجد جرح عضوي محدد سبّب الوفاة، ولا يمكنه أن يُعطي تفسيراً للوفاة إلاّ أن تكون قد حدثت نتيجة قصور في القلب ناتج عن صدمة. وبقدر ما استطعتُ أن أفهم من اللغة الطبية المُستخدمة فإن إيلي قد ماتت -ببساطة- نتيجة غياب النَفَس... أي بنوع من أنواع الاختناق. كانت أعضاؤها سليمة، ومحتويات معدتها طبيعية.

أما غريتا (التي أدلت بشهادتها أيضاً) فقد أكدت بقوةٍ أشدّ من قوة تأكيدها للدكتور شو من قبل أن إيلي قد عانت من نوعٍ من أمراض القلب بضع سنوات. قالت إنها لم تسمع شيئاً محدداً يُذكر أمامها، ولكن أقارب إيلي قالوا أحياناً إن قلبها ضعيف وإنها يجب أن تحذر ولا تتعب نفسها. ولكنها لم تسمع شيئاً أكثر تحديداً من ذلك.

ثم انتقلنا إلى الناس الذين رأوا الحادث أو كانوا في موقعه وقت وقوعه، وأولهم العجوز الذي كان يقطع الحجارة. فقد رأى السيدة تعبر قربه، وكانت تبعد نحواً من خمسين متراً، وكان يعرف من هي رغم أنه لم يتكلم معها أبداً، فقد كانت سيدة البيت الجديد.

- أكنتَ تعرفها بالشكل؟

- لا، ليس تماماً بالشكل، ولكنني كنتُ أعرف الحصان يا سيدي؛ فقد كان له شعر أبيض في مؤخرة رسغه، وقد كان ملكاً للسيد كاري الساكن في شيتلغروم، ولم أسمع عن هذا الحصان إلاّ أنه هادئ ومطواع ومناسب للركوب من قِبل سيدة.

- أكان الحصان يسبب أية متاعب عندما رأيته؟ هل كان يجري أو يقفز بأي شكل؟

- لا؛ لقد كان هادئاً تماماً، وكان الصباح جميلاً.

قال إنه لم يلاحظ وجود كثير من الناس في المنطقة، فذلك الطريق الترابي الذي يقطع السهل لا يُستعمل كثيراً إلاّ كطريق مختصر أحياناً للوصول إلى إحدى المزارع، وكان طريق ترابي آخر يلتقي به على بعد نحو ميل من هناك. كان قد رأى واحداً أو اثنين من المارة في ذلك الصباح ولكنه لم ينتبه لهما كثيراً. كان ثمة رجل على دراجة هوائية، ورجل آخر يمشي. وكانا أبعد بكثير من أن يعرف هويتهما، كما أنه لم يأبه لهما على أية حال. قال إنه رأى السيدة لي العجوز في وقت مبكر، وقبل رؤية السيدة وهي تركب حصانها، أو هكذا خُيِّل إليه. كانت تصعد الطريق الترابي نحوه، ثم استدارت وذهبت نحو الغابة. كانت غالباً ما تمشي عبر السهل، ومن الغابة وإليها.

سأل قاضي التحقيق عن سبب عدم وجود السيدة لي في المحكمة، إذ فهم أنها قد استُدعيت للحضور، وقيل له إن السيدة لي قد غادرت القرية منذ بضعة أيام. لا يعرف أحدٌ متى بالضبط، وهي لم

تترك خلفها أي عنوان. ولكنها لم تكن معتادة على ترك أي عنوان، فقد كانت تذهب غالباً وتعود دون أن تبلغ أحداً، ولذلك لا يوجد شيء غير عادي في هذا الأمر. والحقيقة أن البعض قالوا إنهم ظنوا أنها كانت قد غادرت القرية قبل يوم وقوع الحادث.

سأل قاضي التحقيق العجوزَ ثانية: ولكنك تظن أن من رأيتها كانت السيدة لي فعلاً، أليس كذلك؟

- لا يمكنني الجزم، ما كنتُ لأحب الجزم في ذلك. كانت امرأة طويلة تمشي بخطوات واسعة وترتدي رداء قرمزياً مثل الذي ترتديه السيدة لي أحياناً، ولكنني لم أدقق في الأمر كثيراً؛ فقد كنتُ مشغولاً فيما أفعله. ربما كانت هي، وربما كانت امرأة أخرى. من ذا يستطيع الجزم؟

أما بالنسبة لبقية شهادته فقد كرر -إلى حد بعيد- ما كان قد قاله لنا. فقد رأى السيدة تركب الحصان غير بعيد عنه، وكان غالباً ما يراها تفعل ذلك من قبل. لم يولِ ذلك عناية كبيرة. إلاّ أنه رأى لاحقاً الحصان يعدو بمفرده. وبدا وكأن شيئاً قد أفزع الحصان، أو أن ذلك احتمال على الأقل. لم يستطع تحديد الوقت الدقيق لذلك. فربما كانت الساعة وقتها الحادية عشرة، وربما قبل ذلك. وقد رأى الحصان بعد وقت طويل من ذلك على مسافة بعيدة، وبدا أنه يعود باتجاه الغابة.

بعد ذلك عاد قاضي التحقيق لاستدعائي وطرح عليّ بعض الأسئلة الأخرى عن السيدة لي.

- أكنتَ أنت وزوجتك تعرفان السيدة لي بالشكل؟

- نعم، نعرفها تماماً.

- هل تحدثتما معها؟

- نعم، عدة مرات. أو بالأحرى هي التي تحدثت معنا.

- هل هددتكَ أنت أو زوجتك في أي وقت؟

سكتُّ لحظات ثم قلت ببطء: نعم، بمعنى من المعاني، ولكني لم أحسب أبداً...

- لم تحسب ماذا؟

- لم أحسب أنها قد عَنَت ذلك حقاً.

- هل بدا عليها أنها تحمل أي ضغينة خاصة على زوجتك؟

- لقد قالت زوجتي ذلك مرة. قالت إنها ظنت أن العجوز تحمل نوعاً من الكراهية لها، ولكنها لم تستطع العثور على سبب لذلك.

- هل سبق لك أو لزوجتك في أي وقت أن طردتماها من أرضكما، أو هددتماها أو عاملتماها بخشونة بأي شكل؟

- إن أي اعتداء حصل إنما جاء من طرفها هي.

- هل أحسستَ أبداً بانطباع مفاده أنها مضطربة عقلياً؟

فكرتُ ثم قلت: نعم، أحسستُ بذلك. رأيتُ أنها قد أصبحت

تعتقد أن الأرض التي بنينا عليها بيتنا إنما تعود لها، أو تعود لقبيلتها (أو كائناً ما كان الاسم الذي يُطلقونه على أنفسهم). كان لديها نوع من الهوس بالموضوع.

ثم أضفتُ بتمهل: أظن أن حالتها ازدادت سوءاً وغدت مشحونة أكثر فأكثر بهذه الفكرة.

- فهمت. هل تسببت بأي أذى جسدي لزوجتك في أي وقت؟

قلتُ ببطء: لا، لا أحسب أنه سيكون من الإنصاف أن أزعم ذلك. كان الأمر كله نوعاً من... من تحذيرات الغجر المكرورة: "سيكون طالعكما سيئاً إن بقيتما هنا... ستحل عليكما لعنة إن لم تغادرا".

- هل أتت على ذكر كلمة الموت؟

قلت: "نعم، أظن ذلك. إننا لم نأخذها على محمل الجد". ثم صحّحتُ نفسي قائلاً: أنا لم آخذها على محمل الجد على الأقل.

- وهل تظن أن زوجتك قد أخذتها على محمل الجد؟

- أخشى أنها قد أخذت الأمر بجد أحياناً. إن بوسع تلك العجوز أن تكون مخيفة بعض الشيء، ولكني لا أظن أنها كانت مسؤولة حقاً عما تقوله أو تفعله.

انتهت وقائع الجلسة بإعلان قاضي التحقيق رفع الجلسة إلى ما بعد أسبوعين. لقد أشارت جميع الدلائل إلى أن الوفاة كانت بسبب

حادث، ولكن لم تتوفر دلائل كافية تبين ما الذي أدى لوقوع الحادث. وقال القاضي إنه سيؤجل الجلسة إلى أن يسمع شهادة السيدة إيسثر لي.

* * *

- ٢٠ -

في اليوم التالي للتحقيق ذهبتُ لرؤية الميجر فيلبوت، وقلتُ له مباشرة إنني أريد رأيه. لقد رأى عامل الحجارة العجوز امرأة ظنها السيدة لي وهي تصعد باتجاه الغابة في ذلك الصباح. قلتُ له: أنت تعرف العجوز الغجرية، فهل تظن فعلاً أن من شأنها أن تكون قادرة على التسبب في حادث نتيجة حقد مقصود ومدبر؟

- لا أستطيع حقاً أن أصدق ذلك يا مايك، فحتى تقوم بشيء من هذا القبيل لا بد لك من دافع قوي جداً؛ كالانتقام لأمر شخصي حدث لك أو ما شابه ذلك. فما الذي فعلتْهُ إيلي للعجوز؟ لا شيء.

- أعرف أن ذلك يبدو جنوناً، ولكن لماذا بقيت تظهر بتلك الطريقة الغريبة وتهدد إيلي وتطلب منها مغادرة المكان؟ بدا وكأنها تحمل الكراهية لها. ولكن كيف يمكن أن تفعل ذلك؟ إنها لم تلتقِ بإيلي من قبل أبداً. ماذا كانت إيلي بالنسبة إليها سوى أمريكية غريبة تماماً؟ لا يوجد تاريخ سابق أو صلة بينهما.

- أعرف، أعرف. لا أملك -يا مايك- إلاّ أن أشعر بوجود شيء

لا نفهمه هنا. لا أعرف كم كانت زوجتك تأتي إلى إنكلترا قبل زواجكما. هل سبق لها أن عاشت في هذه المنطقة لأية فترة؟

- لست واثقاً من ذلك؛ فأنا لا أعرف في الواقع شيئاً عن إيلي. أعني مَن الذين كانت تعرفهم وأين كانت تذهب. كل ما في الأمر أننا... التقينا.

ضبطتُ نفسي ونظرتُ إليه وقلت: أنت لا تعرف كيف التقينا، أليس كذلك؟ نعم، لا تعرف. ما كنت لتخمن أبداً كيف التقينا.

وفجأة، ورغماً عني، بدأتُ أضحك. ثم تمالكتُ نفسي. كان بوسعي أن أشعر أنني على حافة الجنون. بوسعي أن أرى الآن وجهه الصبور اللطيف وهو ينتظر ريثما أعود لطبيعتي. كان رجلاً مُحباً للمساعدة، لا شك في ذلك.

قلتُ له: لقد التقينا هنا، في فدان الغجري. كنتُ قد قرأتُ لوحة الإعلان عن بيع العقار، ومشيت صاعداً الطريق فوق التلة لأني كنتُ أشعر بفضول نحو هذا المكان. وهكذا رأيتها لأول مرة. كانت تقف هناك تحت شجرة، وقد فاجأتها... أو ربما كانت هي التي فاجأتني. وعلى أية حال، كانت تلك هي بداية كل شيء. وهكذا حدث أن جئنا لنعيش في هذا المكان التعس المشؤوم.

- هل شعرتَ بذلك منذ البداية؟ أي بأنه سيكون مشؤوماً؟

- لا... نعم... لا، لا أدري حقاً. إنني لم أعترف بذلك أبداً. لم أرغب أبداً بالإقرار بذلك، ولكني أظن أن إيلي عرفت. أظنها كانت

خائفة منذ البداية.

ثم قلتُ ببطء: أظن أن أحدهم قد أراد أن يرعبها عن عمد.

قال بشيء من الحدة: ماذا تعني بذلك؟ من الذي أراد أن يرعبها؟

- يفترض أنها المرأة الغجرية. ولكنني -بشكل ما- لستُ واثقاً تماماً من ذلك. لقد كانت تكمن لإيلي وتقول لها إن هذا المكان سيجلب لها الشؤم وإن عليها أن تغادره.

قال بغضب: ها! ليتكم أخبرتموني بالمزيد عن ذلك؛ إذ كنت سأتكلم مع إيستر العجوز وأخبرها أن من غير المسموح لها أن تقوم بمثل هذه الأمور.

- ولماذا قامت بها؟ ما الذي دفعها لذلك؟

- إنها كمعظم الناس، تحب أن تجعل نفسها مهمة. تحب إما أن تُنذر الناس أو أن تقرأ لهم طالعهم وتتنبأ بحياة سعيدة لهم. تحب أن تتظاهر بأنها تعرف المستقبل.

قلتُ بتمهل: لنفترض أن أحداً أعطاها مالاً. لقد قيل لي إنها تحب المال.

- نعم، لقد كانت مولعة بالمال. إذا دفع لها أحدهم المال... هذا ما تُلمّح إليه... ما الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟

- الرقيب كين. ما كنتُ لأفكر بهذا الأمر شخصياً.

قال: "فهمت". ثم هزّ رأسه بارتياب وقال: لا يمكنني أن أصدق أن من شأنها أن تحاول عامدة إخافة زوجتك إلى حدِّ التسبب في وقوع حادث.

- ربما لم تحسب حساباً لوقوع حادث قاتل. ربما فعلت شيئاً لإخافة الحصان. ربما أطلقت إحدى الألعاب النارية أو رفرفت بورقة بيضاء أو غير ذلك. كنتُ أشعر أحياناً أنها تحقد على إيلي لسبب ما، لسبب لا أعرفه.

- يبدو هذا مستبعداً جداً.

- إن هذا المكان لا يعود لها، أليس كذلك؟ أعني الأرض.

- نعم. ربما كان الغجر قد أُنذروا بإخلاء هذه الأرض، وربما أكثر من مرة. إن الغجر يُطردون دوماً من مختلف الأماكن، ولكني أشك في أنهم يحملون سخطاً وضغينة مدى الحياة بسبب ذلك.

- نعم، من شأن ذلك أن يكون مستبعداً. ولكني أتساءل فعلاً إن كان أحدهم قد دفع لها مالاً لسبب لا نعرفه...

- لسبب لا نعرفه... أي سبب؟

فكرتُ للحظات ثم قلت: إن كل ما سأقوله سيبدو خيالياً، ولكن لِنقل -كما أشار كين- إن أحدهم دفع لها مالاً لتقوم بما فعلته. فما الذي يريده ذلك الشخص؟ لنقل إنه يريد أن نرحل نحن كلانا من هنا. وقد ركز هذا الشخص على إيلي وليس عليّ أنا لأنني ما كنتُ لأخاف بالطريقة التي تخاف بها إيلي. لقد أخافوها لكي يدفعوها (ويدفعوني أنا

بالنتيجة) إلى الرحيل من هنا. إن كان الأمر كذلك فلا بد من وجود سبب ما لرغبتهم في طرح الأرض في السوق ثانية. لنقل إن أحدهم يريد أرضنا لسبب ما.

ثم توقفت، فقال الميجر فيلبوت: هذا اقتراح منطقي، ولكنني لا أعرف سبباً يدفع أحداً للرغبة في الأرض.

- ربما كان ذلك بسبب خزين من معدن ما في الأرض لا يعرف أحدٌ شيئاً عنه.

- هممم، أشك في ذلك.

- لنقل شيئاً أشبه بكنز مدفون. آه، أعرف أن ذلك يبدو سخيفاً.

كان فيلبوت ما زال يهز رأسه، ولكن بحماسة أقل من ذي قبل. قلتُ له: الفرضية الأخرى الوحيدة هي أن نعود خطوة إضافية إلى ما وراء الحدث كما فعلتَ أنتَ الآن. أن نذهب إلى ما خلف السيدة لي، إلى الشخص الذي دفع للسيدة لي. فقد يكون ذلك عدواً مجهولاً لإيلي.

- ولكنك لا تستطيع التفكير بأحدٍ يمكن أن يكون هو ذلك الشخص؟

- لا. إنها لم تعرف أحداً أبداً في هذه المنطقة. هذا ما أنا واثق منه. ليست لها أي صلات بهذا المكان.

ثم نهضتُ وقلت: شكراً على إصغائك إليّ.

- ليتني استطعتُ أن أكون أكثر عوناً.

خرجتُ من الباب وأنا أتلمس بأصابعي الشيء الذي أحمله في جيبي. ثم اتخذتُ قراراً مفاجئاً فعدتُ على أعقابي ودخلتُ الغرفة قائلاً: معي شيء أحب أن أُريك إياه. كنتُ سآخذه إلى الرقيب كين لأريه إياه وأرى ماذا يمكن أن يستنتج منه.

أدخلتُ يدي في جيبي وأخرجتُ حجراً دائرياً مسطحاً ملفوفاً بقطعة من الورق المُجعَّد وعليها كتابة بأحرف منفصلة. قلت: لقد أُلقي هذا الحجر من نافذة غرفة إفطارنا صباح اليوم. سمعتُ صوت انكسار الزجاج وأنا نازل على الدرج. وقد سبق أن رُمي حجر من النافذة مرة من قبل عند أول مجيئنا. لا أدري إن كان من رمى هذا نفس الشخص أم غيره.

نزعت الورقة الملفوفة حول الحجر ومددتُ يدي بها إليه. كانت ورقة قذرة خشنة، وكانت عليها كتابة بأحرف منفصلة وبحبر باهت بعض الشيء. وضع فيلبوت نظارته وانحنى فوق الورقة. كانت الرسالة المكتوبة قصيرة تماماً. كل ما قالته هو: «لقد كانت امرأة من قتلت زوجتك».

ارتفع حاجبا فيلبوت وقال: غريب جداً. أكانت الرسالة الأولى التي تلقيتَها مكتوبة بأحرف منفصلة؟

- لا أذكر الآن. كانت مجرد إنذار لنا بأن نرحل من هنا. لا أذكر حتى صيغتها الآن. وعلى أية حال، يبدو أن من المؤكد تقريباً أن تلك كانت من عمل أشقياء صغار، أما هذه فلا تبدو مثل تلك تماماً.

- أتظن أنها أُلقيت من قبل شخص يعرف شيئاً؟

- ربما كانت مجرد تصرف حاقد يدخل ضمن تصنيف الرسائل المُغفلة من التوقيع، وأنت تعلم أن لديكم الكثير من ذلك في الريف.

أعادها إليّ وقال: ولكنني أظن أن حدسك كان مصيباً في ضرورة أخذها للرقيب كين، فسيعرف أكثر مما أعرف أنا عن هذه الرسائل المجهولة.

وجدتُ الرقيب كين في مركز الشرطة، وقد أثار الحجر اهتمامه تماماً. قال: أمور غريبة تحدث هنا.

- ماذا تظن أنها تعني؟

- من الصعب القول. قد تكون مجرد حقد يقود إلى اتهام شخص بعينه.

- قد تكون مجرد اتهام للسيدة لي فيما أظن، أليس كذلك؟

- لا، لا أظن أن التعبير عن الأمر كان سيأخذ هذا النحو. لعلها تعني أن أحداً قد رأى أو سمع شيئاً، وهذا ما أتمناه فعلاً. ربما سمع ضجة أو صرخة، أو أن الحصان جفل وركض قرب أحدهم، فرأى هذا الشخص أو قابل امرأة بعد ذلك مباشرة. ولكن يبدو أن الرسالة تشير إلى امرأة غير الغجرية لأن الجميع يرون أن الغجرية متورطة في الأمر أصلاً، ولذلك يبدو أن المعني امرأة أخرى مختلفة تماماً.

- ماذا عن الغجرية؟ هل سمعتم أخباراً عنها؟ هل وجدتموها؟

هزّ رأسه نافياً ببطء وقال: إننا نعرف بعض الأماكن التي اعتادت الذهاب إليها عندما تغادر القرية باتجاه منطقة إيست أنجليا. لديها صداقات هناك بين قبائل الغجر. إنهم يقولون إنها لم تأتِ إلى هناك، ولكن من شأنهم أن يقولوا ذلك على أية حال فهم يتسترون على بعضهم البعض. وهي معروفة شكلاً إلى حدٍ بعيد في تلك المنطقة، ولكن أحداً لم يرها هناك. ومع ذلك لا أظنها قد بلغت في ابتعادها منطقةَ إيست أنجليا.

كان في طريقة قوله للكلمات شيء غريب. قلت: لا أفهم قصدك تماماً.

- انظر إلى الأمر بهذه الطريقة: إنها خائفة، ولديها سبب وجيه لذلك؛ فقد كانت تهدد زوجتك وتخيفها، ولنقل إنها الآن تسببت في حادث أدى إلى وفاة زوجتك. سيكون الشرطة جادين في البحث عنها، وهي تعرف ذلك، ولذلك ستختبئ وستضع بيننا وبينها ما تستطيعه من مسافات، ولكنها -في ذلك- لن تكشف نفسها للناس وستخشى التنقل بوسائط النقل العامة.

- ولكنكم ستجدونها، أليس كذلك؟ إنها امرأة ذات مظهر مميز يلفت النظر.

- آه، نعم، سنعثر عليها في نهاية المطاف. إن هذه الأمور تستغرق بعض الوقت. هذا إن كانت قد سارت على هذا النحو.

- ولكنك ترى أنها سارت على نحو مختلف.

- أنت تعرف ما الذي كان يؤرقني منذ البداية. كنتُ أتساءل إن كان أحدهم قد دفع لها مالاً لتقول ما قالته.

- إذن فقد تكون أكثر حرصاً على الهرب في هذه الحالة.

- ولكن سيوجد شخص آخر لا يقل حرصاً وقلقاً. يجب أن تفكر في ذلك يا سيد روجرز.

قلتُ بتمهل: أتعني بذلك الشخص الذي دفع لها المال؟

- نعم.

- ماذا لو كانت... امرأة هي التي دفعت لها؟

- وماذا لو كان لشخص ثالث فكرة عن هذا الموضوع، وهكذا بدأ هذا الشخص الثالث يرسل رسائل مُغفلة من التوقيع. سوف تخاف المرأة عندها أيضاً، وليس ضرورياً أن تكون قد قصدت حدوث هذا. وكائناً ما كان مقدار حثِّها للمرأة الغجرية على تخويف زوجتك ودفعها لترك هذا المكان، فإنها ما كانت لتهدف من ذلك إلى التسبب بوفاة السيدة روجرز.

- نعم، لم تكن الوفاة مقصودة. كان الهدف مجرد إخافتنا؛ إخافة زوجتي وإخافتي لنترك المكان.

- والآن من الذي سيخاف؟ المرأة التي تسببت في الحادث. وتلك هي السيدة لي، ولذلك فإنها سترغب في البوح بما في صدرها، أليس كذلك؟ تريد القول إن ذلك لم يكن من عملها هي في الواقع، بل

وستعترف حتى باستلام المال لفعل ذلك، وسوف تذكر اسماً. ستقول من الذي دفع لها. ولن يرغب أحدهم بذلك، أليس كذلك يا سيد روجرز؟

- أتعني تلك المرأة المجهولة التي لا نعرف حتى بوجودها؟

- سواء كانت امرأة أم رجلاً. لتقل إن شخصاً ما قد دفع لها مالاً. إن مثل هذا الشخص سيرغب بإسكاتها بأسرع وقت، أليس كذلك؟

- أتفكر بأنها قد تكون ميتة؟

- هذا احتمال وارد، أليس كذلك؟

ثم قام بما بدا أنه تغيير مفاجئ للموضوع: أتعرف يا سيد روجرز ذلك البيت الصغير في أعلى الغابة التابعة لأرضكم؟

- نعم، ماذا عنه؟ لقد أصلحنا حاله، أنا وزوجتي، ورتبناه قليلاً. وكنا نذهب إليه من حين لآخر، ولكن ليس كثيراً، وليس مؤخراً بالتأكيد. لماذا؟

- لقد كنا نبحث في المنطقة، وقد دخلنا ذلك البيت، فلم يكن مقفولاً.

- نعم، لم نكن نقفله؛ فليس فيه شيء ذو قيمة تُذكر، مجرد بعض قطع الأثاث.

- ظننا أن من الممكن أن تكون السيدة لي تستخدمه، ولكننا لم

نجد لها أثراً. ومع ذلك فقد وجدنا هذه. كنتُ سأريك إياها على أية حال.

فتح أحد الأدراج وأخرج قداحة صغيرة رقيقة منقوشة بالذهب. كانت قداحة نسائية، وقد كُتب عليها بالألماس الحرف الأول «ك». قال الرقيب كين: ليست قداحة زوجتك، أليس كذلك؟

– بوجود الحرف الأول «ك»؟ لا، إنها ليست لإيلي. ليس لديها شيء من هذا النوع، كما أنها ليست قداحة الآنسة أندرسن أيضاً؛ فاسمها هو غريتا.

– لقد كانت هناك حيث سقطت من أحدهم. إنها مما تقتنيه الطبقات العليا... تكلف الكثير.

قلتُ وأنا أكرر الحرف متأملاً: «ك»، لا يمكنني التفكير بأحدٍ كان معنا ويبدأ اسمه بحرف «ك» باستثناء كورا، وهي زوجة والد زوجتي، ولكنني لا أستطيع حقاً تخيلها تتسلق الدرب صعوداً إلى ذلك البيت في ذلك الطريق الترابي الذي غطاه النبات. وهي –على أية حال– لم تأتِ للإقامة معنا منذ زمن طويل، بل منذ نحو شهر. ولا أظنني رأيتها تستعمل هذه القداحة أبداً. ولكن ربما ما كنتُ لألاحظ ذلك على أية حال. ربما كانت الآنسة أندرسن تعرف.

– حسناً، خذها معك وأرِها إياها.

– سأفعل. ولكن إن كان الأمر كذلك، أي إن كانت لكورا فإنه يبدو غريباً أننا لم نرها عندما كنا مؤخراً في ذلك البيت الصغير. إن من

شأن المرء أن يلاحظ شيئاً كهذا على الأرض... أكانت على الأرض؟

- نعم، قرب الأريكة تماماً. إن بإمكان أي امرئ أن يستخدم ذلك البيت بالطبع، وأنا أتحدث هنا عن أهل المنطقة، ولكن ليس من المحتمل أن تكون لديهم تحفة ثمينة كهذه.

- أيضاً كلوديا هاردكاسل يبدأ اسمها بهذا الحرف، ولكني أشك في أن تكون لديها أيضاً مثل هذه التحفة. وماذا عساها تفعل في ذلك البيت؟

- لقد كانت صديقة مقربة من زوجتك، أليس كذلك؟

- نعم، أظنها كانت أفضل صديقة لإيلي في المنطقة، وكان من شأنها أن تعرف أننا لا نمانع في استخدامها لذلك البيت الصغير في أي وقت.

- آه.

نظرتُ إليه بإمعان وقلت: لا أحسبك ترى أن كلوديا كانت.. عدوة لإيلي، أليس كذلك؟ فمن شأن ذلك أن يكون سخيفاً.

- أوافقك في عدم وجود سبب يدفعها لأن تكون عدوة لزوجتك، ولكن المرء لا يستطيع الجزم عند تعلق الأمر بالنساء.

بدأت أقول: "أحسب أن..."، ثم توقفت، لأن من شأن ما كنتُ سأقوله أن يبدو غريباً بعض الشيء. سأل الرقيب: نعم يا سيد روجرز؟

- أحسب أن كلوديا كانت متزوجة أصلاً برجل أمريكي... أمريكي اسمه لويد. والواقع أن اسم الوصي الرئيس على أموال زوجتي في أمريكا هو ستانفورد لويد. ولكن لا بد أن المئات يحملون اسم لويد، وعلى أية حال فإن الأمر سيكون مجرد مصادفة إن كان هو نفس الشخص. فما علاقة ذلك كله بقضيتنا؟

- لا يبدو هذا محتملاً. ولكن، مع ذلك...

ثم توقف، فقلت: الأمر الغريب أنني ظننتُ أنني رأيتُ ستانفورد لويد هنا يوم الـ... يوم الحادث. وكان يتناول الغداء في مطعم جورج في بارتينغتن.

- ألم يأتِ لرؤيتكما؟

هززتُ رأسي بالنفي وقلت: لقد كان مع امرأة بدت شبيهة بالآنسة كلوديا هاردكاسل. ولكن ربما كان هذا مجرد خطأ مني. أحسبك تعرف أن أخاها هو الذي بنى لنا البيت، أليس كذلك؟

- هل أبدت اهتماماً بالبيت؟

قلت: "لا، لا أحسبها تحب طراز أخيها المعماري". ثم نهضتُ وقلت: حسناً، لن آخذ المزيد من وقتك. حاول العثور على الغجرية.

- يمكنني أن أؤكد لك أننا لن نكف عن البحث؛ فقاضي التحقيق يريدها أيضاً.

ودعتُه وخرجتُ من مركز الشرطة. وبتلك الطريقة الغريبة التي

تحدث غالباً عندما تقابل فجأة شخصاً كنتَ تتحدث عنه خرجتْ كلوديا هاردكاسل من مكتب البريد وأنا أعبر أمامه، فتوقفنا كلانا. قالت بذلك الحرج الخفيف الذي يتملك المرء عندما يقابل شخصاً قد تعرض لمصيبة لتوه: إنني حقاً في غاية الأسف بخصوص إيلي يا مايك. لن أقول أكثر من هذا. أعرف أن من المؤلم أن يعزيك الناس بها، ولكني... ولكني مضطرة لقول ذلك فقط.

- أعرف. لقد كنتِ بالغة اللطف مع إيلي، لقد جعلتِها تشعر هنا وكأنها في وطنها، وقد كنتُ ممتناً لذلك.

- لقد كان عندي شيء واحد أردتُ أن أسألك عنه، ورأيت أنه ربما كان من الأفضل أن أسألك الآن قبل أن تذهب إلى أمريكا. سمعتُ أنك ستذهب قريباً جداً.

- سأذهب بأسرع وقت ممكن؛ فلديَّ الكثير مما ينبغي متابعته هناك.

- لقد أردتُ فقط... إن كنت تنوي طرح بيتك للبيع في السوق، فقد رأيتُ أن ذلك شيء ربما رغبتَ في إجرائه قبل أن تسافر... وإذا كان الأمر كذلك فإنني أرغب في أن تكون لي الأولوية في شرائه.

حدقتُ بها؛ إذ أدهشني ذلك حقاً. كان هذا آخر شيء توقعته.

- أتعنين أنك تودين شراءه؟ لقد ظننتُ أنك لا تهتمين بأي شكل بهذا الطراز من المعمار؟

- لقد قال لي أخي رودولف إن هذا البيت هو أفضل بناء قام

بينائه، وأظنه خبيراً في ذلك. أتوقع أنك ستطلب ثمناً باهظاً جداً له، ولكني أستطيع دفع ذلك. نعم، بودي لو أشتريه.

لم أملك إلاّ الشعور بأن هذا الأمر غريب؛ فهي لم تُبدِ أقل قدرٍ من التقدير لبيتنا عندما جاءت إليه. وتساءلتُ -كما تساءلتُ مرة أو مرتين من قبل- عن حقيقة صلاتها مع أخيها غير الشقيق. أكانت تُكنّ له حباً عظيماً حقاً؟ لقد كدتُ أرى أحياناً أنها تنفر منه، بل ربما تكرهه. لقد تحدثت عنه بطريقة غريبة بالتأكيد. ولكن كائناً ما كانت عواطفها الفعلية فإنه كان يعني شيئاً بالنسبة لها، بل ويعني شيئاً هاماً.

هززتُ رأسي ببطء وقلت: لعلك تظنين أنني أريد بيع البيت ومغادرة المنطقة بسبب وفاة إيلي، ولكن الأمر ليس كذلك فعلاً، على الإطلاق. لقد عشنا هنا وكنا سعيدين، وهذا هو المكان الذي سأتذكرها فيه على أفضل وجه. لن أبيع فدان الغجري... ولا تحت أي اعتبار! يمكنك التأكد تماماً من ذلك.

التقت عينانا. كان الأمر أشبه بصراع بيننا. ثم انخفضت عيناها. واستجمعتُ شجاعتي كلها وقلت: ليس الأمر من شأني، ولكنك كنتِ متزوجة ذات يوم. أكان اسم زوجك ستانفورد لويد؟

نظرت إليّ لحظات دون كلام، ثم قالت: نعم.

ومضت مسرعة.

* * *

- ٢١ -

فوضى! هذا كل ما أستطيع تذكره وأنا أعود بذاكرتي للوراء. صحفيون يطرحون أسئلة... يطلبون مقابلات... مئات من الرسائل والبرقيات... وغريتا تتعامل مع ذلك كله.

كان أول الأمور المفاجئة حقاً هو أن عائلة إيلي لم تكن في أمريكا كما افترضنا. وقد كانت صدمة فعلاً أن نجد أن معظمهم كانوا في إنكلترا عملياً. ولعله كان من المفهوم أن تكون كورا هنا؛ فقد كانت امرأة لا تستقر في مكان واحد، تندفع دوماً فتذهب إلى إيطاليا، وإلى فرنسا، وإلى لندن، ثم تعود إلى أمريكا، ثم لشاطئ النخيل، ثم غرباً إلى مزرعة تربية المواشي، وفي كل يوم لها مكان تكون فيه. وفي يوم وفاة إيلي تحديداً لم تكن تبعد عن مكاننا أكثر من خمسين ميلاً، وهي ما تزال تلاحق نزوتها في أن يكون لها بيت في إنكلترا. كانت قد أسرعت في الذهاب إلى لندن للبقاء هناك يومين أو ثلاثة، وذهبت إلى مكاتب عقارية جديدة للحصول على معاينات لبيوت جديدة، وكانت تتجول في البلد لترى نصف دستة من البيوت في ذلك اليوم تحديداً.

وقد تبين أن ستانفورد لويد قد استقل نفس الطائرة، ظاهرياً

لحضور اجتماع عمل في لندن. وهؤلاء الناس لم يعلموا بوفاة إيلي من البرقيات التي أرسلناها إلى أمريكا، بل من الصحافة المحلية هنا.

وقد نشب خلاف بشع حول المكان الذي يجب أن تُدفن فيه إيلي. كنتُ قد افترضتُ أن من الطبيعي أن تُدفن هنا حيث توفيت، هنا حيث عشتُ أنا وهي. ولكن أفراد عائلتها اعترضوا بشدة على ذلك، فقد أرادوا نقل الجثة إلى أمريكا لتُدفن حيث دُفن جدها وأبوها وأمها والآخرون. وأحسب أن ذلك كان طبيعياً عندما يعود المرء للتفكير في الأمر.

جاء آندرو ليبنكوت ليتحدث إليّ حول الأمر. وقد طرح الموضوع بطريقة عقلانية، فقد أشار قائلاً: إنها لم تترك أية تعليمات حول المكان الذي ترغب أن تُدفن فيه.

سألته بحرارة: ولماذا تترك تعليمات؟ كم كان عمرها... إحدى وعشرون؟! عندما تكون في الحادية والعشرين فإنك لا تظن أنك ستموت قريباً، ولا تبدأ بالتفكير وقتها في المكان الذي ترغب بأن تُدفَن فيه. ولو كان لنا أن نفكر أبداً في هذا الأمر لقلنا إننا سندفن معاً في مكان ما، حتى ولو لم نمت في وقت واحد. ولكن منذا يفكر بالموت وهو في أوج الحياة؟

- هذه ملاحظة مُنصفة جداً. أخشى أن يكون عليك أنت أيضاً أن تأتي إلى أمريكا. فهناك الكثير من المصالح التجارية التي ستُضطر لمتابعتها.

- أي نوع من المصالح التجارية؟ وما علاقتي أنا بالمصالح

التجارية؟

- قد تكون لك علاقة كبيرة بها. ألا تدرك أنك المستفيد الأساسي وفق الوصية؟

- أتعني لأنني أقرب أقرباء إيلي أو ما شابه ذلك؟

- لا، بل وفقاً للوصية.

- لم أعرف أبداً أنها كتبت وصية.

- آه، بلى. لقد كانت إيلي شابة عملية تماماً، وقد كانت مضطرة لأن تكون كذلك؛ فقد عاشت وسط مثل تلك الأجواء. لقد كتبت وصية عندما بلغت سن الرشد، وبعد زواجها مباشرة تقريباً. وقد تم إيداع الوصية لدى محاميها في لندن مع طلب إرسال نسخة منها إلي.

تردد قليلاً ثم قال: إن أنت أتيت إلى أمريكا (وهو ما أنصح به) فإنني أرى أيضاً أن عليك أن تضع شؤونك في يد محام مشهور هناك.

- لماذا؟

- لأنك ستحتاج إلى المشورة الفنية في حالة وجود ثروات هائلة، وعقارات لا تُحصى، وأسهم، وحصص أغلبية في العديد من الصناعات.

- أنا لستُ مؤهلاً للتعامل مع أمور من هذا النوع... لستُ مؤهلاً حقاً.

- إنني أفهم ذلك تماماً.

- ألا أستطيع وضع الأمر كله في يدك؟

- يمكنك فعل ذلك.

- حسناً إذن، لماذا لا أفعل ذلك؟

- ولكني أرى أنك ينبغي أن تتمتع بتمثيل قانوني منفصل؛ فأنا أعمل أصلاً لصالح بعض أفراد الأسرة، ويمكن أن ينشأ تعارض في المصالح. وإذا ما أردتَ ترك الأمر بين يدي فإنني سأشرف على أن تكون مصالحك مصونة عن طريق تعيين محام قدير جداً ليمثلك.

- شكراً لك. إنك بالغ اللطف.

- إن كان لي ألاّ أكون كتوماً بما فيه الكفاية...

بدا غير مرتاح إلى حدٍّ ما... وقد أسعدني قليلاً أن أفكر بليبنكوت كشخص قليل الكتمان. قلت: نعم؟

- أريد أن أنصحك بأن تكون حريصاً جداً تجاه أي شيء توقِّعه. أية وثائق تجارية. وقبل أن توقِّع على شيء اقرأه بكل عمق وحرص.

- وهل ستعني لي شيئاً مثل هذه الوثائق التي تتحدث عنها حتى ولو قرأتُها؟

- إذا لم تكن كلها واضحة لك فسلِّمها لمستشارك القانوني.

قلتُ وقد ثار اهتمامي فجأة: هل تحذرني من أحد أو من شخص معين؟

- ليس هذا أبداً بسؤال تجدر بي الإجابة عنه، سأكتفي بهذا القدر من نصحك. فعندما يتعلق الأمر بمبالغ هائلة من المال من الحكمة ألاّ تثق بأحد.

إذن فقد كان يحذرني فعلاً من أحدهم، ولكنه لم يكن بصدد إعطائي أية أسماء، كان بوسعي أن أرى ذلك. أكان ذلك التحذير من كورا؟ أم كانت لديه شكوك (وربما شكوك قديمة) تجاه ستانفورد لويد، ذلك المصرفي المزدهر ذي الحيوية الشديدة، الغني جداً، واللاهي جداً، الذي جاء إلى هنا مؤخراً «في عمل»؟ أيمكن أن يكون العم فرانك هو الذي يمكن أن يتقرب مني ببعض الوثائق التي يمكن تصديقها؟ انتابتني رؤيا مفاجئة تخيلتُ فيها نفسي (أنا المسكين الساذج البسيط) أسبح في بحيرة تحيط بي فيها تماسيح شريرة المزاج، وكلها تبتسم لي ابتسامات مودة كاذبة.

قال السيد ليبنكوت: إن العالم مكان شرير جداً.

ربما كان ذلك قولاً من الغباء أن يقال، ولكنني سألته فجأة: هل يفيد موت إيلي أحداً؟

نظر إليّ بحدة وقال: هذا سؤال غريب جداً. لماذا تسأل ذلك؟

- لا أدري. لقد خطر لي ذلك فقط.

- إن وفاتها تفيدك أنت.

- بالطبع، إنني أعتبر هذا من نافلة القول. إن ما قصدتُه حقاً هو: هل من مستفيد آخر؟

سكت السيد ليينكوت لفترة طويلة جداً ثم قال: إن كنتَ تتساءل عما إذا كانت وصية إيلي تفيد أشخاصاً آخرين بمعنى تلقي هبات منها، فهذا صحيح، ولكن بشكل ثانوي. بعض العجائز من الخدم والمربيات، وقليل من الجمعيات الخيرية، ولكن أياً منها لا يشكل مبلغاً هاماً. وتوجد هبة للآنسة أندرسن، ولكنها ليست ضخمة، لأن إيلي قد خصصت أصلاً مبلغاً ضخماً للآنسة أندرسن كما قد تعلم.

أومأت برأسي بالإيجاب، فقد أخبرتني إيلي أنها ستفعل ذلك. وأكمل السيد ليينكوت: لقد كنتَ زوجها، ولم يكن لها أقارب مقربون آخرون. ولكنني أحسب أن سؤالك لا يعني ذلك تحديداً.

– لا أدري تماماً ماذا عنيتُ به، ولكنك نجحتَ يا سيد ليينكوت –على نحوٍ ما– في جعلي أشعر بالشك. ولا أدري من هو موضوع شكي ولماذا. بل... مجرد شك. إنني لا أفقه أمور المال.

– نعم، هذا واضح تماماً. دعني أخبرك فقط أنني لا أملك أي معرفة دقيقة أو شكوك محددة من أي نوع. لدى وفاة المرء تتم عادة عملية حسابات لشؤونه، ويمكن أن يحدث هذا بسرعة، أو يمكن أن يؤخر لفترة عدة سنوات.

– إن ما تعنيه حقاً هو أن بعضاً من الآخرين يُحتمل تماماً أن يُتموا قسماً من الحسابات السليمة ويُفسدوا ما تبقى منها بالتأجيل والتأخير. وربما جعلوني أوقِّع على وثائق تنازل... أو كائناً ما كان الاسم الذي تطلقونه عليها.

– إن لم تكن أمور إيلي في الحالة السليمة التي ينبغي أن تكون

عليها، فعندها... نعم، ربما كانت وفاتها المبكرة من حسن حظ أحد ما... وسوف لن نُسمي أية أسماء... أحد ربما استطاع أن يُغطي آثاره بشكل أكثر سهولة إن كان أمامه شخص بسيط تماماً يتعامل معه كحالك أنت، إذا سمحتَ لي بقول ذلك. سأذهب في كلامي إلى هذا الحد، ولكنني لا أرغب بالحديث أكثر عن هذه القضية، فلن يكون ذلك من الإنصاف في شيء.

* * *

أقيمت شعائر جنازة بسيطة في الكنيسة الصغيرة. ولو كان بوسعي أن أبقى بعيداً عن تلك الجنازة لفعلت. فقد كرهتُ كل أولئك الناس الذين كانوا يحدقون بي وهم يصطفون خارج الكنيسة بعيونهم الفضولية. وقد ساعدتني غريتا في تجاوز المصاعب. لا أحسبني أدركتُ إلاّ في ذلك الوقت كم هي ذات شخصية قوية يُعتمَد عليها؛ فقد رتبت كل شيء. وإنني أفهم الآن بشكل أفضل كيف أصبحت إيلي تعتمد على غريتا بتلك الطريقة؛ فليس يوجد الكثير من أمثالها في هذا العالم.

كان الناس الحاضرون في الكنيسة من جيراننا غالباً، وبعضهم كانوا ممن لا نكاد نعرفهم. وقد لاحظتُ وجود وجه واحد كنتُ قد رأيتُه من قبل، ولكنني لم أستطع تحديده في تلك اللحظة. وعندما عدتُ إلى البيت أخبرني كارسُن بأن رجلاً ينتظرني في غرفة الجلوس. قلتُ له: لا أستطيع رؤية أحد اليوم؛ اعتذر منه. ما كان ينبغي لك أن تُدخله!

- عفواً يا سيدي، لقد قال إنه من الأقرباء.

- من الأقرباء؟

وفجأة تذكرتُ الذي رأيتُه في الكنيسة. سلمني كارسُن بطاقة للزائر، ولكن البطاقة لم تعنِ لي شيئاً للوهلة الأولى: السيد ويليام باردو. قلبتها وهززتُ رأسي، ثم سلمتُها لغريتا قائلاً: هل تعرفين من هذا؟ يبدو وجهه مألوفاً ولكنني لا أستطيع تحديد هويته. ربما كان أحد أصدقاء إيلي.

أخذت غريتا البطاقة مني ونظرت إليها، ثم قالت: بالطبع.

- من هو؟

- العم روبن. أتذكره؟ ابن عم إيلي. لا شك أنها حدثتك عنه.

تذكرتُ وقتها لماذا بدا الوجه مألوفاً لديّ؛ فقد كانت إيلي تضع في غرفة جلوسها صوراً لمختلف أقاربها، مُلقاة هكذا دون اهتمام في أرجاء الغرفة. ولهذا كان الوجه مألوفاً تماماً، فأنا لم أره حتى الآن إلاّ في الصور. قلتُ للخادم: أنا قادم.

دخلتُ غرفة الجلوس، فنهض السيد روبن واقفاً وقال: مايكل روجرز؟ لعلك لا تعرف اسمي، ولكن زوجتك كانت ابنة عم لي. كانت تسميني العم روبن دوماً، ولكنني أعرف أننا لم نلتقِ أنا وأنت. هذه أول مرة آتي بها إلى هنا بعد زواجكما.

- أعرف طبعاً من أنت.

لا أدري كيف أصف روبن باردو تماماً. كان رجلاً ضخماً متين

البنية ذا وجه عريض وكتفين عريضين ونظرة شاردة كأنما يفكر دوماً في شيء آخر، ومع ذلك ما أن تتحدث معه لبضع دقائق حتى تشعر بأنه أكثر يقظة مما تخيلت.

قال: لا حاجة بي لأن أخبرك عن مدى صدمتي وحزني لسماعي بنبأ وفاة إيلي.

- لنتجاوز هذا الموضوع؛ فلستُ في وضع يسمح بالحديث عنه.

- نعم، نعم، إنني أفهم ذلك.

كانت له شخصية متعاطفة معينة، ومع ذلك كان به شيء خفي جعلني أشعر بعدم الارتياح. قلتُ عندما دخلت غريتا: أتعرف الآنسة أندرسن؟

- بالطبع، كيف حالك يا غريتا؟

- لا بأس. منذ متى وأنت في إنكلترا؟

- منذ أسبوع أو أسبوعين. إنني في جولة.

ثم خطر لي خاطر فقلتُ على الفور: لقد رأيتك قبل أيام.

- حقاً؟ أين؟

- في مزاد مبيعات في مكان يُدعى بارتينغتُن.

- تذكرتُ الآن. نعم، نعم. أظنني أتذكر وجهك. لقد كنتَ مع رجل في حوالي الستين من عمره ذي شارب بني.

- نعم، اسمه الميجر فيلبوت.

- لقد بدوتما في أحسن حال كلاكما.

قلت: "لم يسبق لي أبداً أن شعرتُ بمثل تلك المعنويات العالية". ثم كررتُ بذلك العجب الغريب الذي كنتُ أُحس به دوماً: لم يسبق لي أبداً الشعور بذلك.

- أنت لم تكن تعرف في ذلك الوقت طبعاً ما قد حدث. لقد كان ذلك يوم الحادث، أليس كذلك؟

- نعم، وكنا ننتظر انضمام إيلي إلينا على الغداء.

- أمر مأساوي، مأساوي حقاً...

- لم أكن أعرف أنك في إنكلترا، ولا أحسب أن إيلي كانت تعرف أيضاً، أليس كذلك؟

سكتُّ وأنا أنتظر ما سيقوله.

- نعم؛ فلم أكتب بقدومي. والحقيقة أنني لم أكن أعرف كم من الوقت سأقضي هنا، ولكني أنهيتُ عملي فعلياً بأبكر مما كنتُ أظن، وكنتُ أتساءل إن كنتُ سأجد من الوقت -بعد المزاد- ما أمرُّ به لرؤيتكما.

- أجئتَ من الولايات المتحدة في عمل؟

- جزئياً نعم، وجزئياً لا. لقد أرادت كورا نصيحتي في أمر أو

أمرين. أحدهما يتعلق بذلك البيت الذي تفكر في شرائه.

وقتها أخبرني أين تقيم كورا في إنكلترا. قلتُ ثانية: لم نكن نعرف ذلك.

– لقد كانت عملياً تقيم في ذلك اليوم في مكان لا يبعد كثيراً عن هنا.

– قريباً من هنا؟ أكانت في فندق؟

– لا، بل كانت تقيم مع صديقة لها.

– لم أكن أعرف أن لها صديقات في هذه المنطقة.

– امرأة تُدعى... ماذا كان اسمها؟ هارد... هاردكاسل.

قلتُ مندهشاً: كلوديا هاردكاسل؟

– نعم. لقد كانت صديقة مقربة لكورا، وكانت كورا تعرفها جيداً عندما كانت في الولايات المتحدة. ألم تعرف ذلك؟

– إنني لا أعرف إلاّ القليل جداً عن العائلة.

ثم نظرتُ إلى غريتا وقلت: هل كنتِ تعرفين أن كورا تعرف كلوديا هاردكاسل؟

– لا أظنني سمعتها تتحدث عنها أبداً. لهذا إذن لم تأتِ كلوديا إلى الموعد في ذلك اليوم.

- بالطبع، فقد كان يُفترض أن تذهب معك للتسوق في لندن، وكان يُفترض أن تقابليها في محطة ماركت تشادويل.

- نعم، ولم أجدها هناك. وقد اتصلتُ بالبيت بعد مغادرتي مباشرة وقالت إن زائرةً من أمريكا قد جاءتها فجأة وإنها لن تستطيع مغادرة البيت.

- أتساءل إن كانت تلك الزائرة هي كورا.

قال روبن باردو: "هذا واضح". ثم هزّ رأسه وقال: تبدو الأمور كلها مختلطة جداً. لقد فهمتُ أن جلسة التحقيق قد تأجلت.

- نعم.

أفرغ فنجانه ونهض قائلاً: لن أبقى لإزعاجكم أكثر من ذلك. إن كنتُ أستطيع تقديم أية مساعدة فأنا أقيم في فندق ماجستيك في ماركت تشادويل.

قلتُ إنني لا أرى ما يمكنه فعله، وشكرته. وبعد أن ذهب قالت غريتا: "عجباً، ماذا يريد؟ لماذا أتى إلى إنكلترا؟"، ثم أضافت بحدة: ليتهم يعودون جميعاً إلى بلادهم.

- إنني أتساءل إن كان ستانفورد لويد هو حقاً من رأيتُه في مطعم جورج... فلم تسنح لي إلاّ لمحة سريعة له.

- لقد قلتَ إنه كان مع امرأة تشبه كلوديا، ولذلك فربما كان هو. ربما جاء لرؤيتها، وجاء روبن لرؤية كورا... يا لها من معمعة!

- أنا غير مرتاح لهذا الأمر... لتسكع هؤلاء جميعاً في المنطقة في ذلك اليوم.

قالت غريتا إن الأمور غالباً ما تحدث على هذا النحو. وكعادتها كانت مرحة وعقلانية تجاه هذا الموضوع.

* * *

- ٢٢ -

لم يعد لدي ما أفعله في فدان الغجري. تركتُ غريتا تتولى أمور البيت وأبحرتُ إلى نيويورك لأنهي الأمور هناك ولأساهم فيما شعرتُ -بشيء من الهلع- بأنه سيكون أبشع جنازة فخمة ذهبية لإيلي. وقد حذرتني غريتا قائلة: إنك ذاهب إلى الغابة، فخذ الحذر لنفسك. لا تسمح لهم بأن يسلخوك حياً.

وقد كانت مُحقة في ذلك، وكانت نيويورك غابة بالفعل. شعرتُ بذلك عندما وصلتُ هناك. ولم أكن خبيراً بشؤون الغابات، أو بشؤون مثل هذه الغابات على الأقل! كنتُ في متاهة لا أعرف دروبها، وكنتُ أعرف ذلك حق المعرفة. ولم أكن الصياد، بل كنتُ الطريدة. كان حولي من كل جانب أناس تخفوا بين الزروع وهم يوجهون نحوي بنادقهم، وأحسب أنني كنتُ أحياناً أتخيل بعض الأمور، وفي أحيان أخرى كان لشكوكي مبرراتها. أذكر أنني ذهبتُ إلى المحامي الذي حدده لي السيد ليبنكوت (وهو رجل متمدن بكل معنى الكلمة عاملني معاملة أقرب إلى معاملة الطبيب العام لمريضه).

وكنتُ قد نُصِحتُ بالتخلص من بعض الأراضي التي تُستخدم

للمناجم والتعدين، إذ لم تكن أوراق تملكها واضحة تماماً. وسألني المحامي عمّن قال لي ذلك فقلتُ له إنه ستانفورد لويد، فقال: حسناً، علينا أن ننظر في هذا الأمر، فلا بد أن رجلاً كالسيد لويد مطلعٌ وعارف.

وبعد ذلك بأيام قال لي: لا مشكلة في وثائق ملكيتك، ولا يوجد -بالتأكيد- داعٍ للاستعجال ببيع الأرض كما نصحك الرجل. أبقِ على الأرض.

وانتابني شعور بأنني كنتُ على حق، وأن الجميع كانوا يصوبون بنادقهم نحوي. لقد عرفوا جميعاً أنني بسيط ساذج عندما يتعلق الأمر بالمسائل المالية.

كانت الجنازة رائعة ورهيبة، كما كانت فخمة كما توقعتُ لها. فقد كانت في المقبرة أكوام هائلة من الزهور، وبدت المقبرة نفسها كحديقة عامة، وكل زركشات الحِداد الثري تجد تعبيراً لها على الرخام الضخم المهيب. كنتُ واثقاً أنه كان من شأن إيلي أن تكره ذلك. ولكني أحسب أن لعائلتها بعض الحق بها.

بعد أربعة أيام من وصولي إلى نيويورك تلقيت أنباء من إنكلترا: لقد تم العثور على جثة السيدة لي العجوز في مقلع الحجارة المهجور عند الجانب البعيد من التلة، وقد مضت على وفاتها بضعة أيام. كانت قد وقعت حوادث هناك من قبل، وقد قيل إن ذلك المكان ينبغي أن يُسيَّج، ولكن لم يتم اتخاذ أي إجراءات. وقد صدر حكم يقضي باعتبار الوفاة ناتجة عن حادث، وأوصى المجلس البلدي مجدداً بتسييج

المنطقة. وقد عُثر في بيت السيدة لي على مبلغ ثلاثمئة جنيه مخبأة تحت الأرضية الخشبية للمنزل، وكلها من فئة الجنيه الواحد.

وفي ملاحظة استدراكية على الرسالة أضاف الميجر فيلبوت ملاحظة تقول: «أنا واثق أنك ستأسف لسماعك بأن كلوديا هاردكاسل قد وقعت عن حصانها وماتت بالأمس وهي خارجة للصيد».

كلوديا... ماتت؟ لم أستطع تصديق ذلك! لقد سبب لي ذلك هزة سيئة جداً. شخصان يُقتلان في غضون أسبوعين في حادثي وقوع عن الخيل. بدت تلك مصادفة تكاد تكون مستحيلة.

* * *

لا أريد الاستغراق في ذلك الوقت الذي قضيتُه في نيويورك. لقد كنتُ غريباً في جو أجنبي غريب عني، وشعرتُ طوال الوقت أن عليّ أن أبقى محترساً فيما أقوله أو أفعله. لم تكن هناك إيلي التي عرفتُها، إيلي التي كانت تنتمي إليّ بطريقة غريبة. لم أعد أراها الآن سوى فتاة أمريكية، وريثة لثروة هائلة، يحيط بها الأصدقاء والمعارف والأقرباء الأبعدون، واحدة من عائلة عاشت هناك لخمسة أجيال. كانت قد أتت من هناك -كما يأتي المُذنّب- لتزور فلكي أنا.

لقد عادت الآن لتدفن مع أسرتها، إلى حيث يوجد وطنها الخاص. وقد أسعدني أن أفكر بالأمر على هذا النحو. إذ لم يكن من السهل أن أشعر بوجودها هناك في المقبرة الصغيرة عند أقدام أشجار الصنوبر خارج القرية. كلا، ما كان ذلك ليكون سهلاً.

قلتُ لنفسي: عودي إلى حيث تنتمين يا إيلي.

وبين الحين والآخر كانت تخطر في ذهني تلك النغمة الساحرة الصغيرة للأغنية التي كانت تغنيها على غيتارها. تذكرتُ أصابعها تداعب الأوتار وهي تغني:

كل مساء ينقضي أو ينقضي صباح،
يولد بعض الناس للأفراح.

وفكرتُ: لقد كان هذا صحيحاً بالنسبة لكِ؛ فقد وُلدتِ للأفراح. وقد كانت لكِ أفراح في فدان الغجري، إلاّ أنها لم تستمر طويلاً. ولكنك في وطنك هنا على أية حال. إنك بين أهلك.

تساءلتُ فجأة أين عساي أكون أنا عندما يأتي الوقت لأموت. أفي فدان الغجري؟ ربما. من شأن أمي أن تأتي وتراني ممدداً في قبري... إذا لم تكن قد ماتت قبل ذلك. ولكني لم أستطع تخيل أمي ميتة. كان أسهل عليّ أن أتخيل الموت لنفسي أنا. نعم، كان من شأنها أن تأتي وتراني أُدفن. ولعل صرامة وجهها تتراخى. أبعدتُ أفكاري عنها، إذ لم أشأ التفكير فيها.

هذه الكلمة الأخيرة ليست صحيحة تماماً. لم تكن المسألة مسألة رؤيتي لها، بل كانت المسألة مع أمي دوماً مسألة رؤيتها هي لي، مسألة عينيها وهما تخترقان وجهي، مسألة قلقٍ ينساح منها كبخار يلفُّني لفاً. وفكرتُ قائلاً لنفسي: "إن الأمهات هنّ الجحيم! لماذا يكون عليهن أن يُطِلنَ التفكير والهم بصدد أبنائهن؟ لماذا يشعرن بأنهن يعرفن كل شيء عن أبنائهن؟ إنهن لا يعرفن. لا يعرفن! يجب أن تكون

فخورة بي وسعيدة من أجلي، سعيدة بالحياة الرائعة التي توصلتُ إليها. يجب أن..."، وبعد ذلك أبعدتُ أفكاري عنها ثانية.

كم مضى عليّ وأنا في أمريكا؟ لا أستطيع حتى تذكر ذلك. بدا ذلك دهراً من السير بحذر، ومن مراقبتي من قِبل أناس ذوي ابتسامات مزيفة والعداء في عيونهم. كنتُ أقول لنفسي كل يوم: "عليّ أن أنجح في اجتياز هذا الأمر، وأن أنجح في ذلك الشأن الآخر... وبعد ذلك". كانت هاتان الكلمتان هما اللتان استخدمتهما. وأعني أنني استخدمتهما في عقلي. استخدمتهما كل يوم عدة مرات. «وبعد ذلك» كانتا كلمتي المستقبل. استخدمتهما بنفس الطريقة التي استخدمتُ بها يوماً تلك الكلمة الأخرى: «أريد...».

بذل الجميع كل جهودهم ليكونوا لطفاء معي لأنني كنتُ رجلاً غنياً! فوفق بنود وصية إيلي أصبحتُ رجلاً بالغ الثراء. وقد شعرتُ بشعور غريب جداً؛ فقد كانت لديّ استثمارات لا أفهمها، وأسهم، وحصص، وعقارات. ولم أعرف أبداً ماذا أفعل بذلك كله.

في اليوم الذي سبق عودتي إلى إنكلترا تبادلتُ حديثاً مطولاً مع السيد ليبنكوت. كنتُ أفكر فيه دوماً على هذا النحو في عقلي... باعتباره السيد ليبنكوت. إذ لم يُصبح أبداً «العم آندرو» بالنسبة لي. قلتُ له إنني أفكر بسحب تكليف ستانفورد لويد بإدارة استثماراتي.

قال وقد ارتفع حاجباه الأشيبان: حقاً!

ثم نظر إليّ بعينيه الذكيتين ووجهه الذي تصعب قراءته، وتساءلتُ ما الذي عنته بالضبط كلمة «حقاً» هذه. سألتُه بلهفة: أتظن أن من

المناسب القيام بذلك؟

- أحسب أن لديك أسباباً، أليس كذلك؟

- لا، ليست لديّ أسباب. إنه مجرد شعور. أظن أن بوسعي أن أقول لك أي شيء، أليس كذلك؟

- من الطبيعي أن يبقى ما تقوله طي الكتمان.

- حسناً، إنني أشعر بأنه محتال!

بدا السيد ليبنكوت مهتماً وقال: آه، نعم، أحسب أن حدسك ربما كان مصيباً.

وهكذا عرفتُ وقتها أنني كنتُ مُحقاً. لقد كان ستانفورد لويد يعبث كيفما يريد باستثمارات إيلي وأسهمها وغير ذلك. قمتُ بتوقيع وكالة وأعطيتها لآندرو ليبنكوت قائلاً: أأنت مستعد لقبولها؟

- فيما يتعلق بالأمور المالية يمكنك أن تثق بي كلياً. سأفعل كل ما في وسعي من أجلك في هذا الميدان، ولا أظن أنك ستجد سبباً للشكوى من إدارتي لأملاكك.

تساءلتُ عما عناه من ذلك بالضبط، فقد عنى شيئاً. وأظنه عنى بذلك أنه لا يحبني، ولم يحبني أبداً، ولكنه سيقوم بكل ما في وسعه مالياً من أجلي لأنني كنت زوج إيلي. وقّعتُ كل الأوراق الضرورية. وسألني كيف سأعود إلى إنكلترا وما إذا كنتُ سأعود بالطائرة، فأجبتُه بالنفي، وقلتُ له إنني سأذهب بالبحر، وأضفتُ: عليّ أن أخصص

بعض الوقت لنفسي، وأحسب أن رحلة بحرية ستكون جيدة لي.

- وأين ستسكن هناك؟

- في فدان الغجري.

- آه، تعتزم العيش هناك.

- نعم.

- ظننتُ أنك ربما طرحتَ البيت للبيع.

- كلا.

خرجت «كلا» هذه أقوى مما قصدتُ لها. لم أكن أنوي التخلي عن فدان الغجري؛ فقد كان فدان الغجري جزءاً من حلمي، ذلك الحلم الذي رعيتُه منذ أن كنتُ صبياً غراً.

- هل يوجد من يُعنى به منذ أن أتيتَ إلى أمريكا؟

قلتُ له إنني تركتُه تحت رعاية غريتا أندرسن.

- آه، نعم. غريتا.

كان يعني شيئاً بالطريقة التي قال بها «غريتا»، ولكني لم أجادله. إن كان يكره غريتا فليكرهها. لقد كرهها دوماً. تركني قوله في صمت مُحرج، ثم غيّرتُ رأيي، فقد شعرتُ أن عليّ أن أقول شيئاً. قلت: لقد كانت طيبة جداً مع إيلي. فقد سهرت عليها عندما كانت مريضة، وجاءت وعاشت معنا لتعتني بها. إنني... إنني لا يسعني أن

أوفيها حقها من الامتنان. أريد منك أن تفهم ذلك. أنت لا تعرف كيف كانت. لا تعرف كيف ساعدت وقامت بكل شيء بعد مقتل إيلي. لا أعرف ماذا كنتُ سأفعل من دونها.

- بالتأكيد، بالتأكيد.

بدا صوته أكثر جفاء مما يمكن للمرء أن يتخيل.

- ولذلك ترى أنني مدين لها بالكثير.

- فتاة قديرة جداً.

نهضتُ فودعتُه وشكرته، فقال ولهجتُه ما تزال جافة: "لا يوجد ما تشكرني عليه". ثم أضاف قائلاً: لقد كتبتُ لك رسالة قصيرة وأرسلتها بالبريد الجوي إلى فدان الغجري، فإن كنتَ مسافراً في البحر فلعلك تجدها بانتظارك لدى وصولك هناك.

ثم قال: تمتع برحلة طيبة.

سألتُه بشيء من التردد إن كان يعرف زوجة ستانفورد لويد... فتاة تُدعى كلوديا هاردكاسل.

- آه، أنت تعني زوجته الأولى. لا، لم أقابلها أبداً. أظن أن الزواج قد انفسخ بسرعة. وبعد الطلاق عاد ليتزوج، وقد انتهى زواجه الثاني بالطلاق أيضاً.

هكذا كان الأمر إذن.

* * *

عندما عدتُ إلى فندقي وجدتُ برقية تطلب مني الذهاب إلى مستشفى في كاليفورنيا، وقالت البرقية إن صديقاً لي هو رودولف سانتونيكس قد طلبني، وإن حياته أصبحت قصيرة ويريد رؤيتي قبل موته.

غيرتُ تذكرة سفري وحجزتُ في سفينة لاحقة، وطرتُ إلى سانتونيكس. لم يكن قد مات بعد، ولكنه يسير بسرعة نحو الموت. قالوا إنهم يشكّون في إمكانية استعادته لوعيه قبل الموت، ولكنه كان قد طلبني بكل إلحاح. جلستُ هناك في غرفة المستشفى تلك أراقبه، أراقب ما بدا أشبه بقوقعة للرجل الذي عرفتُه. لقد كان يبدو مريضاً دوماً، وقد كان به دوماً نوع من الشفافية الغريبة، نوع من الرقة والضعف. وقد تمدد الآن وهو يبدو شاحباً شحوب الموتى كجسد من الشمع. جلستُ هناك أفكر: أتمنى لو يتكلم معي. أتمنى لو يقول شيئاً... أي شيء، قبل أن يموت.

شعرتُ بوحدة شديدة رهيبة. كنتُ قد نجوتُ من الأعداء الآن، وصرتُ إلى صديق؛ صديقي الوحيد حقاً. كان هو الشخص الوحيد الذي يعرفني حق المعرفة، باستثناء أمي، ولكني لم أشأ التفكير بأمي.

تحدثتُ مرة أو مرتين مع ممرضة، وسألتها إن كان يوجد ما يستطيعون فعله، ولكنها هزت رأسها وقالت بحيادية: قد يستعيد وعيه وقد لا يستعيده.

جلستُ هناك، وأخيراً تحرك وتنهد، ورفعته الممرضة قليلاً بكل هدوء. نظر إليّ ولكني لم أعرف ما إذا كان قد ميّزني أم لا. كان ينظر

إليّ فقط وكأنه ينظر إلى ما ورائي وما خلفي، ثم فجأة حصل تغير في عينيه. وفكرتُ قائلاً لنفسي: "لقد عرفني، لقد رآني". قال شيئاً بصوت ضعيف جداً، وانحنيتُ على السرير بحيث أسمعه، ولكنها لم تبدُ كلمات لها أي معنى. وبعد ذلك تشنج جسمه فجأة وتلوى، وألقى برأسه إلى الخلف وصاح قائلاً: "أيها المغفل الأحمق... لماذا لم تتبع الطريقة الأخرى؟"... ثم انهار ومات.

لا أدري ما الذي عناه بقوله، أو حتى ما إذا كان يعلم شخصياً ما الذي يقوله. وهكذا كان ذلك آخر ما رأيتُه من سانتونيكس. وتساءلتُ إن كان سيسمعني لو أنني قلتُ له أي شيء، فقد كنتُ أحب لو أخبره مرة أخرى بأن البيت الذي بناه لي كان أفضل شيء عندي في العالم. وأنه الشيء الذي يهمني أكثر من أي شيء آخر. من الغريب أن يعني بيتٌ كل هذه المعاني للإنسان. أحسب أن الأمر لم يكن يخلو من شيء من الرمزية. كان شيئاً تريده، تريده إلى حدٍ يجعلك لا تدري ما هو حقاً، ولكن سانتونيكس كان يعرف ما هو ذلك الشيء، وقد أعطانيه، وقد حصلتُ عليه. وكنتُ عائداً إلى الوطن، إلى بيتي.

عائداً إلى الوطن، وإلى البيت. كان هذا كل ما استطعتُ التفكير به عندما صعدتُ إلى ظهر السفينة. هذا بالإضافة إلى تعب مميت في البداية، ثم موجة طاغية من السعادة وكأنها تطفح من الأعماق... كنتُ عائداً إلى الوطن، البيت.

عاد البحار إلى وطنه، عاد من البحر،
وعاد الصياد إلى بيته من التلة.

* * *

- ٢٣ -

نعم، هذا ما كنتُ أفعله. لقد انتهى كل شيء الآن. آخر ما تبقّى من المعركة، آخر ما تبقّى من الكفاح. آخر مرحلة من الرحلة.

بدا وكأن زمناً طويلاً جداً قد مرّ منذ شبابي القلق غير المستقر. أيام «أريد، أريد». ولكنه لم يكن زمناً طويلاً حقاً، أقل من عام واحد...

استعرضتُ الأمر كله من جديد وأنا أستلقي هناك في غرفتي في السفينة وأفكر. لقائي بإيلي.. ولقاءاتنا في ريجنت بارك.. زواجنا.. البيت وبناء سانتونيكس له.. واكتمال البيت. بيتي أنا، ملكي أنا كله. كنتُ قد أصبحتُ أنا، أنا، أنا كما أردتُ لنفسي أن أكون... كما كنتُ دوماً أريد أن أكون. لقد حصلتُ على كل ما أردتُه وكنتُ عائداً إلى الوطن إليه.

قبل أن أغادر نيويورك كنتُ قد كتبتُ رسالة وأرسلتُها بالبريد الجوي لتصل قبل وصولي. كتبتها لفيلبوت. شعرتُ -على نحوٍ ما- بأن من شأن فيلبوت أن يفهم، بينما قد لا يفهم الآخرون.

كانت الكتابة إليه أسهل من إخباره شخصياً، ولا بد له أن يعرف

على أية حال. لا بد للجميع أن يعرفوا، ولعل بعض الناس لا يفهمون، ولكنني رأيتُ أنه سيفهم. فقد رأى بنفسه مدى عمق العلاقة بين إيلي وغريتا، وكيف كانت إيلي تعتمد على غريتا، ورأيتُ أنه سيدرك كيف تطور الأمر بي بحيث أعتمد على غريتا أيضاً، وكيف سيكون من المستحيل بالنسبة لي أن أعيش وحيداً في البيت حيث عشتُ مع إيلي، ما لم يكن هناك أحد يساعدني. لا أدري إن كنتُ قد صغتُ الأمر بطريقة جيدة تماماً، ولكني بذلتُ أفضل ما أستطيع.

كتبتُ له:

> أحب أن تكون أنت أول من يعرف. فقد كنتَ شديد اللطف معنا، وأحسب أنك ستكون الشخص الوحيد الذي يفهم الوضع. إنني لا أستطيع مواجهة العيش وحيداً في فدان الغجري، وقد كنتُ أفكر طوال فترة وجودي في أمريكا، وقد قررتُ أنني -فور عودتي إلى الوطن- سأطلب يد غريتا للزواج؛ فهي الشخص الوحيد الذي أستطيع حقاً التكلم معه عن إيلي. وهي ستفهم. ربما لا توافق على الزواج بي، ولكني أحسب أنها ستوافق؛ فمن شأن هذا الزواج أن يجعل كل شيء يبدو وكأننا ما نزال معاً نحن الثلاثة.

كتبتُ الرسالة ثلاث مرات قبل أن أستطيع جعلها تعبر عما أريد قوله بالضبط، ولا بد أن يستلمها فيلبوت قبل يومين من عودتي.

خرجتُ إلى ظهر السفينة ونحن نقترب من إنكلترا وأخذتُ أنظر إلى الأرض التي تقترب، وفكرتُ قائلاً لنفسي: "أتمنى لو كان

سانتونيكس معي". وقد تمنيتُ ذلك فعلاً. تمنيتُ لو أنه استطاع أن يعرف كيف أن كل شيء كان يتحقق. كل شيء خططتُ له... كل شيء فكرتُ به... كل شيء أردتُه.

لقد تخلصتُ من أمريكا، تخلصتُ من المحتالين والمتملقين وكل تلك الثلّة التي كرهتُها والتي كنتُ واثقاً تماماً أنها تكرهني وتنظر إليّ نظرة دونية لكوني من الطبقة الدنيا! لقد عدتُ منتصراً. كنتُ عائداً إلى أشجار الصنوبر والطريق الملتوي الخطير الذي يلتف صعوداً عبر فدان الغجري وصولاً إلى البيت في أعلى التلة. بيتي أنا! كنتُ عائداً إلى الشيئين اللذين أردتُهما. بيتي... البيت الذي حلمتُ به، الذي خططتُ له، الذي أردتُه أكثر من أي شيء آخر. إلى بيتي... وإلى امرأة رائعة. لقد عرفتُ دوماً أنني سألتقي بامرأة رائعة، وقد التقيتُ بها. لقد رأيتُها ورأتني، ولقد عرفتُ منذ لحظة رؤيتي لها أنني خُلقتُ لها. كنتُ لها، والآن... أخيراً... كنتُ ذاهباً إليها.

لم يرني أحدٌ وأنا أصل كينغستُن بيشوب. كانت الدنيا توشك أن تكون معتمة، وجئتُ بالقطار ومشيتُ من المحطة مُتّبعاً طريقاً دائرياً جانبياً. لم أُرِد لقاء أي من أهل القرية. ليس في تلك الليلة!

كانت الشمس قد غربت عندما وصلتُ إلى الطريق المفضي إلى فدان الغجري، وكنتُ قد أخبرتُ غريتا بوقت وصولي. وكانت هناك في البيت، تنتظرني. أخيراً! لقد انتهينا الآن من التعلل ومن كل الادعاءات... ادعاء كرهي لها. فكرتُ الآن -وأنا أضحك مع نفسي- بالدور الذي مثلتُه، دور مثلتُه بحذر وعناية منذ البداية: كراهية غريتا وعدم الرغبة بمجيئها وبقائها مع إيلي. نعم، لقد كنتُ حذراً جداً. لا بد

أن الجميع قد خُدعوا بهذا الادعاء. وتذكرتُ المشاجرة التي لفّقناها بحيث تسمعها إيلي.

لقد عرفتْني غريتا على حقيقتي منذ أن التقينا. ولم تكن لدينا أية أوهام سخيفة حول بعضنا البعض. كان لديها عقل مثل عقلي، ورغبات كرغباتي. لقد أردنا الدنيا، ولا شيء أقل من الدنيا! أردنا أن نضج بالحيوية والمتعة. أردنا أن نُشبع كل طموح، وأن نملك كل شيء، ولا نحرم أنفسنا من شيء أبداً. تذكرتُ كيف أفضيتُ لها بكل ما في قلبي عندما التقيتها لأول مرة في هامبورغ وأنا أخبرها برغبتي المحمومة بالأشياء. لم أضطر لإخفاء جشعي الجامح للحياة عن غريتا، فقد كان لها هي أيضاً الجشع ذاته.

قالت: من أجل كل ما تريده من الحياة يجب أن يكون لديك المال.

– نعم، ولكني لا أرى كيف سأحصل عليه.

– لا، لن تحصل عليه بالعمل الجاد؛ فأنت لستَ من هذا النوع.

– العمل؟ سيتعين عليّ أن أعمل لسنوات! ولا أريد الانتظار. لا أريد أن أكون في آخر عمري وقتها... أريد ذلك الآن وأنا شاب وقوي. وأنتِ تريدين ذلك أيضاً، أليس كذلك؟

– نعم. وأعرف الطريقة التي يمكنك أن تفعل ذلك بها. إنها سهلة، وإنني لأتساءل كيف لم تفكر بها أصلاً. إنك تستطيع الإيقاع بالفتيات بسهولة، أليس كذلك؟ يمكنني أن أرى ذلك فيك. يمكنني

أن أشعر بذلك.

- أتحسبينني أهتم بالفتيات حقاً؟ لا توجد إلاّ فتاة واحدة أريدها، هي أنت، وأنت تعرفين ذلك. لقد عرفت دوماً أنني سأقابل فتاة مثلك، وقد قابلتُ بالفعل... لقد خُلقتُ لك وخُلقتِ لي!

- نعم، أظن ذلك فعلاً.

- نحن كلانا نريد الشيء نفسه من الحياة.

- أقول لك إن الأمر سهل، سهل. كل ما عليك فعله هو أن تتزوج فتاة غنية، فتاة هي إحدى أغنى الفتيات في العالم. وأستطيع أن أضعك على الطريق لفعل ذلك.

- لا تكوني خيالية.

- ليس هذا خيالياً، بل سيكون سهلاً.

- لا، هذا لا ينفعني. لا أريد أن أكون زوج امرأة غنية؛ فسوف تشتري لي الأشياء، وستبقيني في قفص ذهبي، ولكن هذا ليس ما أريده. لا أريد أن أكون عبداً مقيداً.

- لا حاجة لأن تكون كذلك، فهذا من الأمور التي لا حاجة لأن تستمر طويلاً. بل تستمر للفترة الكافية فقط... فالزوجات يمُتْنَ عادة!

حدقتُ بها فقالت: لقد صُدمتَ الآن.

- لا، لم أُصدَم.

- حسبتُ أنك لن تُصدم. حسبتُ أنك ربما مررتَ بذلك من قبل، أليس كذلك؟

ثم نظرتْ إليّ متسائلة، ولكني لم أكن مستعداً للإجابة على هذا السؤال، فما يزال لديّ شيء من غريزة حب البقاء. إن من الأسرار ما لا يحب المرء أن يعرفه أحد، وهذا لا يعني أنها كانت أسراراً بكل معنى الكلمة، ولكنني لم أكن أحب التفكير فيها. لا أحب التفكير بأول واحد، رغم سخافته. كان أمراً طفولياً، لا يهم كثيراً. كانت لديّ رغبة صبيانية جامحة بساعة معصم ثمينة كانت قد قُدِّمت هدية لصبي... وهو صديق لي في المدرسة. لقد أردتها، أردتُها بكل إلحاح. نعم، لقد أردتُ تلك الساعة، ولكنني لم أرَ أنني سأحصل أبداً على فرصة للحصول عليها. وفي أحد الأيام خرجنا نتزلج على الجليد فوق النهر، ولم يكن الجليد قوياً بما يكفي لتحملنا. رغم أننا لم نفكر في ذلك مسبقاً، بل حدث ذلك فقط، فقد تكسر الجليد. تزلجتُ إليه، وكان مُعلَّقاً. كان قد دخل في فتحة وأمسك بحافة الجليد التي كانت تجرح يديه. ذهبتُ إليه لأسحبه وأُخرجه بالطبع، ولكن بمجرد أن وصلتُ إلى هناك رأيتُ التماعة الساعة. وفكرتُ قائلاً لنفسي: "ماذا لو انزلق وغرق؟"، وفكرتُ كم سيكون ذلك سهلاً.

أحسب أن الأمر كاد يبدو عن غير وعي مني أنني فككتُ سوار الساعة ونزعتُها من يده ودفعتُ رأسه للأسفل بدل أن أسحبه، وبقيتُ ممسكاً برأسه تحت الماء. لم يستطع الكفاح طويلاً، فقد كان تحت الجليد. رآنا الناس وجاؤوا باتجاهنا وظنوا أنني كنتُ أحاول إخراجه! وقد أخرجوه أخيراً ببعض الصعوبة وحاولوا القيام بتنفس اصطناعي له،

ولكن الوقت كان قد فات. خبأتُ كنزي بعيداً في مكان خاص كنتُ أحتفظ فيه بحاجاتي، حاجاتي التي لم أكن أريد لأمي أن تراها لأنها ستسألني من أين حصلتُ عليها. وقد عثرَتْ على تلك الساعة يوماً وهي تبحث بين جواربي، وسألتني إن كانت تلك الساعة هي نفسها ساعة صاحبي، فقلتُ لها إنها ليست ساعته بالطبع وإنها ساعة تبادلتُها مع صبي في المدرسة.

لقد كنتُ دوماً أرتبك مع أمي. شعرتُ دوماً أنها تعرف الكثير عني، وكنتُ مرتبكاً معها عندما وجدَت الساعة. وأظنها قد ارتابت بالأمر، ولكن لم تستطع أن تعرف طبعاً؛ فلم يعرف أحدٌ بالأمر. ولكنها اعتادت على أن تنظر إليّ بطريقة غريبة. ظن الجميع أنني حاولتُ إنقاذ الولد، ولكنني لا أحسب أنها قد ظنت ذلك أبداً. أظنها عرفت. لم تحب أن تعرف، ولكن مشكلتها كانت أنها تعرف الكثير عني. شعرتُ أحياناً بقليل من تأنيب الضمير، ولكن ذلك تلاشى بسرعة كبيرة.

وبعد ذلك بزمن، عندما كنتُ في الجيش، وخلال فترة تدريبنا العسكري، ذهبتُ أنا وشاب يدعى إيد إلى مكان للعب القمار. ولم يصادفني أي حظٍ أبداً، فخسرتُ كل ما لدي، ولكن إيد ربح مبلغاً ضخماً. أخذ نقوده وعدنا إلى المعسكر، وقد امتلأ جسمه بالأوراق النقدية وانتفخت جيوبه بالمال. بعد ذلك خرج لنا اثنان من الأشقياء من إحدى الزوايا وهاجمانا. كانا بارعين تماماً في استخدام المِطواتين لديهما. أصابني جرح في ذراعي، ولكن إيد تعرض لطعنة نافذة جعلتهُ يقع أرضاً. وبعد ذلك سُمع صوت لأناس يقتربون، ففر الشقيان. وأمكنني أن أرى أنني إن كنتُ سريعاً... وقد كنتُ سريعاً! إن ردود

أفعالي ممتازة جداً! ربطتُ منديلاً حول يدي وسحبتُ السكين من جرح إيد وطعنتُ بها ثانية عدة مرات في أماكن أفضل. شهق ومات. وقد خفتُ بالطبع، خفتُ للحظة أو للحظتين، ثم عرفتُ أن الأمر سيمر بسلام. ولذلك شعرت... من الطبيعي أنني شعرتُ بالفخر بنفسي لأني فكرتُ وتصرفتُ بسرعة! وفكرتُ قائلاً لنفسي: "مسكين إيد، لقد كان دوماً مغفلاً". ولم يأخذ مني نقل تلك الأوراق إلى جيوبي أي وقت! لا شيء يساوي امتلاكك لردود أفعال سريعة واستغلال فرصتك. المشكلة أن الفرص لا تأتي كثيراً. أحسب أن بعض الناس يخافون عندما يعرفون أنهم قتلوا شخصاً، ولكني لم أكن خائفاً... ليس هذه المرة!

ولكن المرء لا يرغب بالإقدام على هذا الفعل كل يوم، ما لم يكن ذلك يستحق العناء حقاً. لا أدري كيف أحست غريتا بمثل هذا الميل عندي، ولكنها عرفته. ولا أعني أنها عرفت بأنني قتلتُ عملياً شخصين، ولكني أظنها عرفت أن فكرة القتل لن تصدمني أو تزعجني.

قلتُ لها: ما هذه القصة الخيالية كلها يا غريتا؟

أجابت قائلة: أنا في وضع أستطيع فيه مساعدتك. يمكنني أن أصلك بواحدة من أغنى الفتيات في أمريكا. إنني أعنى بها تقريباً وأعيش معها، ولديّ الكثير من التأثير عليها.

- أتظنين أنها ستنظر إلى شخص مثلي؟

لم أصدق ذلك للحظة واحدة. فلماذا تختارني فتاة غنية تستطيع انتقاء ما يروق لها من شباب يتمتعون بالجاذبية والوسامة؟

- لديك الكثير من الجاذبية، أليس كذلك؟

ضحكتُ وقلتُ لها إن أدائي ليس بالسيء.

- إنها لم تُجرب أبداً علاقة بشاب؛ فقد كانت موضع رعاية جيدة، وقد تمت تربيتها وتجهيزها لتحقيق زواج جيد ضمن فئة الطبقات الثرية، وأهلها خائفون جداً من إمكانية لقائها بأجنبي وسيم يمكن أن يكون ساعياً خلف مالها. سيتعين عليك أن تمثل مسرحية كبرى عليها. سيتعين عليك أن تقع في الحب من أول نظرة وتوقعها بحبك! سيكون ذلك سهلاً تماماً؛ يمكنك أن تفعل ذلك.

قلتُ بارتياب: يمكنني أن أحاول.

- بل يمكننا أن نرتب الأمر.

- ستتدخل عائلتها وتوقف الأمر.

- لا، لن يتدخلوا، فلن يعرفوا شيئاً عن الموضوع. ليس قبل أن يفوت الأوان. ليس قبل أن تتزوجا سراً.

- هذه إذن فكرتك.

وهكذا تحدثنا في الأمر، وخططنا، ولكن ليس بالتفصيل. عادت غريتا إلى أمريكا، ولكنها بقيت على اتصال بي. ومضيتُ أنا أعمل في مهن مختلفة. كنتُ قد أخبرتها عن فدان الغجري وأنني أريده، وقالت إن ذلك رائع تماماً لبناء قصة رومانسية حوله. وضعنا خُططنا بحيث يكون لقائي مع إيلي هناك. تعهدت غريتا بأن تقنع إيلي بمتلاك بيت في

إنكلترا والتخلص من العائلة حالما تصبح في سن الرشد.

آه، نعم، لقد رتبنا الأمر، وكانت غريتا مخططة عظيمة. لا أحسب أنني كنتُ سأخطط الأمر بمفردي، ولكنني عرفتُ أنني أستطيع تمثيل دوري تماماً. كنتُ قد استمتعتُ دوماً بتمثيل الأدوار. وهكذا حدث الأمر... هكذا قابلتُ إيلي.

وكان الأمر ممتعاً كله، وكان جنوناً؛ إذ وُجدت طبعاً مجازفة وخطر في عدم نجاح الخطة على الدوام. والأمر الذي أربكني فعلاً هو الأوقات التي كنتُ مضطراً فيها للقاء غريتا، فقد كنتُ مضطراً للتأكد من أنني لا أكشف نفسي بالنظر إليها. حاولتُ أن لا أنظر إليها، وقد اتفقنا على أن من الأفضل أن أبدي كرهاً لها وأتظاهر بالغيرة منها، وقد مثلتُ ذلك بشكل جيد. أتذكّر اليوم الذي جاءت فيه لتقيم عندنا، فقد مثلنا مشاجرة، مشاجرة تسمعنا فيها إيلي. لا أدري إن كنا قد بالغنا فيها قليلاً، لا أظن ذلك. كنتُ أخشى أحياناً من أن تخمِّن إيلي شيئاً، ولكني لا أحسبها صنعت ذلك. لا أدري، لا أدري حقاً؛ إذ أنني لم أستطع الجزم أبداً فيما يتعلق بإيلي.

كان من السهل جداً تمثيل الحب على إيلي؛ فقد كانت عذبة جداً. نعم، كانت عذبة حقاً. إلاّ أنني كنتُ أخافها أحياناً لأنها كانت تفعل أشياء دون أن تخبرني، وكانت تعرف أشياء لم أكن أتخيل أنها تعرفها. ولكنها أحبتني. نعم، أحبتني. وأحياناً... أظنني أحببتُها أيضاً...

لا أعني أنها كانت مثل غريتا أبداً؛ فقد كانت غريتا المرأة التي خُلقتُ لها، أما إيلي فكانت شيئاً مختلفاً. لقد استمتعتُ بالعيش معها.

نعم، إن هذا يبدو غريباً جداً وأنا أُعيد التفكير به الآن. لقد استمتعتُ بالعيش معها كثيراً.

إنني أسجل ذلك الآن لأن هذا هو ما كنتُ أفكر به في ذلك المساء عندما وصلتُ عائداً من أمريكا. عندما وصلتُ في قمة نشوتي، بعد أن حصلتُ على كل ما كنتُ أصبو إليه رغم المجازفات، ورغم المخاطر، ورغم قيامي بجريمة قتل رائعة جداً، مع أنني أقول ذلك بنفسي!

نعم، رأيتُ أكثر من مرة أنها كانت عملية صعبة معقدة، ولكن لم يكن بمقدور أحد أن يعرف نتيجةً للطريقة التي اتبعناها. والآن انتهت المجازفات، وانتهت المخاطر، وها أنا ذا آتٍ إلى فدان الغجري... آتٍ كما أتيتُ إليه في ذلك اليوم بعد أن رأيتُ المُلصق لأول مرة على الجدران، وصعدتُ لكي أنظر إلى آثار البيت القديم. آتٍ أصعد وألتف مع التفاف الطريق.

وعندها... **عندها رأيتها**. أعني أنني عندها رأيتُ إيلي. تماماً وأنا ألتف مع منعطف الطريق في المكان الخطير الذي وقعت به الحوادث. **كانت هناك**، في نفس المكان الذي كانت فيه من قبل تماماً، واقفة في ظل شجرة تنّوب، تماماً كما وقفت عندما جفلت قليلاً لرؤيتي وجفلتُ أنا لرؤيتها. هناك كنا قد نظرنا لبعضنا البعض لأول مرة، وصعدتُ أنا وتحدثتُ معها، ومثلتُ دور الشاب الذي وقع فجأة في الحب... ومثلتُه بكل إتقان أيضاً! آه، لقد أخبرتكم أنني ممثل جيد!

ولكني لم أتوقع أن أراها الآن. أعني أنني **لا يمكن أن أراها**

الآن، أليس كذلك؟ ولكنني كنتُ أراها، وكانت تنظر... تنظر إليّ مباشرة... إلاّ... إلاّ أنه كان ثمة شيء أفزعني... شيء أفزعني كثيراً. فقد كانت تنظر وكأنها لا تراني. أعني أنني كنتُ أعرفُ أنها لا يمكن أن تكون هناك حقاً. كنتُ أعرف أنها ميتة... ولكنني رأيتُها. كانت ميتة، وجثتها دُفنت في المقبرة في أمريكا، ولكنها كانت تقف -مع ذلك- تحت شجرة التنوب وكانت تنظر إلي. كلا، ليس إليّ. كانت تنظر وكأنها توقعت رؤيتي، وكان في وجهها حب. نفس الحب الذي رأيتُه يوماً، يوم أن كانت تداعب أوتار غيتارها. ذلك اليوم عندما قالت لي: "ما الذي كنتَ تفكر فيه؟"، فقلتُ لها: "لماذا تسألينني ذلك؟"، فقالت: "لقد كنتَ تنظر إليّ كما لو كنتَ تحبني". وقلتُ لها شيئاً سخيفاً مثل: "بالطبع أحبك".

توقفت وقوف الموتى. توقفت جامداً هناك على الطريق، وكنتُ أرتجف. قلتُ بصوت عالٍ: إيلي.

لم تتحرك، بل اكتفت بالبقاء هناك، تنظر... تنظر مباشرة من خلالي. هذا ما أخافني، لأنني عرفتُ أنني لو فكرتُ دقيقة لعرفتُ لماذا لا تراني، ولم أكن أريد أن أعرف. لا، لم أُرِد معرفة ذلك. كنتُ واثقاً تماماً من أنني لا أريد تلك المعرفة. كانت تنظر مباشرة إلى المكان الذي كنتُ فيه... ولا تراني. ركضتُ عندها، ركضتُ كجبان رعديد قاطعاً ما تبقى من الطريق إلى حيث كانت الأضواء تشع في بيتي، حتى استجمعتُ شتات نفسي من الذعر السخيف الذي انتابني. كان هذا انتصاري، أنني وصلتُ إلى البيت. كنتُ الصياد العائد إلى بيته من التلة، عائداً إلى بيتي، عائداً إلى الأشياء التي أردتُها أكثر من أي

شيء في الدنيا، وإلى المرأة الرائعة التي خُلقتُ لها وخُلقت لي.

والآن سوف نتزوج، وسنعيش في البيت، وسنحصل على كل ما عملنا له! وسوف نفوز... سنفوز دون أية مصاعب!

لم يكن الباب مقفلاً. ودخلتُ وأنا أضرب بقدمي، ثم عبرتُ باب المكتبة المفتوح. وهناك كانت غريتا، واقفة عند النافذة تنتظرني، وكانت رائعة؛ كانت أروع وأجمل شيء سبق لي أن رأيته. وهرعتُ مباشرة إلى ذراعيها، بحاراً عاد من البحر إلى حيث ينتمي. نعم، كانت واحدة من اللحظات الرائعة في حياتي.

وسرعان ما عدنا إلى أرض الواقع. جلستُ، ودفعَتْ هي كومة من الرسائل باتجاهي. وبشكل يكاد يكون آلياً أخذتُ الرسالة التي تحمل طابعاً من أمريكا. كانت هي الرسالة التي أرسلها لينكوت بالبريد الجوي. وقد تساءلتُ عما قد كتب فيها، ولماذا عساه يكتب لي رسالة.

قالت غريتا وهي تتنهد بعمق ورضا: حسناً، لقد نجحنا.

- إنه يوم النصر بالتأكيد.

ضحكنا نحن الاثنين، وضحكنا بعنف، ثم قلتُ وأنا أنظر حولي: هذا المكان رائع. إنه أجمل مما أتذكره. إن سانتونيكس... ولكنني لم أخبرك؛ لقد مات سانتونيكس.

- آه، مع الأسف. إذن فقد كان مريضاً حقاً؟

- بالطبع كان مريضاً. إنني لم أشأ أبداً أن أصدق ذلك. لقد ذهبتُ ورأيتُه وهو يحتضر.

ارتعدت غريتا قليلاً وقالت: ما كنتُ لأحب القيام بذلك. هل قال شيئاً؟

- ليس تماماً. قال إنني مغفل أحمق... وكان عليّ أن أتّبع الطريقة الأخرى.

- ماذا قصد بذلك... أية طريقة؟

- لا أدري ماذا قصد. أحسب أنه كان يهذي ولم يكن يعرف ما الذي يقوله.

- حسناً، إن هذا البيت أثر رائع يُخلد ذكراه. أظننا سنتمسك به، أليس كذلك؟

حدقتُ بها وقلت: بالطبع. هل تظنين أنني سأعيش في أي مكان آخر؟

- لا يمكننا أن نعيش هنا طوال الوقت. ليس طوال العام، أنظل مدفونين في حفرة كهذه القرية؟

- ولكنه المكان الذي أريد العيش فيه... إنه المكان الذي أردتُ دوماً العيش فيه.

- نعم، بالطبع. ولكننا -يا مايك- نملك أموال العالم كلها الآن.

يمكننا الذهاب إلى أي مكان! يمكننا الذهاب لكافة أنحاء أوروبا، وسوف نذهب في رحلات إلى أفريقيا. سوف تكون لنا مغامرات. سنذهب لنرى عجائب الدنيا. ألا تريد أن تكون لك حياة مغامرة؟

انتابني شعور غريب، شعور غريب بأن شيئاً ما قد انحرف في مكان ما. كان ذلك هو كل ما فكرتُ فيه دوماً؛ بيتي وغريتا، ولم أُرِد شيئاً آخر. ولكنها كانت تريد... رأيتُ ذلك. كانت تبدأ بذلك لتوها. **بدأت تريد الأشياء**... بدأت تعرف أنها تستطيع الحصول عليها. وانتابني نذير شؤم مفاجئ ضارٍ، وبدأت أرتعد.

- ماذا دهاك يا مايك... إنك ترتجف. هل أُصبتَ بنزلة برد؟

- ليس الأمر كذلك.

- ماذا حدث يا مايك؟

- لقد رأيتُ إيلي.

- ماذا تعني بقولك رأيت إيلي؟

- بينما كنتُ صاعداً أمشي في الطريق استدرتُ مع المنعطف فوجدتُها هناك، واقفة تحت شجرة تنّوب، تنظر إلـ... أعني تنظر باتجاهي.

حدقت غريتا وقالت: لا تكن ساذجاً. لقد... لقد تخيلتَ أموراً.

- ربما كان المرء يتخيل أموراً، فهذا فدان الغجري في نهاية

الأمر. لقد كانت إيلي هناك بالتأكيد، وبدت... بدت فرحة تماماً، تماماً كما كانت... كما لو أنها... كما لو أنها كانت دوماً هناك، وكما لو أنها ستبقى دوماً هناك.

أمسكت غريتا بكتفيّ وهزتني قائلة: مايك! مايك، لا تقل أشياء كهذه. أكنتَ تشرب قبل أن تأتي إلى هنا؟

قلتُ بعناد: ولكنها كانت إيلي.

- بل لم تكن إيلي بالطبع! لقد كان ذلك مجرد تلاعب للضوء... أو ما شابه ذلك.

- لقد كانت إيلي، وكانت تقف هناك. كانت تنظر... تنظر بحثاً عني ونحوي. ولكنها لم تستطع رؤيتي. غريتا، إنها لم تستطع رؤيتي.

ثم ارتفع صوتي وأنا أقول: وأنا أعرف السبب. أعرف لماذا لم تستطع رؤيتي.

- ماذا تعني؟

وعندها همستُ لأول مرة من بين أسناني قائلاً: لأن ذلك لم يكن أنا. لم أكن هناك. لم يكن أمامها شيء لتراه سوى ليل لا ينتهي.

ثم صحتُ بصوت تملّكه الذعر: يولد بعض الناس للأفراح، ويولد البعض لليلٍ لا ينتهي. وهذا أنا يا غريتا، أنا. أتذكرين يا غريتا كيف جلسَتْ على تلك الأريكة؟ لقد اعتادت على عزف تلك الأغنية

على غيتارها وغنائها بصوتها الرقيق. يجب أن تتذكري.

ثم غنيتُ بصوت منخفض هامس: "في كل صبح ينقضي أو ينقضي مساء، يولد بعض الناس للشقاء، كل مساء ينقضي أو ينقضي صباح، يولد بعض الناس للأفراح، لكلٍّ ما لذّ من الأفراح". تلك هي إيلي يا غريتا. فقد وُلدت لما لذّ من الأفراح. "يولد بعض الناس للأفراح، ويولد البعض لليل لا ينتهي". هذا ما عرفتْهُ أمي عني. عرفتُ أنني وُلدتُ لليل لا ينتهي. لم أكن قد وصلتُ إلى هذا الحد بعد، ولكنها عرفت. وسانتونيكس عرف أيضاً. عرف أنني أتّجهُ بهذا الاتجاه، ولكن كان من الممكن ألا يحدث ذلك. كانت لحظة، لحظة واحدة فقط، عندما غنّتْ إيلي تلك الأغنية. كان من الممكن أن أكون سعيداً تماماً بزواجي بإيلي، أليس كذلك حقاً؟ كان بوسعي أن أستمر بزواجي بإيلي.

– لا، لم تكن لتستطيع ذلك. لم أحسب أبداً أنك من الرجال الذين يفقدون أعصابهم يا مايك.

ثم هزتني بقوة من كتفيّ ثانية وقالت: اصحَ.

حدقتُ بها وقلت: أنا آسف يا غريتا. ما الذي كنتُ أقوله؟

– أظن أنهم أصابوك بالاكتئاب هناك في أمريكا، ولكنك أحسنتَ التصرف، أليس كذلك؟ أعني أن كل الاستثمارات على خير ما يرام، أليس كذلك؟

– كل شيء مرتب، كل شيء مرتب لمستقبلنا المجيد.

- إنك تتكلم بشكل غريب جداً. بودي أن أعرف ماذا قال ليبنكوت في رسالته.

سحبتُ رسالته وفتحتها. لم يكن فيها شيء باستثناء قصاصة من ورق. لم تكن مقصوصة حديثاً، بل كانت قديمة وشبه مهترئة. حدقتُ فيها. كانت صورة لشارع، وقد ميّزتُ الشارع، مع وجود مبنى مهيب في خلفية الصورة. كان شارعاً في هامبورغ مع بعض الناس الذين يتقدمون من المصوِّر، وهناك شخصان في المقدمة يمشيان وقد شبكا أيديهما. وكان الشخصان أنا وغريتا. إذن فقد كان ليبنكوت يعرف. كان يعرف منذ البداية بأنني أعرف غريتا من قبل. لا بد أن أحدهم قد أرسل إليه هذه القصاصة في وقت ما، وربما دون غرض شرير. وربما كان فرحاً فقط بتمييز الآنسة غريتا أندرسن وهي تمشي في شوارع هامبورغ. لقد عرف أنني كنتُ أعرف غريتا، وتذكرتُ كيف سألني بشكل خاص عما إذا كنتُ قد قابلتُ غريتا من قبل أم لا. وقد أنكرتُ ذلك بالطبع، ولكنه عرف أنني كنتُ أكذب. لا بد أن ذلك قد جعله يبدأ بالشك بي.

أصبحتُ فجأة خائفاً من ليبنكوت. لم يكن بوسعه -طبعاً- أن يشك بأنني قتلتُ إيلي، ومع ذلك فقد ارتاب في شيء ما.

قلتُ لغريتا: انظري، لقد عرف أننا عرفنا بعضنا. كان يعرف ذلك منذ البداية. لقد كنتُ دوماً أكره ذلك الثعلب العجوز، وقد كرهكِ هو دوماً. وعندما يعرف أننا سنتزوج فإنه سيشك.

ولكني عرفتُ بعد ذلك أن ليبنكوت قد شك بالتأكيد في أننا

كنا سنتزوج أنا وغريتا، شكٌ بأننا كنا نعرف بعضنا البعض، ولعله شك بأننا كنا عاشقين.

قالت غريتا: مايك، هل لك أن تكف عن التصرف كأرنب أصابه الذعر؟ نعم، هذا ما قلتُه... أرنب أصابه الذعر. لقد أُعجبتُ بك. أُعجبتُ بك دوماً، ولكنك الآن تتهاوى تماماً. إنك خائف من الجميع.

- لا تقولي هذا لي.

- إنه كلام صحيح.

قلت: "ليل لا ينتهي". لم يسعني أن أفكر بأي شيء آخر أقوله. كنتُ ما زلت أتساءل عما تعنيه العبارة بالضبط: ليل لا ينتهي. إنها تعني السواد، تعني أنني لم أكن هناك بحيث أُرى. يمكنني أن أرى الأموات ولكن ليس بوسع الأموات أن يروني مع أنني حي، لا يستطيعون رؤيتي لأنني لم أكن هناك حقاً. الرجل الذي أحبّ إيلي لم يكن هناك حقاً. لقد دخل بكامل إرادته في ليل لا ينتهي.

أحنيتُ رأسي نحو الأرض وقلتُ ثانية: **ليل لا ينتهي!**

صرخت غريتا: توقف عن قول ذلك، توقف! وكن رجلاً يا مايك. لا تستسلم لهذا الخيال الخرافي السخيف.

- كيف أملك أن لا أستسلم له؟ لقد بعتُ روحي لفدان الغجري، أليس كذلك؟ إن فدان الغجري لم يكن آمناً أبداً. لم يكن آمناً لأحدٍ

أبداً. لم يكن آمناً بالنسبة لإيلي، وهو ليس بآمنٍ بالنسبة لي، وربما لا يكون آمناً بالنسبة لك.

صاحت غريتا: ماذا تعني؟

نهضتُ وذهبتُ باتجاهها. كنتُ أحبها. نعم، وما زلتُ أحبها. ولكن الحب، والكراهية، والرغبة... أليست جميعها شيئاً واحداً؛ ثلاثة في واحد وواحداً في ثلاثة؟ ما كنتُ لأستطيع كره إيلي أبداً، ولكني كرهتُ غريتا، وقد استمتعتُ بكراهيتها. كرهتُها من كل قلبي، وبرغبة فرحة تتراقص... لم أستطع انتظار الطرق الآمنة، لا أريد انتظار تلك الطرق، اقتربتُ منها أكثر وقلت: أيتها الساقطة القذرة! إنك لستِ آمنة يا غريتا... لستِ آمنة مني. هل تفهمين؟ لقد تعلمتُ أن أستمتع... أن أستمتع بقتل الناس. لقد كنتُ منفعلاً يوم أن عرفتُ أن إيلي قد خرجت على ذلك الحصان لحتفها. استمتعتُ طوال الصباح بسبب القتل، ولكنني لم أقترب من القتل بما يكفي إلاّ الآن. هذا مختلف. إنني أريد أكثر من مجرد معرفتي بأن امرأة ستموت من كبسولة شربتها على الإفطار. أريد أكثر من دفع امرأة عجوز فوق مقلعٍ للحجارة. أريد أن أستخدم يدي.

كانت غريتا خائفة الآن. غريتا التي شعرتُ بأنني خُلقتُ لها منذ أن التقيتُها في ذلك اليوم في هامبورغ، التقيتها ورحتُ لأتظاهر بالمرض ولأتخلى عن وظيفتي لكي أبقى هناك معها. نعم، لقد شعرتُ بالانتماء لها وقتها، ولكنني لا أنتمي لها الآن. كنتُ قد أصبحتُ نفسي من جديد. كنتُ قادماً إلى مملكة من نوع آخر، مملكة كنتُ قد حلمتُ بها.

كانت خائفة، وقد أحببتُ رؤيتها خائفة، وأحكمتُ يديّ حول عنقها. نعم، حتى الآن، حيث أجلس لأدوِّن كل شيء عن نفسي (وهي -بالمناسبة- ممارسة مُفرحة جداً... أن تكتب كل شيء عن نفسك، وعما مررتَ به، وبماذا شعرتَ وفكرتَ، وكيف خدعتَ الجميع...) نعم، ما زلت أشعر حتى الآن أنه كان عملاً رائعاً. نعم، كنتُ سعيداً جداً عندما قتلتُ غريتا!

* * *

- ٢٤ -

لا يوجد حقاً الكثير مما يُقال بعد ذلك. أعني أن الأحداث قد بلغت ذروتها هناك، وأحسب أن المرء ينسى أنه لا يمكن أن يكون أمامه طريق أفضل يتبعه، وبأنه قد أضاع فرصته كلها. اكتفيتُ بالجلوس هناك لوقت طويل. لا أدري متى أتوا، ولا أدري ما إذا كانوا قد جاؤوا على الفور.

لا يمكن أن يكونوا هناك منذ البداية لأنهم ما كانوا ليتركوني أقتل غريتا. لاحظتُ أن سيد المنطقة كان من أول الواصلين، وأعني بذلك الميجر فيلبوت. كنتُ قد أحببتُه دوماً، فقد كان لطيفاً معي. كان رجلاً شهماً ولطيفاً، وكان يُعنى بالناس ويحاول بذل كل ما في وسعه من أجلهم.

لا أدري ما كان مدى علمه بي. تذكرتُ الطريقة الغريبة التي نظر بها إليّ في ذلك الصباح في قاعة المزاد، وبعدها، عندما كنا هناك عند جثة إيلي الصغيرة المكومة على الأرض بملابس ركوب الخيل... تساءلتُ إن كان قد عرف وقتها أو خطرت له فكرة ما بأن لي علاقة بالأمر.

اكتفيت بعد موت غريتا -كما قلت- بالجلوس هناك على مقعد، أحدق في كأس فارغ أمامي. كان كل شيء فارغاً جداً، فارغاً جداً بالفعل. كان هناك مصباح واحد فقط أشعلناه أنا وغريتا، ولكنه كان في الزاوية، ولم يكن يُصدر الكثير من الضوء. وكانت الشمس... أحسب أن الشمس كانت قد غابت منذ أمد بعيد دون شك. اكتفيتُ بالجلوس هناك وتساءلت عما سيحدث بعد ذلك بشيء من العجب السئِم.

أحسب أن الناس بدؤوا -بعد ذلك- بالمجيء، ولعل الكثير من الناس جاؤوا دفعة واحدة. وإذا كان الأمر كذلك فالأغلب أنهم جاؤوا بهدوء شديد، أو أنني لم أكن أسمع أو ألاحظ أحداً.

وربما كان سانتونيكس سيخبرني ماذا يجب أن أفعل لو كان هناك. ولكن كان سانتونيكس ميتاً. لقد اتبع طريقاً غير طريقي، ولذلك فلن يأتي منه أي عون. لن يأتي أي عون من أحد في الواقع.

بعد قليل لاحظتُ الدكتور شو. كان في غاية الهدوء بحيث لم أكد أعرف بأنه هناك في البداية. كان يجلس قربي تماماً ينتظر شيئاً ما، وبعد قليل رأيتُ أنه ينتظر مني أن أتكلم. قلتُ له: لقد عدتُ إلى البيت.

كان ثمة شخص أو شخصان يتحركان في مكان ما خلفه، وبدا أنهما ينتظران، ينتظران شيئاً سيفعله هو. قلت: غريتا ميتة؛ لقد قتلتُها. أحسب أن من الأفضل أن تُبعَد الجثة، أليس كذلك؟

قام أحدهم في مكان ما بإضاءة ومضة آلة تصوير. لا بد أنه

مصور الشرطة يصور الجثة. التفت الدكتور شو وقال بحدة: "ليس الآن"، ثم عاد فالتفت إليّ ثانية.

انحنيتُ نحوه وقلت: لقد رأيتُ إيلي الليلة.

- أحقاً؟ أين؟

- في الخارج، تقف تحت شجرة تنوب، في نفس المكان الذي رأيتُها فيه أول مرة.

توقفت لحظات ثم قلت: إنها لم ترني... لم تستطع رؤيتي لأنني لم أكن هناك.

وبعد لحظات قلت: لقد أزعجني ذلك... أزعجني كثيراً.

قال الدكتور شو: لقد كان السم في الكبسولة، أليس كذلك؟ سيانيد في الكبسولة؟ أهذا ما أعطيتَه لإيلي في ذلك الصباح؟

قلت: كانت الكبسولات دواء لحُمى القش، كانت تأخذ كبسولة دوماً كإجراء وقائي ضد الحساسية عندما تخرج لركوب الخيل. فككتُ أنا وغريتا كبسولة أو اثنتين ووضعنا بهما دواء مكافحة الزنابير الذي جئنا به من سقيفة الحديقة، ثم أعدنا تركيبهما ثانية. فعلنا ذلك في البيت الصغير في طرف الغابة. حيلة ذكية، أليس كذلك؟

ثم ضحكت. وكانت ضحكة غريبة، سمعتُها بنفسي. كانت أقرب إلى قهقهة غريبة. قلت: لقد فحصتَ كل الأدوية التي تتناولها عندما جئت لفحص كاحلها، أليس كذلك؟ الحبوب المنومة وكبسولات

الحساسية، ووجدتَ أن كل ذلك جيد لا غبار عليه، أليس كذلك؟ لا ضرر من أيٍ منها.

- نعم، لا ضرر. كانت أدوية بريئة تماماً.

- كانت تلك خطة ذكية فعلاً، أليس كذلك؟

- لقد كنتَ ذكياً تماماً، نعم، ولكنك لم تكن ذكياً بما فيه الكفاية.

- ومع ذلك فإني لا أرى كيف عرفت.

- لقد عرفنا عندما حدثت وفاة أخرى، الوفاة التي لم تقصد أنت حدوثها.

- وفاة كلوديا؟

- نعم. لقد ماتت بنفس طريقة موت إيلي؛ وقعت عن حصانها في حقول الصيد. وقد كانت كلوديا فتاة ذات صحة جيدة أيضاً، ولكنها وقعت عن حصانها وماتت. ولكن الوقت لم يكن طويلاً في هذه الحالة، فقد وصلوا إليها على الفور تقريباً، وكانت ما تزال هناك رائحة السيانيد للاستدلال بها. ولو أنها بقيت مرمية في الهواء الطلق لساعتين كما حصل لإيلي لما كان هناك شيء يُعثَر عليه ولا شيء يمكن شمُّه. ومع ذلك فإنني لا أدري كيف أخذت كلوديا الكبسولة، ما لم تكونا قد تركتما خلفكما كبسولة في البيت الصغير في الغابة؛ فقد اعتادت كلوديا الذهاب إلى ذلك البيت أحياناً، وقد كانت بصمات أصابعها هناك، وقد أسقطَتْ قداحة هناك أيضاً.

قلت: "لا شك أننا كنا مُهمِلَيْن. كانت عملية تعبئة الكبسولات دقيقة وصعبة". ثم قلت: لقد شككتُم بأن لي علاقة بوفاة إيلي، أليس كذلك؟ كلكم؟

ثم التفتُّ حولي إلى الأجساد الغائمة وقلت: لعلكم شككتُم كلكم؟

- كثيراً ما يعرف المرء الحقيقة. ولكنني لم أكن واثقاً مما إذا كنا سنستطيع فعل شيء إزاء ذلك.

قلتُ له مؤنباً: كان عليك أن تُحذِّرني.

- أنا لستُ ضابط شرطة.

- ماذا أنت إذن؟

- أنا طبيب.

- أنا لا أحتاج طبيباً.

- هذا ما ينبغي التأكد منه.

نظرتُ إلى فيلبوت وقلت: وماذا تفعل أنت؟ أجئتَ هنا للحكم عليّ، لتترأس محاكمتي؟

- أنا لستُ سوى عمدة هنا. إنني هنا كصديق.

- كصديق لي؟

ولكنه فاجأني حين قال: كصديق لإيلي.

لم أفهم. لم أجد في أي شيء من ذلك معنى، ولكني لم أتمالك إلاّ أن أشعر بأني مهم. كلهم موجودون هناك! الشرطة والطبيب شو وفيلبوت الذي كان رجلاً مشغولاً وفق طريقته. كان الأمر كله معقداً جداً، وبدأت أفقد تمييزي للأمور؛ فقد كنتُ متعباً جداً. لقد اعتدتُ على أن أتعب فجأة وأذهب للنوم!

وكل هذا المجيء والذهاب حولي. جاء الناس لرؤيتي، جميع أصناف الناس. محامون، ومُدّعٍ عام فيما أظن، ومحام معه من نوع آخر، وأطباء... العديد من الأطباء. وقد أزعجوني ولم أشأ أن أرد على أسئلتهم.

وبقي أحدهم يسألني إن كنتُ أرغب بأي شيء، فقلتُ له: "نعم، شيء واحد أرغب به". ثم قلتُ إنني أريد قلماً جافاً والكثير من الورق. أردتُ أن أكتب كل شيء عن هذه القصة وكيف جرى الأمر كله. أردتُ أن أخبرهم بماذا شعرت، وبماذا فكرت. وكلما فكرتُ بنفسي أكثر، كلما ازددتُ قناعة بأن هذا الأمر سيكون مثيراً لاهتمام الجميع، لأنني أنا كنتُ مثيراً للاهتمام. لقد كنتُ حقاً شخصاً مثيراً للاهتمام، وقد فعلتُ أشياء مثيرة.

وقد بدا أن الأطباء... أو طبيباً واحداً منهم على الأقل... رأى أن الفكرة جيدة. قلت: "إنكم تتركون الناس دوماً يدلون بإفادة، ولذلك لماذا لا أستطيع كتابة إفادتي على الورق، فربما استطاع الجميع قراءتها يوماً ما؟"، وقد تركوني أفعل ذلك.

إنني لا أستطيع الكتابة لفترة طويلة بشكل متواصل؛ فقد كنتُ أتعب. وقد استعمل أحدهم عبارة أشبه بعبارة «نقص الأهلية العقلية» فاعترض شخص آخر، وغير ذلك من مختلف أنواع الكلام الذي يسمعه المرء. أحياناً يبلغ بهم الأمر أنهم يشكّون حتى في إصغائك إليهم. ثم تعيّن عليّ أن أمثل أمام محكمة، فطلبتُ منهم أن يُحضروا لي أفضل بدلة من بدلاتي إذ يجب أن أظهر بمظهر رائع هناك. بدا أنهم كانوا قد وضعوا رجال تحرٍ لمراقبتي منذ وقت طويل. ذانك الخادمان الجديدان، أظن أنهما كانا مُكلّفيْن من قبل ليبنكوت لمتابعتي. لقد اكتشفوا الكثير من الأشياء عني وعن غريتا. الغريب أني لم أعد أفكر أبداً بغريتا بعد أن ماتت، فبعد أن قتلتُها لم يبدُ أنها تهمُّ كثيراً. وحاولتُ أن أستعيد شعور الانتصار الرائع الذي انتابني عندما خنقتُها، ولكن حتى هذا تلاشى وذهب!

أحضروا أمي لرؤيتي فجأة في أحد الأيام. وقد وقفتْ هناك تنظر إليّ من عتبة الباب. لم تبدُ قلقة كما كانت تبدو عادة، وأحسب أن كل ما ظهر عليها الآن هو الحزن. لم يكن لديها الكثير مما يُقال، كما لم يكن لديّ أنا أيضاً. كان كل ما قالته هو: لقد حاولتُ يا مايك... حاولتُ بكل جهدي أن أبقيك آمناً، وقد فشلت. لقد كنتُ أخاف دوماً من أنني سأفشل.

قلتُ لها: لا بأس يا أماه؛ فلم تكن غلطتك. أنا الذي اخترتُ اتباع الطريق الذي أردتُه.

وفكرتُ فجأة: هذا ما قاله سانتونيكس! كان خائفاً عليّ أيضاً، كما أنه لم يكن قادراً على فعل شيء هو الآخر. ما كان بوسع أحدٍ أن

يفعل شيئاً... ربما باستثنائي أنا... لا أدري، لستُ واثقاً. ولكنني أتذكر بين الحين والآخر... أتذكّر ذلك اليوم عندما قالت لي إيلي: "ما الذي تفكر فيه وأنت تنظر إليّ بهذه الطريقة؟"، فقلتُ لها: "بأية طريقة؟"، فقالت: "كما لو كنتَ تحبني". أحسب أنني أحببتها فعلاً بطريقة ما، نعم، أظن أنني أحببتها؛ فقد كانت شديدة العذوبة. إيلي، المولودة لما لذّ من الأفراح!

أحسب أن مشكلتي كانت أنني أردتُ الأشياء بشكل محموم دوماً، وأردتُها أيضاً بالطريقة السهلة، بالطريقة الجشعة.

في تلك المرة الأولى، ذلك اليوم الأول الذي جئتُ فيه إلى فدان الغجري وقابلتُ إيلي، وبينما كنا ننزل في الطريق ثانية قابلنا إيستر. تلك المقابلة وضعت الأمر في ذهني منذ ذلك اليوم، التحذير الذي وجّهَتْهُ لإيلي جعلني أفكر في دفع المال لها. عرفتُ أنها كانت من النوع الذي يبدي استعداداً لفعل أي شيء من أجل المال. سأدفع لها وستبدأ بتحذير إيلي وتخويفها وجعلها تشعر أنها في خطر، ورأيتُ أن من شأن ذلك أن يجعل الزعم بأن إيلي ماتت نتيجة الصدمة مسألةً أسهل فيما بعد. إنني أعرف الآن، بل أنا واثق الآن أن إيستر كانت خائفة حقاً في ذلك اليوم الأول. لقد كانت حقاً خائفة على إيلي، وقد حذّرَتْها، حذرتها وطلبت منها أن تبتعد وأن لا يكون لها شأن بفدان الغجري. وقد كانت تحذرها -طبعاً- من أن يكون لها شأنٌ بي أنا. إنني لم أفهم ذلك، ولم تفهمه إيلي أيضاً.

أكنتُ أنا من تخافه إيلي؟ أحسب أن الأمر كان كذلك دون شك، رغم أنها لم تكن تعرف ذلك تماماً. عرفت أن شيئاً يهددها،

وعرفت أن عليها خطراً. وقد عرف سانتونيكس الشر داخلي أيضاً، تماماً كأمي. ربما كان الثلاثة جميعاً يعلمون. علمَتْ إيلي ولكنها لم تأبه، فهي لم تأبه أبداً لشيء. إنه أمر غريب، غريب جداً، أعرف ذلك الآن. لقد كنا سعيدَيْن جداً معاً، نعم، سعيدين جداً. أتمنى لو أنني عرفتُ وقتها أننا كنا سعيدين. لقد سنحت لي فرصتي، وربما تسنح لكل امرئ فرصة. أما أنا... فقد أدرتُ لها ظهري.

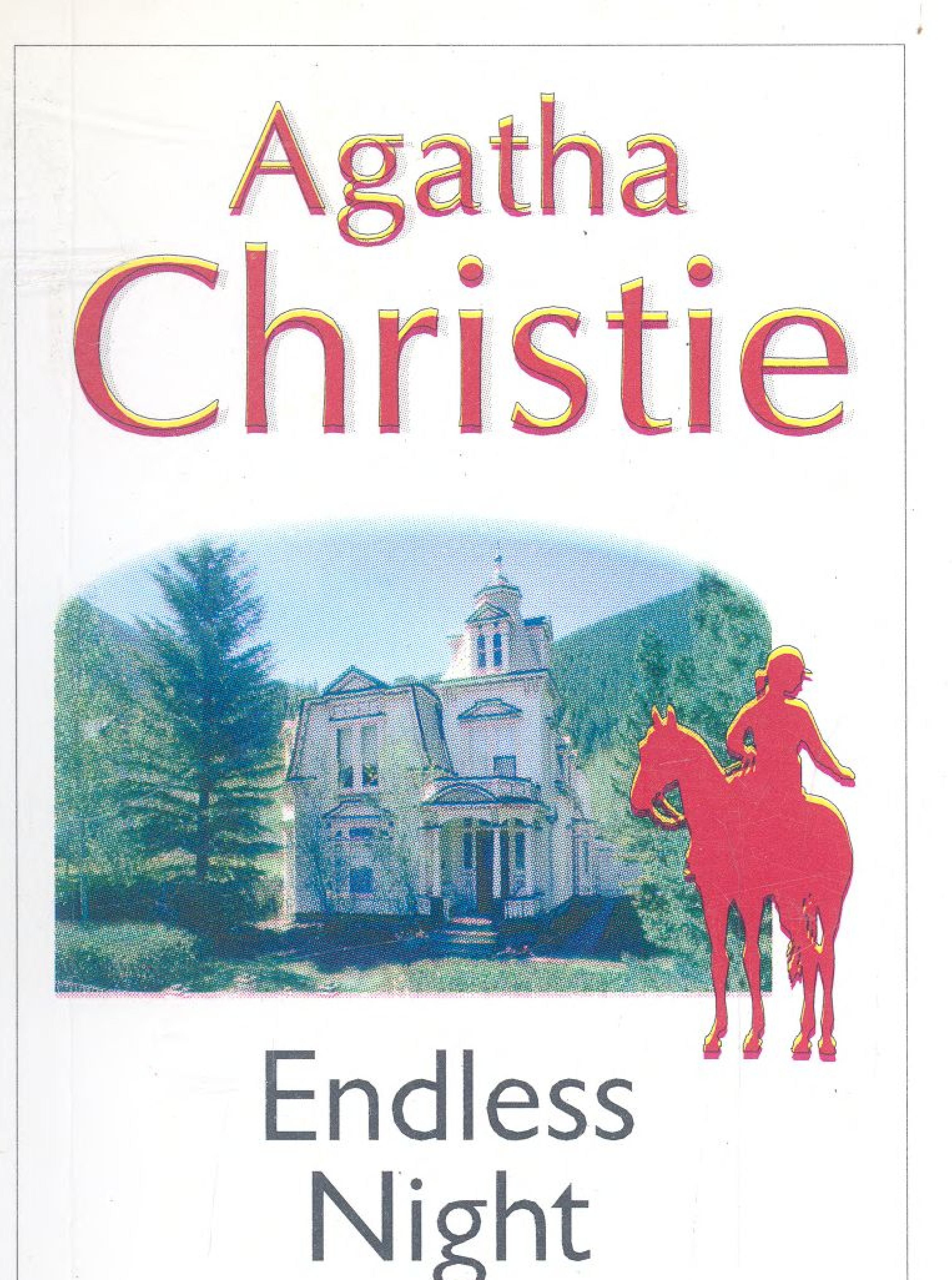
ألا يبدو غريباً أن غريتا لم تعد تَهُمُّ على الإطلاق؟ وحتى بيتي الجميل لا يهم.

إيلي فقط... وإيلي لا تستطيع أن تجدني ثانية أبداً. ليل لا ينتهي... هذه هي نهاية قصتي.

في نهايتي البداية... هذا ما يقوله الناس دوماً. ولكن ماذا يعني ذلك؟

وأين تبدأ قصتي بالضبط؟ يجب أن أحاول معرفة ذلك!

* * *



لَيْلٌ لا يَنْتَهي

"فدان الغجري" هو اسم البيت الغريب الذي قام هناك بين الأشجار. لقد ارتبط البيت بالأساطير الغريبة، ولكن مايكل لم ير فيه غير موقع عظيم لبناء بيت الأحلام الذي يريد أن يقيم فيه إلى الأبد مع الفتاة التي أحبها.

الحوادث الغريبة بدأت تقع في ذلك المكان. فهل كان على مايكل منذ البداية أن يصغي إلى ذلك التحذير العجيب: "لا حظّ لأولئك الذين يعيشون بفدان الغجري، ولم يكن لهم حظ أبداً من قبل"؟!

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَيْ مليون نسخة!





9

سعر البيع في السعودية ١٢ ريالاً
في بقية أنحاء العالم 3.2 دولاراً